

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الملك عبد العزيز
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
الدراسات العليا
قسم التاريخ

العثمانيون والإمام القاسم بن محمد بن علي في اليمن

١٠٠٦هـ/١٥٩٨ - ١٠٢٩هـ/١٦٢٠م

بحث مقدم
لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث

بإشراف الأستاذ الدكتور محمد عبد اللطيف البحراوي

بحث الطالبة أميرة علي وصفي المداح

٩٩/١٤٠٠هـ - ٧٩/١٩٨٠م

شكر وتقدير

يسرني وأنا أقدم رسالتي هذه عن موضوع :

" العثمانيون والامام القاسم بن محمد "

للحصول على درجة الماجستير ، أن أحمد الله سبحانه وتعالى على توفيقه لي، وتيسير السبل أمامي ، وأن أتقدم بالشكر الى كل من مد يد العون والتوجيه والارشاد ، وسهل لي الحصول على المراجع التي استعنت بها وحققت الفائدة المرجوة منها ، ولا يسعني ازاء شكري الا أن أدعو الله لكل من قدم لي يد الخير بحسن الجزاء ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال " كان الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه " .

والله ولي التوفيق .!

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم القائل : " طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة " ، وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه إلى يوم الدين .

أما بعد :

كانت رغبتى وأنا فى السنة الثانية منهجية أن أقدم بحثا عن وطنى **المملكة العربية السعودية** ، وخاصة عن منطقة الحجاز ، اعتقادا منى أنها لم تنل حقها من بحث الباحثين ، واخترت الموضوع بالفعل ، وكان عنوانه " الحالة الاقتصادية لبلاد الحجاز فى العصر العثمانى " وأرسلت به الى مجلس الكلية للموافقة عليه ومناقشته ، ولكن فى ضوء فكرة التنسيق ومراعاة احتياجات القسم ، فقد اختير لى موضوع آخر وهو ((**العثمانيون والإمام القاسم بن محمد ابن على**)) ففكرت مليا . . وقد أسعدنى هذا الاقتراح لأن هذه الفترة بالذات ، فترة خطيرة فى تاريخ اليمن بصفة خاصة ، وتاريخ الجزيرة العربية بصفة عامة ، وذلك يرجع لأهمية الفرض الرئيسى من وراء مدّ السيطرة العثمانية على اليمن حينذاك ، وهو اتخاذها قاعدة أمامية لصد الغزو البرتغالى عن الحرمين الشريفين ، والدفاع عن البحر الأحمر .

وقد أعجبت بهذا البحث الذى اقترحته علىّ الجامعة للحصول على درجة الماجستير لأسباب عدة ، منها : أنه برغم أهمية الإمام القاسم بن محمد واتصال أحداث دولته بتاريخنا الحديث فان أحدا لم يتعرض له بالبحث بصورة لائقة به كمؤسس دولة لها أهميتها فى التاريخ الحديث ، وظلت سيرته فى سبات

يكتنفها كثير من الغموض ويجهل تاريخه الكثيرون ، وان ما كتب عنه - هو قليل جدا - لم تكن سوى إشارات عنه فقط ، عدا المخطوطة التى تحدثت عن سيرته وهذه ليست فى متناول الجميع ، وليست بالسهلة التى يتسنى لكل شخص قراءتها .

يضاف لذلك أنه عندما يشار إلى اسم الإمام القاسم بن محمد ، فانه كثيرا ما يظن أنه " محمد بن القاسم " فاتح الهند فى العصر الوسيط الإسلامى ، لذا كان من واجبى كباحثة أن أظهر هذه الشخصية الهامة المغمورة وما لها من دور عظيم فى تاريخ اليمن ، فرغم عزلة اليمن المعروفة فى تلك الفترة فاننى أومن بأن تاريخه لا ينفصل عن تاريخ الجهات المجاورة من الجزيرة العربية ثم أنى إحدى بنات شبه الجزيرة العربية ، تلك الجزيرة التى لم تأخذ حقها من الباحثين فى البحث والتنقيب عن تاريخها المغمور ، وخاصة اليمن ، فان الفكرة الشائعة فى العصر الحديث عنها أنها من الدول المتخلفة رغم مالها من ماض مجيد وحضارة شامخة .

ولست أريد أن أذكر أن هذا البحث جديد على الدراسات الجامعية ، ولكنى أذكر أن اتجاهى لهذا البحث نتج عن ملاحظتى لحاجة المكتبة العربية للمؤلفات المنهجية ، والابحاث العلمية الجادة التى تشمل تاريخ اليمن ، وخاصة فى عهد الإمام القاسم بن محمد والدولة العثمانية ، وماله من دور عظيم فى تأسيس الدولة القاسمية التى استطاعت أن تحكم اليمن وتخرج العثمانيين منها ، وفى رسالتى هذه تناولت أوضاع اليمن السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

فالبحث في هذا الموضوع قد أفادني كثيرا ، اذ تمكنت من الاتصال بتراثنا الثقافي العريض الذي لم ينشر بعد ، وقادتني هذه الدراسة إلى التعرف على المخطوطات العربية وأنواعها وأهميتها ، وكيفية الاستعانة بها ، إلى غير ذلك مما لم تيسر لي الإحاطة به من قبل ، وفي هذا المجال تجدر الإشارة إلى أمر هام كان له أثره في تيسير ما يعترض الباحث من صعوبات إزاء الإطلاع على هذا النوع من المراجع ، وهو المخطوطات كما كان له أثره كذلك في تيسير دراسة تلك الفترة ، إذ أن استاذي المشرف طلب مني قبل البدء في الرسالة الاطلاع على مخطوطة " النبذة المشيرة في سيرة الإمام القاسم بن محمد" لمؤلفها الجرموزي ، تحت إشراف سيادته ، فساعدني ذلك على التعرف على المخطوطات من ناحية ، وعلى ملامح موضوع الرسالة من ناحية أخرى ، لاتصال هذه المخطوطة بالموضوع اتصالا مباشراً .

ولم يكن الأمر سهلا أمامي عندما بدأت البحث ، اذ قامت عدة صعوبات تمثلت في قلة المراجع والمصادر وعدم توفرها في المكتبات من جهة ، ويرجع بعضها الآخر الى الموضوع نفسه لأنه لم يكن لدى الفكرة الواضحة عن الإمام القاسم نفسه ، أضف إلى ذلك أن المراجع التي حصلت عليها بعد جهد ومشقة ، كانت مختلفة في أنواعها ، وفي تنوع اهتماماتها ، وإن يكن هذا من ناحية أخرى ، عامل قوة في هذه المراجع ، اذا جاز لنا أن نقوم بتقييمها في هذا المجال .

فمجموعة المراجع تضم القديم الذي عاصر موضوع الرسالة ، كما تضم كتب المحدثين ، وكلا النوعين يحتاج الى نظرة خاصة عند الرجوع إليه والأخذ منه ، فالمراجع القديمة التي عاصرت الأحداث تميزت بأصالتها وغزارة مادتها وقربها من

تلك الأحداث غير أن هذا لا ينفي اشتمالها على كثير من التفصيلات المطولة والآراء المنحازة ، والاضطراب والتناقض ، وهذا التناقض بين ايجابيات هذا النوع من المراجع ، وبين سلبياته كان يحملني على التريث والحذر عند استخراج المادة التاريخية اللازمة ، كما كان يلزمني القيام بتمحيص المعلومة ومقارنتها بغيرها ، وذلك ببطء وترو شديدين حتى أستطيع فى نهاية الأمر أن أرسم خطوطا مستقيمة لأجزاء الرسالة ، وكتب المحدثين لها أيضا حسناتها وسيئاتها فمن حسناتها أنها أكثر تنظيما ودقة من كتب الأقدمين ، كما أنها تقدم تفسيرات وتحليلات ، فى بعض الأحيان ، غير أن هذه الكتب تقصر عن تقديم المادة التاريخية الكافية ، بل وإنها تقدم دراساتها بوجهة نظر خاصة ، قد تكون مغرضة فى كثير من الأحيان ، مما كان يدفعني إلى الوقوف أمامها بحذر وتيقظ عند الرجوع اليها .

وبالاضافة إلى الفروق المختلفة بين مراجع الرسالة فان مؤلفيها ينتسبون إلى جنسيات ومدارس متنوعة ، ولذلك فقد كان لكل منهم نافذته الخاصة التى ينظر منها إلى الأحداث ، ويتضح ذلك اذا نظرنا إلى الخلافات التى ظهرت بين مؤلفى المخطوطات التى رجعنا إليها والتى سوف أتحدث عنها بشىء من التفصيل فى ملحق خاص فى نهاية الرسالة .

وعلى مدار هذا البحث اتبعت منهجا علميا محددا تمثل فى محاولتى المستمرة لارجاع تفصيلات الموضوع لأصولها الأولى وجذورها المتفرعة ، وهذا ما جعلني أحاول معرفة طبيعة البيئة اليمنية ، التى شاعت فيها ضروب مختلفة من المذاهب والاتجاهات ، وجدت لزاما على أن أقوم بدراستها والتعرف على نظرياتها التى اتخذت أساسا لنظم الحكم فى اليمن ، وأثرت تأثيرا عميقا فى تاريخه الحديث .

كما حاولت أن أعرف أبعاد الصلة التي تربط الأحداث الجارية داخل اليمن بالتغييرات التي كانت تطرأ على الأوضاع القائمة في عاصمة الدولة العثمانية ، بل وبالتطورات التي كانت توجه الأحداث العالمية في ذلك الحين ، ايمانا مني بأن التاريخ الحديث والمعاصر يختلف عن العصور التاريخية السابقة بأنه تاريخ أكثر عالمية وشمولا .

وقد بذلت جهدي لتخليص نفسي أثناء كتابة هذا البحث من عوامل الرضا أو السخط ونوازع الحب أو الكره ، حتى تكون كلمتي في الموضوعات التي طرقتها موضوعية خالصة ، مبعثها الضوء الذي تجمع أمامي من حقائق أكدتها وثائق واضحة ودعمتها مصادر دقيقة واثبتتها المقارنة والتحليل .

وكيفما كان الأمر ، فقد قسمت الرسالة إلى تمهيد وخمسة فصول ، وقد خصصت التمهيد لدراسة الأوضاع التي كانت عليها اليمن قبل ظهور دعوة الإمام القاسم بن محمد ، وكانت إرهاصا لهذه الدعوة ،كما أنني خصصت الجزء الأول من هذا التمهيد للتحدث عن المذهب الزيدي ونشأته لما له من دور خطير في حياة أهل اليمن ، فعلى أساس نظرياته قام حكم الأئمة في اليمن وكان سببا في إثارة الاضطرابات التي سادت اليمن في عهد الإمام القاسم بن محمد الذي نحن بصدد الحديث عنه .

وفي الفصل الأول من الرسالة ، قدمت تفصيلات واضحة عن نشأة الإمام القاسم لما لهذه النشأة من أثر على الإمام القاسم ، فجعلته مؤسس أول دولة زيدية استطاعت أن تخرج العثمانيين سنة ١٦٣٥ م ويكون لها الدور الرئيسي في تاريخ اليمن حينذاك .

كما قدمت تفصيلات عن ظهور دعوته سنة ١٠٠٦ﻫ وما واجهه من صعاب ومشاكل لأن الأمر لم يكن سهلا أمامه ، فقد صادفته كثير من الانتكاسات والعقبات التي أوضحتها في الفصل الأول والثاني والثالث وقد وقفت الدولة العثمانية تحاربه بشتى الوسائل واستعملت في ذلك الأمراء اليمنيين الموالين لهـا للإيقاع به ، بالإضافة الى مواقف بعض الأمراء اليمنيين المناوئين لدعوته مثل الأمير عبد الرحيم بن عبد الرحمن ، وهذه الدعوة قد مرت بأربع نهضات كما ذهب إليه صاحب سيرة الإمام القاسم ـ الجرموزي في مخطوطه اذ قال :
" للإمام أربع نهضات : الأولى من الدعوة الى خروجه من شهارة الى برط ، والثانية من خروجه من برط إلى انعقاد الصلح بينه وبين سنان ثم جعفر باشا والثالثة خروجه على جعفر باشا بعد موت ابراهيم باشا ، والرابعة خروجه على محمد باشا ويعقبها وفاته " (١)

ومن الغريب أن خطة البحث قد وضعت قبل الإطلاع على هذا المخطوط وجرى فيها تحديد النقاط الهامة بما اتضح بعد ذلك أنه يتمشى تماما مع وجهة نظر الجرموزي .

وقد التزمت هذا التقسيم في الفصول ، الأول ، والثاني والثالث والرابع وذلك لدقة هذا التقسيم عند عرض الأحداث ، وأضفت فصلا خاصا هو الفصل الخامس عن الحالة في الأستانة لكي أحاول أن أربط بين التغيرات التي كانت تطرأ على الأوضاع القائمة في عاصمة الدولة العثمانية والأحداث الجارية في اليمن ، ثم ختمت الرسالة بالتحليل والنتائج التي توصلت إليها ، خلال

---

(١) المطهر بن محمد الجرموزي ـ النبذة المشيرة في سيرة الإمام القاسم مخطوط ص ١٣٦

اطلاعي على مصادر ومراجع الرسالة ، ولذلك أهمية عظيمة ، فهي زبدة الموضوع كله .

وقد حرصت في دراسة هذه الفصول الخمسة على ألا أقف عند ذكر الأحداث السياسية وتطورها ، لأني فهمت التاريخ على أنه العلم الشامل ، ولذلك عنيت أيضا بالنتائج الإجتماعية والاقتصادية والعلمية ، واتبعت أسلوب التحليل التاريخي ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ، كنت أجد نفسي أحيانا مضطرة إلى تفصيل بعض الأحداث والوقوف عندها أكثر من غيرها ، ولقد كان ذلك راجعا إلى طبيعة موضوع الرسالة من ناحية ، وإلى أنه كان من الموضوعات التي لم تدرس من قبل دراسة علمية حديثة ، ولذلك كان عليّ أن أهتم مثلا بتصور خريطة جغرافية لليمن معاصرة للموضوع ، لانه من الملاحظ أن أكثر من كتب عن اليمن ، أهمل بوضع الخرائط التي تبين مواضع البلاد .

واني لا يسعني هنا الا أن أقدم مخلصة جزيل الشكر إلى استاذي المشرف الدكتور محمد عبد اللطيف البحراوي لما غمرني به من أفضال كثيرة ، فقد شرفني بالاشراف على رسالتي للحصول على درجة الماجستير ، كما أشكر سيادته على ارشاداته وتوجيهاته العلمية السديدة .

وأخيرا فانني أرجو أن أكون قد تمكنت من خدمة تاريخنا العربي الحديث بهذا البحث المتواضع .

والله ولي التوفيق .!

أميرة المداح

التمهيد

أ - نبذة عن الإمامة الزيدية.

ب - إنهاء إمامة أولاد المطهر بن شرف الدين.
وأسر الإمام الحسن.

جـ - فترة الاستقرار.

ساعد المذهب الزيدى على خلق وحدة بشرية مترابطة فى تاريخ اليمن منذ ظهوره ، فقد قامت بعض الدول القوية على أساسه ،واستطاعت أن تمد نفوذها على مناطق واسعة فى جنوب الجزيرة العربية وأن تنشر الأمن والاستقرار هناك ،وظهرت أهمية هذا المذهب فى فترة الحكم العثمانى الأول وما يليها ،اذ كان هو التنظيم القوى الوحيد الذى اصطدم به العثمانيون فى اليمن ، وكان الصراع الدموى بين السادة اليمنيين الساعين لإقامة الإمامة وبين العثمانيين ، حتى فى الوقت الذى سيطر فيه العثمانيون على العاصمة اليمنية صنعاء ، فان ذلك لم يعطهم سيطرة فعلية على اليمن بأكمله ، فقد ظلت الإمامة الزيدية فى الشمال [1] ، وكانت صعدة حصنها الحصين ، تواصل وجودها وتؤكد حقها فى الحكم .

وسوف نرى أن الدولة القاسمية التى وضع أساسها الإمام القاسم ابن محمد ،تعتبر بحق من أحسن الأمثلة للعصبية التى أشار اليها ابن خلدون فى مقدمته المشهورة بأنها ضرورية لقيام الدول ،والتى ربط بينها وبين قوة الدولة [2] ، ولكن يجب القول أن العصبية الزيدية لم تكن دائما عاملا ايجابيا فى قيام تنظيم سياسى فى اليمن فحسب ،بل كانت أيضا عاملا سلبيا ، وعامل اضطراب ،وهذا ما دفع هانز هلفرتز Hans Helfrits الى القول بأن " أهم أسباب اضطرابات اليمن أيام الحكم العثمانى هو تعلق اليمنيين بفكرة

---

(١) الشمال : اليمن الأعلى .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٨٠

الإمامة ، فالمذهب يسمح بطبيعته فرصة التنازع بين أبناء بيت عليّ على الإمامة، فيظهر العديد من الادعياء وتزيد الفوضى والاضطراب طالما كانت السلطة العليا ضعيفة "[١] ولكي نتحدث عن الزيدية ودورها الكبير بشيء من الدقة والعمق يجب أولا أن نتعرض لمبادئها وأصولها .

فالزيدية هي إحدى فرق الشيعة ، والشيعة لغة هم الصحب والأتباع، وهم في عرف الفقهاء والمتكلمين أتباع عليّ وبنوه .[٢]

ويمكن القول أن الشيعة نشأت ابتداء في عهد الخليفة عثمان (رضى الله عنه) . ويلاحظ أنها اتخذت أرض العراق إحدى مستقراتها الرئيسية فاذا كانت المدينة ،ومكة ،وسائر مدن الحجاز مهدا للسنة والحديث ،والشام مهدا للأموية ، فقد كان العراق موطن التشيع ، ولقد تضافرت عدة أسباب جعلت من العراق كذلك ، فالإمام على بن أبى طالب أقام به مدة خلافته وفيه التقى بالناس ، ورأوا فيه ما آثار تقديرهم ، وإلى هذا أشار ابن ابى الحديد عند حديثه عن الأسباب التي جعلت العراق وجعلت من سكانه أهل بصروتد قيسق ولذلك لن يكون عجيبا حين نرى الإمام القاسم يفكر في اللجوء الى العراق حين تعرضت حركته للخطر في مرتفعات اليمن .[٣]

---

(١) السيد مصطفى سالم : تكوين اليمن الحديث ص ٢٦ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٥
(٣) أبو زهرة : الامام زيد ص ١٠٨

والشيعة جميعا متفقون على أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ، بل إن الإمام يتولى بالتعيين ، وهم يستدلون على ذلك بنصوص يؤولونها على مقتضى مذهبهم .(١)

ومن الشيعة من يرى أن هذه النصوص تدل على عليّ وتشخصه ، وأن الإمامة تنتقل منه إلى من بعده ، وهؤلاء هم الإمامية ، وهم يتبرءون من الشيخين ، حيث أنهم لم يقدموا عليا ويبايعوه ، ومنهم من يقول إن هذه الأدلة انما اقتضت تعيين عليّ بالوصف لا بالشخص ، والناس مقصرون حيث لم يضعوا الوصف موضعه وهؤلاء هم الزيدية ، وهم لا يتبرءون من الشيخين ، لأنهم يجوزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، ثم اختلفوا في نقلها بعد عليّ ، فمنهم من ساقها في ولد فاطمة بالنص عليهم واحدا بعد واحد وهؤلاء يسمون الإمامية ، نسبة الى مقالهم باشتراط معرفة الإمام وتعيينه ، ومنهم من ساقها في ولد فاطمة لكنه بالاختيار من الشيوخ .

وقد ساق الزيدية الإمامة على مذهبهم فيها ، وأنها باختيار أهل الحل والعقد لا بالنص ، فقالوا : بالإمامة لعليّ ثم ابنه الحسن ، ثم أخيه الحسين ، ثم ابنه عليّ زين العابدين ، ثم لابنه زيد بن عليّ ، وهو صاحب هذا المذهب وخرج بالكوفة داعيا الى الإمامة فقتل ، بعد أن أوصى الى محمد بن عبد الله ابن حسن بن الحسن السبط ، ويقال له النفس الزكية وهو محمد بن القاسم بن على أخو زيد ابن على ، فخرج هذا في الطالقان في أيام المعتصم وقال آخرون

---

(١) محمد البحراوي - فتح العثمانيين عدن ص ٣٠

من الزيدية إن الإمام بعد محمد بن عبد الله هو أخوه ادريس الذى فرّ إلى المغرب ومات هناك (١) ، وكان من عقبه ملوك المغرب .

أما الإمامية ، فساقوا الإمامة من علىّ الرضا إلى ابنه الحسن بوصية ، ثم إلى أخيه الحسين ، ثم إلى ابنه زين العابدين ، ثم ابنه محمد الباقر ، ثم إلى ابنه جعفر الصادق ، ومن هنا إلى ابنه موسى الكاظم ، وهم الاثنا عشرية لوقوفهم عند الثانى عشر من الأئمة ، وقولهم بغيبته إلى آخر الزمان ، ومنهم من نقل الإمامة إلى اسماعيل ، ثم ابنه المكتوم وهو أول الائمة المستورين ، لأن الإمام عندهم قد لا يكون له شوكة فيستتر ويسمى هؤلاء تارة بالاسماعيلية ، نسبة إلى قولهم بإمامة اسماعيل ، ويسمون أيضا بالباطنية (٢) .

ومؤسس المذهب الزيدى هو الامام الوالى السعيد زيد بن على بن الحسن ابن على بن أبى طالب (رضى الله عنهم جميعا) .

ولد زيد رضى الله عنه سنة ٨٠ هـ ، ولم يذكر العلماء تاريخ مولده ، ولكن جل الروايات تدل على أنه قتل شهيدا فى الميدان (للدفاع عن الحق) سنة ١٢٢ هـ ، وأجمع المؤرخون على أن سنه يوم مقتله لا تتجاوز الثانية والأربعين ، ويقال أن أمه كانت من السند ، أهداها لأبيه المختار الثقفى ، وكانت ذات تأمل وفكر وزهد ، وذكاء وعلم واسع (٣) .

---

(١) هارولد . ف . يعقوب ـ ملوك شبه جزيرة العرب ص ١٢٨
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٥٨
(٣) أبو زهرة ـ الامام زيد ص ٢٢

أما مؤسس المذهب الزيدى فى اليمن ، فهو الإمام الهادى إلى الحق يحي بن الحسين بن القاسم الرسى ، ولد فى سنة ٢٤٥ هـ بجبل الرس من جبال المدينة المنورة قرب ذى الحليفة ، حيث كان أبوه وجده وأهله وذووه ، يعيشون هناك ، بعيدين عن التيارات المذهبية ، وعن أعين الرقباء ، وخفية عن الدولة العباسية ، وكان جده القاسم بن ابراهيم قد خرج إلى اليمن متنكرا ، ثم عاد الى المدينة ، فنشأ الهادى نشأة تقوى وصلاح ، وعفاف ودين ، ثم انتقل إلى العراق ، فتتلمذ على أبى القاسم البلخى ، ثم عاد من العراق إلى الرس ، وقد امتلأ أفكارا عن حياة العراق وترفها وعيشة أهلها وحضارتها ، وبهرته قصور الخلفاء العباسيين وما يتمتعون به ، وهم الذين لم يكتفوا بسلب الخلافة فحسب فى رأيه ، بل وتناولوهم بالقتل والتشريد ، فثارت فيه نعرة الانتقام وحرارة الثأر ، وقد ذهب إلى آمل بفارس حيث كان قد رحل من أقاربه إلى هناك محمد بن زيد ، واستعان بالناصر الاطروشي ، وتزعم الاثنان حركة المقاومة ضد العباسيين ، ورأى الهادى أن يشترك فى المعارك ، فارتحل الى آمل ببلاد فارس ، ولكنه سرعان ما اصطدم بخيبة الأمل ، فعاد أدراجه ، ولكن اليأس لم يخامره ، فارتحل الى اليمن سنة ٢٨٠ هـ ، ودخل صعدة وتعرف على أهلها ، ولكنه لم يجد الضالة المنشودة ، اذ لم يكن الوقت قد حان لبث دعوته ولكنه بذر البذرة الأولى .(١)

تركت الرحلة الأولى للهادى فى نفوس أهل اليمن أثرا بعيدا فأوفدوا فى موسم سنة ٢٨٣ هـ وفدا حمل رسائل من زعمائهم يستدعونه ويتعهدون بنصرته ،

---

(١) ابن الديبع - قرة العيون ص ١٧١

ويقبلون كل شرط يطلبه منهم ، فاستجاب لرغبتهم ، ووصل خولان ٦ صفر سنة ٢٨٤ هـ ودخل في صراع مع قبائل خولان وهمدان والقرامطة وبني يعفر[(١)] .

وبعد أن استقر في صعدة جمع أهلها وما جاورها على حكم واحد ، وحقق قدرا من الأمن بين ربوعها ، وسار الهادي في حكم ما تحت يده من البلاد اليمنية على سنة العدل ، مما جعل الأهلين يرون فيه مظهرا لحكم الاسلام ، ولذلك سار أهل اليمن وراءه طائعين لا كارهين ، ولا مجبرين[(٢)] ، وظلت تلك الحال إلى أن وافاه الأجل يوم الأحد ١٠ ذي الحجة سنة ٢٩٨ هـ عن ثلاثة وخمسين سنة .

أدى ذلك إلى انقسام أهل اليمن الى قسمين : شيعة زيديين ، وسنة شافعيين ، وساد المذهب الأول في الجبال والمرتفعات ، وتركز حول صعدة بينما ساد المذهب الثاني في الجهات المنخفضة ، أي في تهامة ، وتركز حول زبيد ، وشبت بين المذهبين حروب وصراعات ، ومع أن المذهب السني كان يتلقى عونا خارجيا تمثل في سيطرة الأيوبيين ثم العثمانيين من بعدهم ، وقام ملك تمركز في زبيد ضد الإمامة الزيدية ، فان الإمامة لم تخضع ولم تلق سلاحها ولم يكن خضوعها في فترات معينة خضوعا طبيعيا أو سلميا ، لأنها لم تك تلبث أن تشعل الحرب تلو الحرب حتى انتهى الأمر بالقضاء التام على كل العوامل

---

(١) ابن الديبع - قرة العيون ص ١٦٨ ، ١٧١

(٢) أبو زهرة - الامام زيد ص ٢٩٨

المناوئة لها ، وهذه النهاية ، هي التي وضع أساسها الإمام القاسم بن محمد ، الذي نحن بصدد التأريخ له ، ولذلك جاء دوره في تاريخ اليمن وفي شبه الجزيرة العربية جد خطير .(١)

لذلك يمكن القول بأن فكرة تعليل استمرار اضطرابات اليمن في العهد العثماني بتعلق اليمنيين بالإمامة الزيدية ، هي فكرة صحيحة إلى حد بعيد . ومن المعروف أن الإمام الهادي الرسي قد اعتمد ، بعد أن استقر له الأمر ، على رؤساء قبيلة همدان ، لتوطيد اقدامه في المنطقة الشمالية ، وقد ساعدت ظروف المنطقة الجبلية الشمالية ، بامكانياتها الطبيعية المحدودة على انتشار هذا المذهب هناك ، وسوف نرى ، فيما هو آت ، أن بعض القبائل كانت تشترك في حروب الأئمة من أجل الحصول على الأسلاب والغنائم ، وكانت قبائل أخرى تدخل في طاعة الامام حتى يشتد ساعدها في خروجها على جيرانها ، وفي بعض الأحيان كانت إحدى القبائل تغرى أحد الأئمة على إعلان دعوته من إقليمها حتى يكون لها السطوة والنفوذ عند نجاح هذه الدعوة .

وتجدر الإشارة هنا الى أن ظهور المذهب الزيدي في شمال اليمن ، قد أدى إلى ازدياد هجرة أسر الاشراف إلى هذه الجهات ، واتخاذها موطنا لهم ، وأدى هذا بدوره إلى اغناء المذهب بالكثير ممن ينطبق عليهم شروط الإمامة ولذلك تمكن المذهب من البقاء في اليمن بالرغم مما تعرض له من أخطار طوال العصور الوسطى والحديثة .

---

(١) محمد البحراوي - فتح العثمانيين عدن ص ٢٠٤

أما شروط الإمامة فى المذهب الزيدى فأهمها أن يكون الإمام مكلفا ، ذكرا ، حرا ، مجتهدا ، علويا ، فاطميا ، عدلا ، سخيا ، ورعا ، سليم العقل ، سليم الحواس ، سليم الأطراف ، صاحب رأى وتدبير ، مقداما فارسا .

وأهم هذه الشروط كما يبدو لنا ، وفى نطاق موضوع البحث ، هو قول الزيدية أن الإمامة بعد الحسن والحسين شورى فى ولديهما ، فمن خرج منهم شاهرا سيفه ، داعيا إلى دينه وكان عالما ورعا فهو إمام ، فالزيدية تنفى الوراثة والاجتهاد عندهم هو العلم ، والعلم هو التفقه فى الدين ، والحديث والفقه واللغة والعلوم الكونية ، وكان شرط الإمامة بالسيف سببا فى فتح الباب للحسن والحسين على السواء ، فشروط الإمامة عند الزيدية خير كبير لولا شرط السيف الذى أنزلوه منزلة الشورى والمبايعة ، ولو إنهم انتخبوا الإمام وبايعوه على طريقة الصحابة (رضوان الله عليهم) لجاء اختيار الإمام هادئا ، ولكنهم جعلوا الإمامة غنيمة لمن يأخذها بالسيف .[1]

وكان هذا هو السبب الأكبر فى الفتن والحروب ، وعدم الاستقرار فى تلك البلاد ، واشتراط الإمام زيد أن يخرج الإمام داعيا لنفسه معناه أنه هجر مبدأ التقية ، الذى كان قد التزمه آل البيت بعد مقتل الإمام الحسين ، كما أجاز الزيدية خروج إمامين يستجمعان هذه الخصال فى قطرين ، ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة ، وذلك لاتساع الدولة الإسلامية ، وأجازوا أيضا أمرا هاما كما أشرنا ، وهو أن الإمام ليس من الضرورى أن يكون أفضل الموجودين ،

---

(١) محمد البحراوى ـ فتح العثمانيين عدن ص ٣٢

بل يجوز أن يكون المفضول إماما ، والأفضل قائما فيرجع إليه في الأحكام ، ويحكم بحكمه في القضايا .[(١)]

أجمعت الزيدية على أن معرفة الإمام عليّ واجبة على كل مكلف ، أما بالنسبة لمن تقدمه من الخلفاء الثلاثة ، فزيدية اليمن لا تنكر عليهم شيئا من ذلك لجواز قيام المفضول مع وجود الأفضل للمصلحة ، ولمبايعة الإمام عليّ لهم ، ومنهم من يوقف تخطئتهم على عطهم أي أنهم اذا كانوا غير عالمين باستحقاقه دونهم بعد التحرى ، فلا اثم عليهم وان أخطأوا ، لأن كل مجتهد مصيب ، وهذا هو قول الامام القاسم بن محمد في كتابه الأساس .[(٢)]

اننا نلاحظ أن الزيدية ليست سلالة واحدة متصلة ، ولكنها محدودة في بيت معين ، وهم لا يأخذون بما نستطيع أن نسميه الانتخاب والاختيار للحاكم ، وان كانوا يحصرونه داخل نطاق محدود ، ولكن هذه المبادئ نفسها تسمح بوجود ثغرة في بنائها الاساسى ، وسمحت بتأويلات وتفسيرات كثيرة كان الغرض منها اختيار الأصلح من بين هؤلاء الأفراد لإمامة الزيديين ، ولكن هذا الشرط نفسه كان عونا لبعض الطامعين منهم في الخروج على الإمام القائم بالأمر وهذا ماجعل بعض المؤرخين[(٣)] يشيرون دون ادراك كامل لحقيقة هذا الشرط أن الإمامة عندهم غنيمة لمن يأخذها بالسيف .[(٤)]

---

(١) السيد مصطفى سالم ـ تكوين اليمن الحديث ص ٢٧
(٢) الشرفي ـ اللآلئ المضيئة ص ١٢٣
(٣) منهم أمين الريحاني في كتابه ـ ملوك العرب
(٤) السيد مصطفى سالم ـ تكوين اليمن الحديث ص ٢٨

وقد أدى هذا المبدأ دون شك إلى قيام كثير من الفتن والاضطرابات منذ دخول المذهب الزيدى إلى اليمن ، ومعنى تعدد الإمامة هو انقسام البلاد الى أقسام متصارعة .

والزيدية ثلاث فرق هى : الجارودية والسليمانية ،ولا داعى للدخول فى تفصيلات كثيرة عن هذه الفرق ،والذى يهمنا من ذلك فيما يتعلق بموضوع بحثنا هو أن الزيدية أعدل هذه الفرق لأنهم يرون أن عليا أحق بالخلافة من أبى بكر وعمر ولكنه أما وقد اجتمع اكثر الصحابة على بيعة أبى بكر وعمر ،فلابد أن يعترف بامامتهما ، لأن الصحابة اذ ذاك قد رأوا الظروف المحيطة بهم .

واذا كان الإمام زيد (رضى الله عنه) لا يفرض إمامة الأفضل دائما ، ولا يفرض أن الخلافة تجىء بالوراثة أو الايصاء ،فانه لا يمكن أن يعرض عصمة الأئمة اذ أن فرض عصمة الأئمة من الخطأ أساسه أن يكون توليهم من النبى (صلى الله عليه وسلم) ،والنبى صلى الله عليه وسلم ماكان يتصرف الا بوحى يوحى إليه ،وما كان من المعقول أن يختار النبى صلى الله عليه وسلم لهم بأمر من ربه إماما يجرى عليه الخطأ فى أحكامه .(١)

أوجب الشيعة على الإمام سبعة واجبات هى : اقامة الجماعات والحدود ،ونصب الحكام ،وتنفيذ الأحكام ونصب الولاة للمصالح والأيتام ،وغزو الكفار ،وأخذ الحقوق كرها ،وتسهيل الحجاب حتى يتصل به الضعفاء والمساكين لقضاء حوائجهم ،وتقريب أهل الفضل وتعظمهم واستشارتهم ، وتعهد الضعفاء

---

(١) أبو زهرة ـ الامام زيد ص ١٨٨

والمصالح ، والا يتنحى ما وجد ناصرا من المسلمين لا من غيرهم ، وأن يؤمر على السرية أميرا صالحا لها ،وأن يدعو الكفار إلى الاسلام قبل مقاتلتهم وتقديم دعاة البغاة إلى الطاعة فان أبوا أوجب الحرب ان ظن الغلبة .[1]

تشعب المذهب الزيدى نتيجة اعتناق أناس له فى العراق وفى الجزيرة العربية ،وفى خراسان ،وكثيرين فى اليمن ،اذ أن كل اقليم قد صبغ المذهب بصبغته فى السياسة ،وفى الفقه ،حتى صار يظن أن الزيدية مذاهب وليست مذهبا واحدا قد استقامت أصوله وتفرعت فروعه ، واذا كانت الزيدية قد اختلفت فى السياسة فهى فى الفقه أكثر اختلافا .

ان باب الاجتهاد فى المذهب الزيدى مفتوح ولم يغلق ،وقد كان مفتوحا فى الأصول كما هو فى الفروع ،وكتبهم تشتمل على آراء الأئمة ،وقد تبين من البحث أنها آراء جمعت ما بين آراء علماء السنة وعلماء الشيعة .

وقد تبين لنا أن المذهب الزيدى يقوم على عنصرين هامين ،وهما دعامتان يرتكز عليهما ،وقد بذل الزيدية اهتماما كبيرا فى دراسة علوم هذين الأصلين ولهم فيهما أبحاث مستفيضة :

أولاهما : علم أصول الدين ويسمى عندهم علم الكلام ، أو علم التوحيد والعدل ،ويعتبرونه كما قال الإمام القاسم بن محمد فى كتابه الأساس أنه " من أجل العلوم قدرا ، وأعظمها حظا ،وأكبرها خطرا ، وأعمها وجوبا ، وأولاها ايثارا ، وأولها صدرا "

---

(١) أحمد حسين شرف الدين ـ تاريخ اليمن الثقافى ج ٤ ص ١٦١

والدعامة الثانية : هى علم أصول الفقه ،وقد عرفه القاضى محمد بن يحيى مهران فى مقدمة كتابه الكافل بقوله : " أصول الفقه هو علم بأصول يتوصل بها الى استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية " .[1]

فالاجتهاد معناه فى اللغة بذل الجهد فى الوصول إلى أمر من الأمور ، ويعرفه علماء الأصول فى الاصطلاح بأنه بذل الفقيه وسعيه فى استنباط الأحكام العملية واستخراجها من أدلتها التفصيلية كالاستدلالات على تحريم الربا قليلة وكثيره ، وقد عرف علماء الزيدية الاجتهاد الاصطلاحى بأنه بذل الجهد فى تعرف الحكم من جهة الاستدلال ، فكل تعرف لأمر شرعى عن طريق الاستدلال سواء أكان عقليا أم كان شرعيا فهو اجتهاد ،وشروطه : العلم بالعربية ،وبالقرآن وبالسنة ومعرفة مواضع الاجماع والعلم بالقياس وطرائقه ، ومعرفة مقاصد الأحكام الشرعية ، وصحة الفهم ،وحسن التقدير ، وصحة النية وسلامة الاعتقاد".[2]

وبذلك يتميز المذهب الزيدى عن باقى المذاهب الشيعية أنه ليس مذهبا مغلقا بل ان باب الاجتهاد فيه مفتوح ،وقد أدى هذا على مر العصور الى ظهور عدد من الأئمة المجتهدين الذين أثروا المذهب بمؤلفاتهم المطولة ،وبآرائهم الجديدة ،ففى أواسط القرن التاسع الهجرى ظهرت مجموعة من العلماء المحصلين والمخرجين الذين قاموا بدراسة كتاب المنار للعلامة صالح بن مهدى والبحر الزخار ، وهذان لم يقتصرا على فقه الزيدية فحسب ، وانما شملا الفقه الاسلامى عامة وأدلة كل حكم فيه ، وعلى غرارهما وضعوا الأساس بقواعد المذاهب

---

(١) أحمد حسين شرف الدين ، تاريخ اليمن الثقافى ج٤ ص ١٣٤

(٢) أبو زهرة ـ الامام زيد ص ٤٥٣

عملا بما تقرر لديهم من أقوال الأئمة واجتهاداتهم وفتاويهم وتقريراتهم في جميع أبواب الفقه ، وجعلوا المذهب المختار كما قال الإمام القاسم بن محمد : ما انطبقت عليه تلك القواعد والأصول من مسائل الفروع ، فما كان من أقوال الأئمة المتقدمين كزيد بن علي والصادق ، والباقر وأمثالهم وكذا الهادي ، والناصر ، ويحي بن حمزة ، وعبد الله بن حمزة ، وغيرهم ملائما لتلك القواعد جعلوه مذهبا وسموه : اختيارات المذهب الزيدي ، ويجمع هذه الاختيارات كتاب شرح الأزهار ، ويتضمن أيضا اختيارات المذاهب والفرق الاسلامية الاخرى.[1]

ولذلك كان من واجبي في بحثي هذا ألا أتعرض للإمام القاسم بن محمد بالطريقة التقليدية ، وهي الاقتصار على دوره السياسي ، بل اتضح من البحث أن له دورا في غاية الأهمية في تطوير المذهب الزيدي ، وفي مجال العلم والفقه أيضا ، لانه لم يكن لزيدية اليمن حتى القرن العاشر الهجري فقها محددا أو معينا لذاته وانما كان عبارة عن مجموعة صخمة من الموسوعات العلمية التي تضمن الآراء والاجتهادات والترجيحات ، التي كان يستنبطها كل مجتهد من الأدلة الشرعية والعقلية ، كنتيجة لأبحاثهم العميقة ودراساتهم الشاملة كمذاهب الاسلام ، ومن المعروف أن الزيدية لم ينتسبوا لمذهب الإمام زيد الا لمتابعتهم له في مسائل خاصة تتعلق بأصول الدين ، أما الفقه وأصوله فمنهم من يوافقه فيه ، ومنهم من يخالفه ، الا أنهم جميعا وعلى الاطلاق لم يخالفوه في وجوب الاجتهاد ويرجعون إليه الفضل في فتح بابه وانارة سبيله ، وعلى الجملة فان

---

(١) أحمد حسين شرف الدين - تاريخ اليمن الثقافي جـ ٤ ص ٢١٢

المذهب الزيدى مذهب يقوم على أساس البحث والاجتهاد وفى كل ما يتعلق بالأحكام الشرعية . وأهم المؤلفات التى تبين هذه الاجتهادات كتاب الاعتصام للإمام القاسم بن محمد ، الذى يبدى فيه رأيه فى مسائل فقهية ، وكذلك كتاب التجريد للمؤيد بالله .

ويعتبر المذهب الزيدى أكثر المذاهب الشيعية اعتدالا وأقربها الى مذهب أهل السنة والجماعة ، وأهم ما يتميز به عن بقية مذاهب الشيعة عدم المبالغة فى تقديس علىّ ، كما فعل الغلاة من غيرهم من الشيعة ، وقد ترتب على هذا أن مسائل الخلاف بين علماء الزيدية وأهل السنة جاءت يسيرة ، اذا قورنت بمسائل الخلاف بين بعض المذاهب الأخرى ، وهذا هو معنى أن المذهب الزيدى هو أقرب المذاهب لأهل السنة ، واذا تتبعنا تلك المسائل الخلافية فاننا نجد أن معظمها يدور حول المسائل الفرعية الظنية ، كما هو واضح فى أصول الفقه ، والمسائل الخلافية نفسها قد أثارت نقاشات حادة بين علماء الزيدية أنفسهم .

ويحدثنا السيد العلامة محمد بن اسماعيل فى كتاب المسائل المرضية فى بيان اتفاق أهل السنة والزيدية ، والذى أورد فيه عددا من مسائل الخلاف بين المذهبين ، أن هنالك اتفاقا بين الفريقين فى أصل المسائل ، بل انه ليس ثمة ما يصح اطلاق كلمة خلاف عليه غير ما ولدته الاجتهادات الخاطئة من جهة أو أوجدته التعصبات المذهبية من جهة أخرى .(1)

---

(١) أحمد حسين شرف الدين - تاريخ اليمن الثقافى ج ٤ ص ٢١٠ ، ٢١٤

سبقت الإشارة إلى أن اليمن بعد دخول الهادى إليها انقسمت إلى زيدية وسنية ، وبذلك لم تنعم باستقرار فى عهد من العهود التى تتابعت عليها، ومنيت البلاد بنظام مزدوج عجيب ، لم يصب به جزء آخر من الجزيرة العربية فان الدعاة لم ينفكوا طوال هذه العهود عن نشر دعوتهم ونتيجة لذلك وجد فى اليمن نظام الملك ونظام الإمامة ، فكان الملك له مناطق نفوذه وله أجناده والإمام له مناطق نفوذ أخرى وله أيضا أتباعه ، ثم تظل القوتان فى عراك مستمر وكر وفر دون الوصول الى نتائج حاسمة وسريعة ، وحتى الإمامة نفسها كثيرا ما انقسمت على نفسها ومنيت البلاد بأكثر من إمام واحد وبحروب مستمرة وقودها الأئمة المتنازعون ، وعلى ذلك فان ثنائية السلطة التى سيعرف بها العصر العثمانى فى غرب الجزيرة العربية حيث كانت توجد الإمامة فى اليمن الى جانب الوالى العثمانى ، كما يوجد نظام الشرافة أو حكم الأشراف فى الحجاز الى جانب وجود الوالى العثمانى أيضا ، وهذه الثنائية فى كل منهما هى العامل الفعال فى تشكيل تاريخ اليمن وتاريخ الحجاز .

وكان الإمام المطهر بن شرف الدين أكثر الأئمة مقاومة للحكم العثمانى ، فقد دخل فى كثير من الحروب مع الدولة العثمانية ، وفى سنة ٩٧٥ هـ كانت اليمن فى أشد حالات الاضطراب وسقط الوالى مراد باشا قتيلا واستولى الإمام المطهر على صنعاء .[(١)]

وبعد وفاة المطهر وجد الاشراف الطامعين فى الحكم بموته متنفسا

---

(١) أحمد السعيد ـ معجم الاسرات الحاكمة جـ ١ ص ٢١٧

للوصول إليه ، وبسط عدد من الأشراف في القسم الأعلا من اليمن سلطتهم على ما تحت أيديهم ، وصار كل منهم لا يعترف بالآخر ولا يرتبط معه بأي رابط ، واتاح ذلك للقبائل فرصة التمرد والخلاف على الولاة أنفسهم ، وقامت حروب بين الأمراء والقبائل في مناطق عديدة وبين الأمراء فيما بينهم ، واضطربت الأمور وقام مع ذلك دعاة آخرون من الأشراف ، منهم السيد على بن ابراهيم من أولاد القاسم الرسي ، وكان محتسبا [1] ، وعرف بالعابد والسيد محمد بن ابراهيم من أولاد القاسم الرسي ، وكان محتسبا أيضا ، وعرف بالعالم ، وكانت دعوتهما معا في بلاد الشرف من بلاد حجة ، ويظهر أنهما تلازما في الدعوة وسرعان ما تخليا عن الدعوة وانتهى أمرهما ، ثم دعا الحسن بن على بن داود ابن الحسن بن الإمام على بن المؤيد جبريل في سنة ٩٨٦هـ وتلقب بالناصر ، كانت دعوته في النصف من رمضان من الهَجر من بلاد الأهنوم ، وكانت له فطنة في اقتباس العلوم وتحصيل منطوقها ، درس المختصرات وأحاط بشروحها في أكثر الأوقات حتى في أيام اشتغاله بالجهاد في دعوته في أقطار اليمن وملك عدة حصون وكانت قبائل الأهنوم وعذر في وقته أهل قوة وكثرة وعدة وسلاح من البنادق وغيرها ، وكانوا على خلاف مع أولاد المطهر ، فأطاعوه طاعة صادقة ، وحثهم على ذلك ، وأرسل رسله بالرسائل إلى كل عالم فاضل وكتب إلى لطف الله ابن المطهر وهو في ذى مرمر " فأجاب بغير المراد فاضطربت على أولاد المطهر البلاد واهتز لتلك الدعوة الجبال والوهاد " [2] وكتب إلى محمد بن شمس الدين

---

(١) محتسبا : من اكتفى بالله عن غيره .
(٢) الكبسي : اللطائف السنية ص ١٠٩

فلم يجب عليه ،وكتب إلى علي يحي فكانت معه الأجابة والدخول في طاعته ، وسلمت إليه عدة حصون .(١)

اكتفى الحسن بن داود من الأمراء آل شرف الدين بالاعتراف به في أول الأمر ، ولم يحاول مد نفوذه إلى مناطق نفوذهم في بلاد حجة وغيرها ،كما عمل الإمام على ابقاء بعض أبناء المطهر في مراكزهم أملا في تعاونهم معه ، رغم أن معارضة الأهالي لهؤلاء الحكام كانت من الأسباب التي جعلتهم يلتفون حول الإمام الحسن .

لكن الحال لم يلبث أن تبدل بين الإمام الحسن وأبناء المطهر إلى خلاف وعداء سافرين أديا إلى نشوب حروب بينهما ،ماكانت تخبو آثارها حتى تضطرم من جديد ،وسفكت فيها دماء كثيرة من الزيديين ،فان القوة الزيدية أصبحت منقسمة ،واستمر هذا الحال حتى جاء الوالي العثماني الوزير حسن باشا سنة ٩٩٨هـ / ١٥٨٠م .(٢)

إن دعوة الإمام الحسن هنا كشفت عن مدى ضعف الأمراء الزيديين وعن تخلي الأهالي عنهم واستيائهم من حكوماتهم ،وهذا ما لمسه حسن باشا الذي تولى أمر اليمنيين فاستغل هذه الأوضاع للتخلص منهم جميعا ، ومد سيطرته إلى المناطق الشمالية .

وفي سنة ٩٩٠هـ / ١٥٨٢م أراد حسن باشا فتح الحرب على آل المطهر والسيد أحمد بن الحسين المؤيدي صاحب صعدة ،وقد اتبع خطة سياسية

---

(١) الشرفي ـ اللآلىء المضيئة ص ٦٧
(٢) محمد الحداد ـ تاريخ اليمن السياسي ص ٣٢٣

محكمة لتفتيت الجبهة اليمنية التى تقف ضده ،فعمل على منع اتصال عناصر هذه الجبهة أو التعاون بين قواتها ، ومما ساعد على ذلك ضعف هذه الجبهة في حد ذاتها ،وضعف عناصرها ، فبعد أن استولى على حصن ظفار وتحصينه لمدينة عمران ، ارسل قواته في وقت واحد إلى على يحيى ولطف الله ،وفى نفس الوقت أرسل قوات أخرى فى ظفار أمام قوات أحمد بن الحسين صاحب صعدة وذلك لإشغال كل منهم عن مساعدة الآخر .

كما فعل نفس الشيء مع على يحيى بعد أن حاصر كلا من ثلا ، ومُدع فى وقت واحد ليضطر على يحيى من توزيع جيوشه بين الحصنين فلا تقوى على مجابهة الجيوش العثمانية ، وقد ركز حسن باشا حصاره على حصن مُدع لأنه أكثر توسطا بين ممتلكات باقى الامراء ،فقد حط الأمير الكخيا سنان على حصن مُدع، وحاصره من الجهات الأربع ،ورغم ذلك فقد استمر حصار حصن مدع حوالى ثمانية أشهر ولم يتم تسليمه للعثمانيين الا بعد عقد الصلح مع على يحيى ،وذلك يرجع لدفاع المحاصرين عن الحصن .(1)

ولما دخلت سنة ٩٩٢هـ / ١٥٨٤ م نقض الباشا حسن الصلح الذى بينه وبين على يحيى من غير سبب ،فوجه العساكر إلى مسور وأمر محمد بن شمس الدين صاحب كوكبان بان يشن الغارات من جهته ، وكان ذلك ضمن الخطة التى اتبعها حسن باشا لتفتيت الجبهة اليمنية، وتتمثل فى ضرب الزعماء الزيديين بعضهم ببعض مستغلا فى ذلك إثارة الخلافات القديمة من جهة ، واغرائهم لتحقيق اطماعهم على حساب الأمراء الآخرين من جهة أخرى ، وكانت

---

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح - مخطوط ص ٧١

ظروف اليمن في ذلك الوقت ساعد حسن باشا على تنفيذ تلك الخطة ، نظرا لكثرة الخلافات والمنازعات بين الأمراء الزيديين بعد وفاة المطهر كما سبق التنويه عن ذلك .

كان في حصن مسور " ولاة ورتبه " [1] من عهد المطهر بن الإمام ، ثم جعل على يحيى على هذه الرتبة ابن أخيه محمد بن الهادي بن المطهر ، ولما كان هناك خلاف بين على يحيى ومحمد بن الهادي ،علم به حسن باشا فاستغله وأرسل لمحمد بن الهادي يغريه بان يفتك بعلى يحيى على أن يكون له حصن مسور وبلاده ، وتم الأمر على ذلك ،ولم يشعر على يحيى الا وجيوش السلطنة على مسور .

كما أننا نلاحظ الدور الذي قام به محمد بن شمس الدين حاكم كوكبان في إضعاف المنطقة الشمالية أمام العثمانيين ، فقد نجح في أن يجذب عبد الرحمن بن المطهر حاكم حجة ، ثم أخيه غوث الدين حاكم ظفار إلى صفوف حسن باشا بعد أن كانا قد وقفا إلى جانب أخيهما على يحيى عند بداية حصار مُدع . وقد رحب حسن باشا بتقريب هذين الأميرين ، بعد أن أغرى عبد الرحمن بن مطهر إن هو ارتبط به فانه يساعده على استرداد أملاكه من أيدى على يحيى التي كان قد ضمها إلى ممتلكاته في السابق .

كما عمل أحمد بن شمس الدين على تقريب عبد الله بن المطهر الذي كان يقيم عنده في كوكبان بعد قيام النزاع بينه وبين الإمام الحسن .

---

(١) رتبه : مجموعة من العسكر تحت امرة رئيس لهم .

وكذلك اتخذ حسن باشا وسيلة أخرى في تنفيذ تلك الخطة لكي يبلورها في الوقوف أمام الأمراء الزيديين الذين تصدوا له ، فقد تعمد الا يسمح لأحد من هؤلاء بأن يعتبر نفسه ممثلا للآخرين ، أو يتحدث باسمهم . فبعد أن نجح في الفصل بينهم وانشغال كل منهم في حماية ممتلكاته ، أجبر علي يحيى على عقد الصلح معه وعلى أن يكون هذا الصلح خاصا به دون أن يتضمن باقي حلفائه مثل أخيه لطف الله ، وأحمد بن الحسين[1] وهذا ما شجع لطف الله على المجاهرة بعدائه للعثمانيين بعد أن رأى قيام التحالف بين الأمراء في الشمال والدولة العثمانية ،وهم أحمد بن الحسين وعلي يحيى وعبد الرحمن وغوث الدين فسحب جيوشه التي كانت تقف إلى جانب العثمانيين أثناء حصار محمد بن ناصر في حصن ظفار ، وبدأ في تأليب القبائل ضدهم .

ويرجع موقف لطف الله بن المطهر هذا لقرب ممتلكاته من صنعاء العاصمة وبالتالي يصبح قادرا على تهديد طرق مواصلات العثمانيين للمنطقة الشمالية مما دعى حسن باشا إلى إعلان الحرب ضده ،مستعينا ببعض قبائل خولان المقربين للطف الله بعد أن أغراهم بالمال والوعود للتخلي عن لطف الله الذى كان قد استطاع أن يحرك تلك القبائل ضد العثمايين ويجعلهم يقطعون طرق مواصلاتهم وتموينهم .

---

(١) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح (مخطوط) جـ ٢ ص ٩٠

فقد تخلت تلك القبائل عن لطف الله وأوقعت به الهزائم ،واحتلت أحد حصونه .

وظل الحال كذلك إلى أن عقد الصلح مع لطف الله فى سنة ٩٩١هـ = ١٥٨٣ م بعد أن يئس من مساعدة أخيه علي يحيى الذى كان قد عقد الصلح بدوره مع حسن باشا على أن ينتزع ممتلكات أخيه لطف الله من بين يديه حتى يبعد خطورته عن صنعاء ، وكان ذلك ما نص عليه فى صلحه معه .

وهذه الخطوة مهدت الطريق أمام حسن باشا من التوجه إلى صعدة ، فقام بارسال قوة كبيرة تحت قيادة الأمير الكخيا سنان لمهاجمة أحمد بن الحسين الذى كان قد تحصن بجبل الشرفة جنوبى صعدة حيث دارت الحرب بين الطرفين ،وانتهت بمقتل أحمد بن الحسين وبهزيمة جيشه .

أدت هذه الهزيمة إلى سقوط صعدة وما يليها شمالا حتى نجران فى أيدى العثمانيين ، اذ فرت حينذاك بقايا أسرة أحمد بن الحسين لا تلوى على شىء ، إلى حصن أم ليلى القريب من صعدة ، وتحصنت به [١] فأرسل الكخيا سنان قوة صغيرة لاخضاع هذا الحصن وتفرغ هو لاخضاع باقى المنطقة الشمالية ، وبذلك تحقق أقصى اتساع للسيطرة العثمانية فى اليمن فى ذلك الوقت .

بعد ذلك تفرغ حسن باشا للقضاء على الإمام الحسن بن داود .

---

(١) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح جـ ٢ ص ٩٠ (مخطوط)

فبعد أن التجأ احد أبناء أحمد بن الحسين إلى الإمام بالأهنوم ، أعانه الإمام ببعض أتباعه الذين ساعدوه على مناوشة العثمانيين حول حصن أم ليلى الا أن سنان الكخيا استطاع أن يقضي عليهم فأرسل حسن باشا ليقرر الصلح بينه وبين الإمام كما فعل مع علي يحيى ولطف الله من قبل ، الا أن الإمام لم يقبل بهذا الصلح واستعد لمقاتلة الأمير سنان ،فلم يشعر الإمام الا بجنود العثمانيين قد توسطوا جبل الأهنوم من خلفه ، فأمر أصحابه بالرجوع إلى حصن القدوم حيث حاصره الكخيا سنان ، وكان ذلك الموضع قليل الماء ،فبعد ثلاثة أيام جرت المخاطبة في خروج الإمام وتسليم نفسه إلى الأمير سنان على أن يقيم في صنعاء مع بعض أتباعه فلما وصل إلى صنعاء أودع في السجن ومعه الشيخ و هان العذرى والفقيه محمد بن يحيى سلامة وذلك في رمضان سنة ٩٩٣هـ = ١٥٨٥ م.(١)

وفي العام التالي أى سنة ٩٩٤هـ = ١٥٨٦م اتخذ حسن باشا خطوته الأخيرة ضد أبناء المطهر وغيرهم ،للتخلص منهم وذلك بعد أن أنهك قواهم تماما وبعد أن تأكد من عدم مساندة الأهالى لهم ،وعدم مساعدة أى واحد منهم للآخر ، فقد دعا حسن باشا لطف الله بن المطهر بالمجىء إليه من الشرف لمفاوضته فجاء إليه وكان معه أخوه حفظ الله ،وجاء أيضا علي يحيى من أجل أن يحصل على عهد بالأمان من حسن باشا ،وكان غوث الدين وهو أخ للطف الله محاصرا ، وكان يأمل في الحصول على الأمان أيضا وبالامارة على الشرف .(٢)

---

(١) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٤٠ ، ١٤١ (مخطوطة)

(٢) الشرفي ـ اللآلىء المضيئة ص ٩٩ (مخطوطة)

فلما وصلوا عنده اصطحب حسن باشا الأمير لطف الله بن المطهر مدعيا أنه لا يريد الا مجرد الطواف فى الشرف وصعدة [١] ، واصطحب كذلك أولاد المطهر الآخرين حتى استقر فى (الرقة) [٢] .

وفى اليوم الثانى عشر من ربيع الأول سنة ٩٩٤هـ = ١٥٨٦م طلب الأمير الكخيا سنان أولاد المطهر وكافة الأمراء والأعوان والأشراف إلى خيمته ، فلما استقر بهم المقام أخرج أوامر شريفه من الحضرة السلطانية ، تتضمن القبض على أولاد المطهر : لطف الله - على يحيى - حفظ الله - غوث الدين ، وارسالهم إلى الأستانة ، ثم أمر حسن باشا بايداعهم سجن صنعاء الذى كان مشهورا حينذاك باسم الدار الحمراء .

وبعد عدة أشهر أى فى ١٥ شوال سنة ٩٩٤هـ = ١٥٨٦م أمر حسن باشا بارسال أبناء المطهر إلى ميناء المخا ومعهم الإمام الحسن وأحد أتباعه وهو الشيخ وهان العذرى ، ومحمد بن الهادى بن المطهر ، ثم أرسلهم من هناك إلى استانبول ، وذلك فى عهد السلطان مراد الثالث فلما وصلوا إلى الأستانة أودعوا فى (يَدْى قُلَه) [٣] فأقاموا بها إلى أن وافتهم المنية جميعا .

---

(١) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٤١ (مخطوطة)
، عيسى بن لطف الله - روح الروح ص ٧٣ (مخطوطة)

(٢) الرقة = الأرض التى ينصب عنها الماء ، ومن الواضح من سياق المعنى أن الرقة موضع باليمن ، خلاف الرقه المشهوره بالعراق .

(٣) يَدْى قُلَه - هى قلعة مشهورة فى وسط استانبول .

يروى أن (الإمام) القاسم بن محمد كان يومئذ صحبه الإمام الحسن ابن على ، ووصل معه إلى ميناء المخا ، فمنع الأمير الكخيا سنان (الإمام) من السير مع الراحلين ، فرجع وهو ذلك اليوم فرد من أفراد الناس. ثم لما وصل صنعاء سكن بها وجلس في مسجد داود للقراءة والدرس .(٢)

كان القضاء على أولاد المطهر والإمام الحسن ونفيهم إلى الأستانة ارهاصا لدعوة الإمام القاسم بن محمد واخلاء للطريق أمام دعوته .

وكان نفى أولاد المطهر إلى الأستانة من أهم العوامل التى أدت الى هدوء الأحوال فى المنطقة الشمالية لبضع سنوات ،أى الى ظهور(الإمام)القاسم ابن محمد سنة ١٠٠٦هـ = ١٥٩٧ م.

ويتضح من هذا العرض أن موقف أولاد المطهر والأمراء اليمنيين كان سبب ما وصلوا اليه من اختلاف فى الرأى وتفرق كلمتهم ،فمنهم من حارب آخاه ومنهم من مال إلى العثمانيين ، ومنهم من ثار على الإمام الحسن بن على المؤيدى وحاربه ،لذلك ضعف امرهم وتفرق شملهم ، وكيفما كان الامر فبعد أسر أولاد المطهر والإمام الحسن ،استقرت الأمور لحسن باشا ، أو بمعنى آخر توطدت السيطرة العثمانية فى اليمن ،لأن الاستقرار فى اليمن يعنى تحقيق سيطرة الحكم العثمانى فيها ،إلى جانب تحقيق الهدوء فى ربوع البلاد ،وهما أمران لم يتحققا تماما فى اليمن قبل ذلك ، وقد تضافرت عدة عوامل لجعل هذه الفترة

---

(١) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٤١ (مخطوطة)

تتميز عن غيرها من فترات الحكم العثماني في اليمن ، وفي جعلها تتصف بالهدوء والاستقرار بالنسبة للفترات السابقة ، فمن ناحية بدأت هذه الفترة بداية قوية ، لأنها كانت تستند على جهود حسن باشا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ولي الحكم في اليمن في هذه الفترة ولاة أقوياء ، استطاعوا أن يحافظوا على النتائج الحاسمة التي أحرزها حسن باشا والكخيا سنان ، بالإضافة إلى ظروف اليمن الداخلية ، التي سببتها كثرة الحروب ، ووفاة المطهر ، وعدم وجود شخصية قوية تستطيع مناوأة الحكم العثماني ، بل خلفه أبناء ضعاف تنازعوا الأمر فيما بينهم ، فضعف شأنهم وسهل على العثمانيين القضاء عليهم واحدا تلو الآخر .

ففي إقليم الحجرية مثلا وإقليم ريمه ويافع قامت عدة انتفاضات ضد الحكم العثماني ، وذلك بعد ترحيل أولاد المطهر إلى الأستانة ، وقد استمرت هذه الحروب لمدة طويلة وأخذت الكثير من جهد حسن باشا وسنان الكخيا ، واستمرت هذه الحروب في يافع لمدة أربع سنوات متوالية ، حتى استطاع سنان القضاء عليها وذلك يرجع لعدة أسباب منها : أن هذه المناطق جبلية يسهل على الأهالي الالتجاء إلى قمم الجبال للتحصن بها ، بالإضافة إلى أن العثمانيين استعملوا الشدة والقسوة في القضاء على هذه الانتفاضات ، فإن الكخيا سنان الذي اعتمد عليه حسن باشا في هذه الحروب قتل الألوف من الأهالي ، وهدم القرى ، وجمع الرهائن بأعداد غفيرة تعد بالمئات ، والآلاف ، كما كان يتعمد أحيانا " أن تكون الرهينة مثلثة العدد زوجة وبنتا وذكرا من الولد "[1] ذلك

---

(١) الوزعي : الإحسان في دخول اليمن في ظل عدالة آل عثمان ص ٢٢٤ (مخطوط)

امعانا في اذلال الأهالي وفي كسر شوكتهم ، ولكن هذه القسوة كانت سببا في تضاعف استبسال الأهالي والدفاع عن أنفسهم ، مما أدى الى اطالة مدة هذه الحروب .

ورغم ذلك كله فقد استطاع سنان الكخيا القضاء على تلك الحروب جميعها واستطاع أن يفتح اليمن بأسره في سنة ٩٩٩هـ = ١٥٩١م وبذلك سكتت عن حسن باشا الفتن وساعدته الأقدار ودانت له الأقطار وشرع في تقليل العسكر [١] ولما دخل سنان الكخيا إلى صنعاء في شعبان سنة ١٠٠٠ هـ = ١٥٩٢م أنعم عليه حسن باشا وعلى قادته وجنوده بالخلع والترقيات الوفيرة [٢] .

يقول العرشي " استقرت الأمور للوزير حسن وهدأت النوائب وانقطعت الأشغال من الزمان " [٣] .

ومما يدل على هذا الهدوء أيضا قول أحد المعاصرين لهذه الأحداث وهو يحيى بن الحسين في مخطوطته أنباء أبناء الزمن " وفي سنة ١٠٠٠هـ سكن المعارض للوزير حسن ، وجرت أوامره وأقلامه في جميع قطر اليمن ، واستراح الناس وسكنت الفتن ومال الناس إلى الوزير حسن باشا ، وبذل العطاء والصدقات من الدراهم والخلع وفي سنة ١٠٠٥ هـ تم بناء البكيرية [٤] ، في مدينة صنعا اليمن التي اعتنا بانشائها الوزير حسن " [٥]

(١) المحبي = خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادى عشر جـ ٢ ص ٧٥
(٢) عيسى بن لطف الله - روح الروح جـ ٢ ص ٩٢ (مخطوط)
(٣) العرشي بلوغ المرام في شرح مسك الختام ص ٦٥
(٤) البكيرية - مدرسة في صنعاء نسبة إلى متولى بنائها وهو بكير أغا
(٥) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٤٢ (مخطوط)

ويمكن أن نرجع الفضل فى هدوء هذه الفترة بالذات إلى السياسة التى اتبعها حسن باشا ، الذى يعتبره بعض المؤرخين ، أنه فاتح اليمن الثانى ، فان قوة شخصية حسن باشا وطول خبرته جعلته يتمكن من حزم الأمر فى اليمن ، فقد كان حسن باشا أحد مماليك السلطان مراد الثالث الخاصة ، اذ دخل فى خدمته منذ أن كان وليا للعهد فأتاح له هذا فرصة التقلب فى المناصب المختلفة ، وقد تولى حسن باشا أمر اليمن وهو فى الرابعة والأربعين من عمره كذلك مساندة الدولة العثمانية لحسن باشا فى اليمن فى هذه الفترة رغم ما كانت تعانيه الدولة فى مركزها من اضطرابات ، الا أنها كانت ما تزال تشعر باهمية اليمن بالنسبة للعالم الاسلامى ، هذا بالاضافة إلى ضعف الأحوال اليمنية الداخلية وانهيار الأحوال الاقتصادية ، فقد افتقدت اليمن فى هذه الفترة الشخصية القوية التى تستطيع أن يجتمع حولها أهل اليمن ، فقد عمل حسن باشا على التخلص من العناصر القوية من أبناء المطهر وغيرهم من الأمراء ، ومد النفوذ العثمانى المباشر إلى المنطقة الشمالية أى إلى صعدة ونجران شمالا ، كما اهتم بتقريب اليمنيين إليه ، ونشر العدل بينهم ، كلما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وذلك مع استخدامهم فى الوظائف المختلفة ، وتقديم الهدايا والمرتبات إلى رؤساء وشيوخ القبائل ، وخاصة فى الشمال ، وكذلك اهتم باقامة المنشآت العمرانية المختلفة ، مثل بناء أو تعمير المساجد ، أو حفر الآبار والقنوات لتوصيل المياه ، أو تجديد حفرها ، أو بناء المحطات التجارية ، وتمهيد الطرق وتأمينها ، الا أنه وجه الضربات العنيفة لكل انتفاضة فى أقاليم اليمن المختلفة .

وجدير بالذكر أنه وان كان حسن باشا قد نجح فى توطيد الحكم فى اليمن

وحقق الاستقرار فقد كان ذلك في السواحل والمدن والمراكز والحصون الهامة ، أما في المناطق البعيدة عن هذه المراكز وخاصة الجبلية ،فقد كانت لا تخضع الا لرؤسائها المحليين ، وهم شيوخ القبائل .

لذلك ظلت علاقة حسن باشا بهذه المناطق أما علاقة عدائية ، واما علاقة ودية نتيجة تقديم الهدايا والمرتبات إلى هؤلاء الشيوخ أو ادخالهم في خدمة الجيوش العثمانية ، لذلك لم يكن غريبا أن تظهر في هذه الفترة بعض الحركات التي تقف في وجه حسن باشا والدولة العثمانية .

ففي سنة ٩٩٤ هـ = ١٥٨٦م ظهرت دعوة الإمام عبد الله بن علي بن الحسن بن أمير المؤمنين في الشرف الأعلى بعد أسر الإمام الحسن وتلك الجهات الصعدية شمالا بعيدا عن صنعاء خوفا من سنان الكخيا ،ولما أظهر دعوته لم يكن لها كبير أثر .(١)

فلما سمع بدعوة الإمام القاسم بن محمد سنة ١٠٠٦هـ سار إليه وأعلن أنه معاضد له ضد العثمانيين .

لذا لم تهدأ اليمن تماما ، رغم نجاح حسن باشا إلى حد كبير في تهدئة الأحوال ، والقضاء على أي حركة مناوئة له في هذه الفترة ،وذلك يرجع إلى طبيعة اليمن الجبلية من جهة ، وإلى ارتفاع شأن الأئمة الزيديين على يد المطهر وخاصة بعد أن استطاع أن يمد سيطرته حتى عدن ، وبناء على تمركز المذهب

---

(١) يحيى بن الحسين- أنباء أبناء الزمن ص ١٤١

الزيدى وانتشاره فى شمال اليمن ،وبسبب العقيدة الزيدية التى أشرنا اليهما من قبل ، فانه كان لابد من ظهور إمام ، لذلك لم يكن غريبا أن يظهر الإمـــام القاسم بن محمد ويعلن إمامته ، فى فترة خلا اليمن فيها من الأئمة ، واستطـاع أن يقود الزيدية اليمنية ويقف فى وجه الحكم العثمانى إلى أن استطاع أحـــد أبنائه من اخراجهم من اليمن سنة ١٦٣٥ م وهذا ما سنوضحه فى الفصـــول التاليـة ،ان شاء اللـه .

الفصل الأول

الإمام القاسم

أ - نسب الإمام القاسم ونشأته وظهور دعوته سنة ١٠٠٦ هـ .

ب - حروب الإمام في الكرة الأولى مع حسن باشا .

جـ - استقرار الإمام في السودة سنة ١٠٠٨ هـ وبقية حروب الكرة الأولى

د - اشتداد الحصار على شهارة سنة ١٠٠٩ هـ وخروج الإمام إلى برط

يعتبر الإمام القاسم من أهم الشخصيات اليمنية التى ظهرت فى بداية القرن السابع عشر الميلادى ، نظرا لقوة شخصيته وغزارة علمه ، ولدوره الكبير فى تاريخ اليمن ، لذلك لابد من التعرف أولا على نسبه ونشأته التى كان لها أكبر الأثر فى تكوين هذه الشخصية التى نحن بصدد الكلام عنها .

هو الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد بن على بن محمد بن على بن الرشيد بن أحمد بن الأمير الحسين بن على بن يحيى بن محمد بن الإمام يوسف الأصغر ، الطقب بالاشل بن الإمام الداعى إلى الله الناصر لدين الله أحمد بن طباطبا بن اسماعيل الديباج [1] بن ابراهيم بن الحسن بن الحسين السبط بن على بن أبى طالب رضى الله عنه . [2]

يكنى أبا محمد ، وقد ولد فى ١٢ صفر سنة ٩٦٧ هـ = ١٥٥٩ م بالشاهل من بلاد الشرف ، وكان والده محمد بن على يسكن جهات بنى مديحة ، من بلاد الشرف الأسفل وفيها تزوج أم الإمام القاسم .

كان والده يعمل فى عسكر المطهر بن شرف الدين ، وقد خاض معه حروبا كثيرة ضد الباشا سنان الأعظم . [3]

---

(١) الديباج = شرف النفس وحسن البشرة
(٢) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٤ (مخطوط)
(٣) المحبى ـ خلاصة الاثر ج ٣ ص ٢٩٣

فقد رأى الإمام القاسم منذ صغره هذه الحروب ، ورأى في أبيه المجاهد الشجاع الذى وقف يقاتل للدفاع عن مذهبه الزيدى ، وأرضه اليمنية ، رغم نزاهة السبب الذى أتى بالعثمانيين إلى أرض اليمن ، غير أن الزيديين كانوا يرون فيهم المغتصبين لأراضيهم ، المخالفين لعقيدتهم الزيدية .

ولما بلغ الإمام القاسم سن العاشرة قرأ القرآن الكريم ، وكانت فيه فطنة وفصاحة ، وقد أخذ العلم عن كبار علماء المذهب ، كما اتصل بالإمام الحسن بن على بن داود ، وظل ملازما له حتى نفى الأخير إلى الأستانة .

ومن أشياخه أيضا السيد أمير الدين عبد الله بن نهشل بن المطهر ، وينتهى نسبه إلى يحيى بن الحسين ، وقد أخذ عنه جل العلماء والإمام القاسم وأولاده من بعده ، والسيد الحسن بن شرف الدين ، والسيد عز الدين بن على ابن عبد الله .

أما علماء عصره فمنهم السيد عامر بن على ، عم الإمام الذى أجاب دعوة ابن أخيه وخاض معه معارك كثيرة ، وبذل أمواله وروحه في سبيل نصرته .

ومنهم السيد ابراهيم بن المهدى بن على بن جحاف ، وولده المهدى ، وهو أحد شيوخ الإمام المؤيد ، والسيد محمد بن عبد الله الملقب عشش ، والسيد الحسين بن على بن ابراهيم الجحافى القاسمى ، وغيرهم كثير .

---

(١) المحبى ـ خلاصة الاثر جـ ٣ ص ٢٩٣

أما نشأته : فقد نشأ معروفا بالطهارة وقوة القلب والبطش ، ويقال عنه أنه كان لا يروعه شيء مما يروع الصبيان [1] ، وقد توسمت فيه عمته أم الغيث بنت علي النبوغ والفطنة والتفهم ، فخافت عليه ، وأرسلت في طلبه في الرغيل غربي مسور ، وكانت متزوجة من السيد أحمد بن الحسن الخطيب ، وكان من أهل الجاه واليسار مع العلم الكثير ، فأتم الإمام قراءة القرآن ، وتعلم أصول الدين وكان يقرأ معه عمه عامر بن علي ، فنشأ في بيئة كلها تقى وصلاح مما انعكس على شخصيته ، فقد ذكر الشرفي في مخطوطته اللآلىء المضيئة عن نشأته قوله :

" نشأ نشأة التابعين من سلفه عليهم السلام في الحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " [2] .

وبالفعل عندما أصبح إماما أبطل كثيرا من البدع السائدة ، كالتبرك بالأشجار وغيرها ، وأقام الحدود ، ففي سنة ١٠١٧م تقريبا كانت هناك شجرة بالقرب من شام مور يقصدها البدو من شمال اليمن للزيارة والتبرك وتقديم الذبائح ، ويعتقدون فيها ، فجمع الإمام العسكر ، ثم قصدها فقطعها بعد الاقامة عندها ثلاثة أيام ، وجمع حطبا وأحرقها " [3] .

وسنرى في الخطابات الموجهة لأولاده الكثير من الوصايا ، التي تدل على مدى تمسكه بأهداب الدين ، فقد أورد الجرموزي مؤلف سيرته الكثير منها ،

---

(١) الجرموزي ـ النبذة المشيرة ص ٤ (مخطوط)
(٢) الشرفي ـ اللآلىء المضيئة ص ١٤٨ (مخطوط)
(٣) الجرموزي ـ النبذة المشيرة ص ١٩٥ (مخطوط)

ففى رسالة موجهة لولده محمد وهو فى شهارة قوله : " انى أوصيك أن لا تترك درس القرآن يوما واحدا ، ولو فى كل يوم جزئين أو جزء واحد لا تترك ذلك أبدا ، وعليك بصلاة الجماعة فانها من الواجبات ، ولا يغرك قول من يقول انها سنة ، وعليك بملازمة العلم وطلبه فانه من أكبر الفرائض ، واستعن على ذلك بتقوى الله سبحانه ، لأن الله يقول ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ، والفرقان هو الفهم والفطنة . . . "[1] الى آخر هذه الوصية التى يظهر فيها أثر النشأة الصالحة وانعكاسها على المجتمع وتربية الجيل فى المستقبل ، وهناك الكثير من الأمثلة التى تعكس شخصية الإمام ، وأثر التربية الاسلامية فيه ، وردت فى الخاتمة عند التعرض لتحليل شخصية الإمام القاسم .

أما صفات الإمام : كان وسيط القامة ، معتدلها ، الى السمن أقرب ، واسع الجبهة ، عظيم العينين كبير السنتين أسمر اللون ، واسع الفم ، أشم الأنف طويل اللحية ، عظيمها ، ضخم الذراعين أشعرهما ، فصيح العبارة سريع استحضار الأدلة ، كثير الحلم ، يصبر على المكاره ، ويتحمل العظائم ، كثير الورع .

أما علمه : فمما لا يفتقر إلى بيان ، والدليل على ذلك كثرة مؤلفاته ، ان يعتبره بعض المؤرخين أنه مجدّد فى المذهب الزيدى ، وصاحب المذهب المختار[2] وسنتعرض لهذه المؤلفات لنعرف مناسباتها ، ونظرياته فى المذهب الزيدى .

---

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٤٢ (مخطوط)

(٢) أحمد حسين شرف الدين - تاريخ اليمن الثقافى جـ ٤ ص ٢١٢

أما ملبسه : فكان يلبس المتين من الثياب فى أغلب وقته ، ولباسه عبارة عن قميص قصير أسود اللون مشقوق من الأمام وسروال أسود .(١)

أشرنا إلى أنه بعد أسر الإمام الحسن بن داود ونفيه الى الأستانة أصبح مكان الإمامة خاليا ، ولم تكن هناك شخصية تناهض العثمانيين ، فأخذ أصحاب الرأى من الزيدية فى التفكير فيمن يتولى هذا الأمر الشاق ، نظرا لوجود والىعثمانى قوى هو الباشا حسن وكتخداه سنان ، وتعاليم المذهب الزيدى التى أشرنا اليها هى التى ساعدت هؤلاء على التفكير فى اختيار شخصية قوية للخروج على العثمانيين ، فإن المذهب يبيح الخروج على السلطة القائمة اذا كان هناك ما يبرر ذلك ،مثل فساد هذه السلطة أو اضطراب أحوالها ، وأن يخرج أحد هؤلاء الأشراف جاهرا بامامته ، حاملا سيفه ،مدافعا عن هذه الإمامة ،ومن ثم وقع اختيارهم على الإمام القاسم بن محمد ، لما رأوا فيه من جديته وتقديره للمسئولية التى رغبوا فى القائها على عاتقه .

وقد أظهر الإمام تردده فى قبول الإمامة ،وينقل لنا قوله أحد المعاصرين وصاحب سيرته الجرموزى فيقول "كانت الإمامة ما تعرض فى فكرى لما أرى من شرارة الخلق وقوة سلطان الترك على الأرض "(٢)

وكان ممن أشار عليه بالقيام السيد على بن ابراهيم صاحب الشاهل والسيد صالح بن عبد الله بن داود العريانى القاسمى ، وقد أنشأ هذا الأخير

---

(١) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٥٨ (مخطوط)
(٢) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٤٢ (مخطوط)

قصيدة حث فيها الإمام على القيام ، مطلعها :

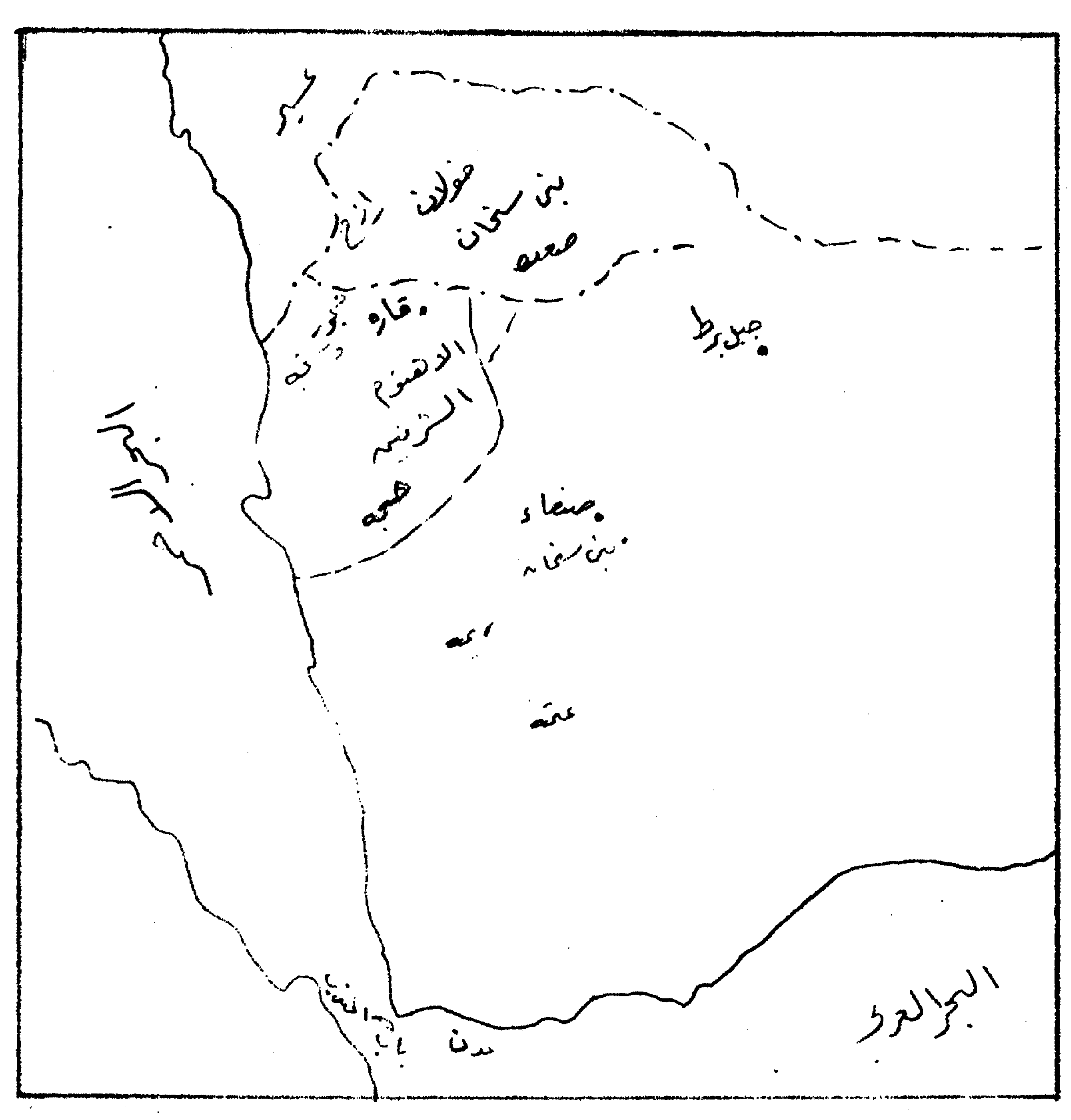
ضاع الوفا وضاعت بعده الهمم   والدين ضاع وضاع المجد والكرم
أحكامهم في أمور الدين منهجها   آراؤهم وكتاب الله بينهم (١)

وبعد هذا الالحاح منهم قبل الإمام هذا الأمر ، فأخذ يتنقل من مكان الى آخر من بلاد الشرف ، ثم دخل صنعاء متخفيا ، يقرأ القرآن ويدعو الأعوان ، في مسجد داود ، وكان العثمانيون قد شعروا بخطورته قبل ظهور امامته ، فأخذوا يجتهدون في التجسس عليه ومطاردته وبذل الأموال الكثيرة في سبيل ذلك ، وقد استعملوا التنجيم والمنجمين ليدلوهم على معرفة مكانه .(٢)

وقد ظل الإمام عدة سنوات متخفيا ، يطوف الأقاليم الشمالية حاثا الأهالي على الإنضمام إليه ، عاكفا على العلم والدرس والتأليف (٣) ، وكان تارة يختفي عند ما يشتد به الخوف مع جماعة من خالصي أصحابه الذين يأخذون عنه العلم إلى فلاة من الأرض بحيث تنقطع أخباره عن الناس ولا يدرون أين هو ، فتمضي أيام على ذلك ولا يشعر العثمانيون الا وهو في البلاد اليمنية قد استولى على مواضع ، وما زال هكذا مع الاقدام والصبر لا يقدر عليه أحد ، حتى أنه كان في بعض الأوقات لا يجد هو وأصحابه ما يأكلون عند اختفائهم ، فيأكلون من نبات الأرض ، وقد يكابد الشدائد فلا يظن أحد أنه لا يعود بعد ذلك إلى مناجزة العثمانيين ، واذ هو قد وثب على بعض المواضع .(٤)

---

(١) الشرفي ـ اللآلىء المضيئة ص ١٤٦ (مخطوط)
(٢) الشرفي ـ اللآلىء المضيئة ص ١٤٨ (مخطوط)
(٣) الجرموزي ـ النبذة المشيرة ص ٤٦
(٤) الشوكاني ـ البدر الطالع ج ٢ ص ٤٨



انطلاق دعوة الإمام القاسم ١٠٠٦هـ من جبل حديد قارة

وكان أول ظهور دعوة للقاسم بن محمد من جبل جديد قاره ، احدى قرى إقليم الشرف جنوبي (صعده) وذلك في ٦ صفر سنة ١٠٠٦هـ = ١٥٩٧ م[1] ، وان كان هناك من يذكر أن الإمام القاسم قد دعا لنفسه في خلال شهر المحرم من نفس السنة ، ولكنه لم يستطع أن يجاهر بدعوته الا في أوائل شهر صفر ، بعد أن سانده أحد مشايخ هذه المنطقة وهو الشيخ أبو زيد بن سراح شيخ بني سنحان ، وقد أشار عليه اتباعه أن تكون دعوته من بني سنحان لما فيه من نصرة القبائل ،، ولما لموقعها من أهمية ، ففيها جبال حصينة ، ولبعدها عن مركز العثمانيين ، وسهولة الخروج منها والدخول إليها ، فاستصوب الإمام هذا الرأى ، ووصل إلى هناك معه ستة من الرجال في ضيافة أبو زيد ، لكن الشيخ أبو زيد كره القيام والدعوة من بلده ، ورجح للإمام أن يطلع إلى جبل قاره ، فوصل إلى موضع يسمى وادي الحمر بالقرب من جبل قمر ، وبايعه الناس ، وأول من بايعه من الناس رجل من مشايخ قاره يسمى الشيخ عبد الله بن مسعود ، وكان باسم الوجه وافر اللحية فتيمن الإمام به ، وتبعه بقية الناس الذين حضروا ذلك الجمع ، وكانوا حوالي أربعين رجلا ، وقد أمد الشيخ زيد الإمام ببندقيتين وبارود ورصاص ، اذ أن البنادق في تلك المدة لم تكن متوفرة الا مع أرباب الدولة ، وقرب إليه فرسا ليركب عليه فسأل عن اسمه فقيل له الفتح ، فانشرح فؤاده بهذا الاسم ، وبذلك ظهرت دعوته من جبل قاره[2] ، وقد اعتمد الإمام في بث دعوته على الخطابات والرسائل المطولة والكتب الكثيرة التي كان يرسلها إلى الأفراد والجماعات ، والتي كان يوجهها إلى المسلمين عامة ، وهذه الخطابات كانت تحمل إلى الأهالي

---

(١) تاريخ دولة الترك ، ص ٦ ، (مخطوط) ، المؤلف مجهول .
(٢) الشرفي ـ اللآلىء المضيئة ص ١٤٧

المبادىء التى يدعو إليها ،والتى كانت تتلخص فى عدم الخضوع للعثمانيين نظرا لفساد حكمهم وخروجهم على مبادىء الدين ،فقد جاءفى أحداها" أما بعد فاننا نحمد الله الذى لا اله الا هو ، انا ندعوكم إلى جهاد أعداء الله الذين ظلموا العباد ،وأظهروا فى الأرض الفساد ، وشربوا الخمور ،ونكحوا الذكور ، واستباحوا دماء المسلمين المحترمين من المؤمنين ، فقتلوا الأطفال والنساء ،ومن لا يحمل سلاحا من الضعفاء والمساكين ، وانتم تعلمون ذلك ولا تجهلون "(1) ، وهذا النص يوضح رأى الامام فى العثمانيين ، ويظهر نظرته وكأنهم ليسوا على دين الاسلام ، ويحث اليمنيين على ضرورة الوقوف فى وجههم ، وعدم الخضوع لهم حتى لا يتهموا باشتراكهم معهم فى الاثم ،وذلك يتضح أيضا من خطاب آخر " ولا ترخصوا لأنفسكم فى مداراتهم ، فانا نعلم أنه لو لا مداراتكم بالمال ما استقامت لهم راية أبدا فذلك منكم معاونة على اثمهم وظلمهم "(2)

وقد وجدت دعوة الإمام القاسم استجابة كبيرة لدى الكثيرين من أهالى اليمن الذين رأوا فيها تعبيرا عن تذمرهم من سياسة العثمانيين وتصرفاتهم ، وذلك رغم تقاعس أغلب هؤلاء الأهالى عن الوقوف إلى جانب الإمام القاسم خوفا من بطش العثمانيين بهم .

فمما لا شك فيه أن دعوة الإمام القاسم قد لاقت نجاحا عظيما وانتصارا

---

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ٨

(٢) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ٤٤

انضموا إليها ، وذلك يرجع إلى سوء تصرف بعض الولاة والجند العثمانيين ، مما كان يثير في نفوس اليمنيين الضيق والتذمر ، فقد أتى هؤلاء ببعض التصرفات التي تسيء إلى سمعتهم الدينية ، رغم أنهم أتوا إلى اليمن لحماية الأراضي المقدسة من البرتغاليين الكفرة ، ويضاف إلى ذلك شدة وطأة العثمانيين في اليمن ، رغم أن بعض الولاة قد حققوا لها بعض الاستقرار ، مثل حسن باشا كما ذكرت سابقا ، الا أن هذا الاستقرار كان يعتمد على الشدة والقوة العسكرية أكثر من الناحية السياسية ، كما أنهم لم يقوموا باصلاحات شاملة تجذب اليمنيين إلى حكمهم ، وكان الأجدر بهم أن يعملوا على كسب قلوب اليمنيين ، وأن يفهموا ما تميز به اليمنيون من ظروف طبيعية وبشرية خاصة ، وكذلك الظروف الاقتصادية التي نتجت عن الحصار البحري البرتغالي ، ولو تفهم العثمانيون تلك الظروف وعاملوهم على ضوئها لتغير تاريخ اليمن . . . ، لكنهم بالعكس أرهقوهم بدفع أموال أدت إلى تذمر اليمنيين منهم ، اذ أنهم تحملوا الخراج الذى كان يرسل إلى استانبول سنويا ، وكان الوالي العثماني يستعمل القوة والقسوة في جمع هذه الأموال المقررة على الأهالي ، وقد أشار الجرموزى إلى ذلك بقوله "" أما المال فلهم في أخذه سطوة ، فقد يعذبون أهله العذاب العظيم ، مثل ضرب السياط قليلا وكثيرا ، وقد يجلدون بعضهم حتى يموت مع المشاهرة والكي بالنار وغيرذلك""[1]

وهكذا يتضح أن هذه الأسباب كلها مجتمعة أدت إلى تذمر اليمنيين من الحكم العثماني ، وبالتالي استجابوا لأى دعوة معارضة لهذا الحكم ، وقد عبر أحد اليمنيين المعاصرين عن أسباب استجابة الأهالي لدعوة الإمام القاسم

---

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ٧٦

في وضوح وصراحة تامة ، رغم انحيازه للعثمانيين حينذاك ، ومعارضته للإمام القاسم لأنه من آل شرف الدين ، فقد قال " وقد كان قبل الفتنة أطبق على العباد الجور ، وضعفت البرية ، واستهلك العمال أموال الرعية ، وقاست القبائل من الظلم أشد التعب والهول والنصب ، فمن أجل ذلك اشعلت القبائل نارها ، وحطت على جنوبها أكفانها ، وأصدقت مع الإمام الحروب " (١)

فلاشك اذن أن وقوف الأهالي إلى جانب دعوة الإمام القاسم ، كان يرجع إلى التذمر العام الذى ساد اليمن فى تلك الفترة ، وقد ساعد على نجاح تلك الدعوة إلى جانب ذلك ، طبيعة اليمنيين أنفسهم وطبيعة مذهبهم الزيدى ، بالاضافة إلى قوة شخصية الإمام القاسم ، بوجه خاص ، واصراره على مواصلة الجهاد وصبره على تحمل المشاق ، وكان عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن المطهر حاكم حجه وأقاليمها هو أول من حارب الإمام القاسم ، اذ قام بمهاجمته هو وجماعته عند ما علم بتجمعهم لأول مرة فى جبل القارة . (٢)

وكان عبد الرحيم كذلك أول من أبلغ حسن باشا والى اليمن بقيام الإمام القاسم ، وذلك عند ما فشل هجومه على الإمام للقبض عليه ، أو فى القضاء على جماعته . (٣)

---

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح جـ ٣ ص ٣٥٣
(٢) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ٤٧
(٣) عيسى بن لطف الله - روح الروح جـ ٢ ص ٩٢

وهذه البداية من جانب عبد الرحيم هى التى اشعلت الحرب ضد الإمام، فقد اتخذ حسن باشا حينذاك الاستعدادات اللازمة للقضاء على هذه الدعوة منذ بداية ظهورها ، فأرسل الجيوش والمعدات الوفيرة إلى المناطق الشمالية المختلفة قبل أن تسقط فى أيدى الإمام ، غير أن انتشار هذه الدعوة واستجابة القبائل لها ، كان أسرع من وصول الجيوش العثمانية إلى تلك المناطق ، فقد هاجمت القبائل القادة الذين أرسلهم حسن باشا إلى الأقاليم الشمالية ، والذين كانوا من الأمراء اليمنيين ، أى ممن دخلوا فى خدمة العثمانيين مثل مطهر بن الشويع ، وعبد الله بن المعافا الذى تقدم إلى مقر امارته وهى مدينة السودة فحاصرته هذه القبائل بها حوالى سبعة أشهر حتى اضطر إلى تسليم نفسه للإمام .(1)

ومنذ ذلك الوقت بدأت الحروب بين الإمام القاسم والوالى حسن باشا والى اليمن العثمانى فى تلك الفترة ، وهى التى أسميناها حروب الكرة الأولى ، أو النهضة الأولى .

تحالف بعض الأمراء اليمنيين مع الوالى العثمانى حسن باشا ، وخاصة من بيت آل شرف الدين مثل محمد بن شمس الدين صاحب كوكبان ، وعبد الرحيم ابن عبد الرحمن حاكم حجه ، ومطهر بن الشويع ، وعبد الله بن المعافا حكم السودة ضد الإمام ، فقد جمعت هؤلاء جميعا المصلحة التى تدعم أواصر هذا التحالف ، وتبقى عليه ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر فان هؤلاء الأمراء قد رأوا أنه

---

(1) تاريخ دولة الترك - ص ٧ - المؤلف مجهول

من الأفضل الوقوف إلى جانب العثمانيين خيرا من الوقوف ضدهم ، ربما لأنهم تفهموا مهمة العثمانيين الحقيقية ،أو للحفاظ على الامتيازات التى أعطتها لهم الدولة العثمانية ، أو لتفهمهم لموقفهم من عدم قدرتهم للوقوف فى وجه العثمانيين ، أو لغيرتهم من قيام الإمام ، وكان أول لقاء بين العثمانيين وأصحاب الإمام فى حصن وشجه بجانب القارة ، ودام الحصار على هذا الحصن ثلاثة أيام ، وصلى الإمام الجمعة فى قارة سنة ١٠٠٦هـ = ١٥٩٧م وأمر كل الناس بالجهاد ،وتجمعت قوات العثمانيين فى الشرف وحجة وعلى رأسها أحمد الزمارى وبعض من أصحاب عبد الرحيم بن عبد الرحمن وأحمد بن محمد بن شمس الدين وكذلك توجه ابن المعافا من صنعاء للقاء الإمام فى قارة ، ولما علم الإمام بالأمر ، أرسل إلى اصحابه الذين فى وشجة فوصلوا إليه ، وأشار عليه بعض أتباعه بعدم المبيت فى جبل جديد قارة ، لأنه طريق ضيق يسهل للعدو الوصول إليه، وبالفعل وصل العثمانيون فى صباح اليوم الثانى ، وانهزم أصحاب الإمام وانحاز الإمام إلى جهات الأودية ، وبعد هذه الهزيمة وقع فى قلوب القبائل الخوف من انقلاب العدو عليهم فعزم الإمام على دخول بلاد المشرق حيث يستطيع أن يستجمع قواه ويجمع حوله القبائل ،وأمر أصحابه الذين معه أن يذهبوا إلى الشيخ أبو زيد بن سراح حيث كان قد ترك ولده محمد هناك ، ورحل الإمام إلى جهات برط ومشارقة البعيدة ، وبقى نحو شهرين ينتظر الفرج من الله سبحانه.[1]

فى هذه الاثناء علم قرا جمعه نائب الباشا فى صعدة بوجود الإمام فى برط ، فبذل للشيخ عبيد الله البرطى مالا جزيلا لكى يقبض على الإمام ،فاحضر

---

(١) الشرفى - اللآلىء المضيئة - ص ١٤٨ (مخطوط)

الشيخ عبيد ذلك المال إلى الإمام وأخبره الخبر، وأرجع المال إلى قراجمعه، فشكره الإمام على حسن صنيعه .[1]

يتضح من هذه الحادثة مدى تخوف العثمانيين من الإمام القاسم، فقد فعلوا شتى الطرق للقبض عليه دون طائل، رغم قوة الدولة العثمانية بالنسبة للإمام فان تخوف القبائل من العثمانيين في أول قيامه، كان يحد من انضمام القبائل إليه .

وفي هذه الأثناء أي سنة ١٠٠٦هـ = ١٥٩٧ م أجاب أهل الخيمة دعوة الإمام القاسم، وكان قائدهم الفقيه يوسف الحماطي، فنهض الكخيا سنان إلى حضور، وكان الحماطي قد كتب إلى الإمام يخبره بطاعة أهل الحيمة، ويستمد منه العون، فبعث إليه عمه السيد عامر بن علي بن محمد، والسيد محمد بن علي بن الحسين بن شمس الدين ابن الإمام المهدي أحمد بن يحيى، وهو المعروف بالقراع، ففوض الفقيه يوسف الحماطي الأمر إلى السيد عامر، واجتمع الناس إليه وأطاعوه، واستقر في الحيمه، فقابلهم العثمانيون بالخيل والرجال، وكان قائدهم الأمير ابراهيم طويل والشيخ عبد الله الرماح في محل يسمى السّلف والتقى بهم السيد عامر ومعه أهل الحيمه في جبل البوزين[2] ووقعت بينهم وقعة عظيمة، واتصل السيد محمد القراع ببعض أصحاب الرماح، فمالوا إليه، وحملوا على العثمانيين فقتلوا قائدهم الأمير ابراهيم طويل، واستولوا على خزائنهم، وطلب الشيخ عبد الله الرماح الأمان لنفسه ومن بقي معه،

---

(١) يحيى بن الحسين/ غاية الاماني جـ٢ ص٧٧٣

(٢) البوزان : موضع في سرو مذحج - الهمداني : صفة جزيرة العرب ص٩٧

فأمنه السيد عامر ، وخرج بمن معه وكانوا زهاء ألف وخمسمائة راجل ونحـــو سبعين فارسا ، ثم تقدم السيد عامر إلى جبل بيت خولان ،فقصده الكخيـــا سنان ، ومن انضم إليه من قبائل سنحان وخولان ، وهمدان ، ووقعـــت بين الطرفين وقعة شديدة قتل من أصحاب السيد عامر سبعين رجلا ، واستولـــى سنان على قرية بيت خولان ،وبيت معدن ، ثم رجع السيد عامر إلى سنان في ذلك اليوم مرة ثانية ، وأبلوا بلاء حسنا ، وحمل الشيخ محمد بن ناصر صاحب الأحبوب، فقتل من أصحاب الأمير سنان ، وكادوا يأسرونه ،فوصلت إليه نجدة من كوكبان ، فتأخر السيد عامر وأصحابه وتقدم سنان إلى جبل البوزين واشتدت وطأته علـــى من ظفـــر به من أهل الحيمه فجعل يقتل كل أسير أتى إليه به ،حتى لقـــد أتى إليه بطفلة صغيرة فأمر بسلخها بعد أن استجارت بأهل كوكبان فلم يجيروها.(١)

ثم ان الفقيه الحماطي تقدم إلى أنس ومنه إلى ذمار بعد أن أشار عليــه بعض أصحابه ، فلما استقر فيه جهز إليه الباشا عسكرا مع رجل يعرف بالواعـــظ، كان في ابتداء أمره متنسكـا ملازما للبقاء في جامع صنعاء ، ثم صار من أعـــوان السلطات العثمانية .(٢)

ولما بلغ الحماطي وصول الواعظ إلى قرب ذمار ، خرج منه إلى محـــل قريب ،فقصده الواعظ وحصره في ذلك المحل ،حتى خرج إليه ،فأرسل به إلى صنعاء فأودع في السجن ، ولم يلبث أن مات ، وقتل ممن كان معه كالفقيه محمد بـــن عبد الله العياني من العيانة ، من بلاد الثلث أحد جبال حراز ، فسلخ جلده

---

(١) يحيى بن الحسين ـ غاية الاماني ج ٢ ص ٧٧٣ ،
الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٧١
(٢) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٧٤

وملىء تبنا ،[1] وقد حزن عليه الإمام القاسم كثيرا ورثاه في قصيدة مشهورة، وكانت هذه الواقعة في شهر جمادى الأولى سنة ١٠٠٦هـ = ١٥٩٧م .[2]

بعد هذه الوقائع أرسل الحاج أحمد بن دغيش إلى الإمام القاسم في برط يخبره بما وقع ،ويستنهضه ، وقد خرج جند العثمانيين مع الأمير عبد الله ابن المعافا في صنعاء إلى الهجر ،ثم تقدموا إلى وادعه وحشدوا قبائل الأهنوم ، حتى بلغوا أربعة عشر ألفا ، ودخلوا الحصن فانتهبوه ، وهدموا بيوته ،فأغار عليهم الأمير حسن بن ناصر العرياني بمن معه من أهل وادعه وشاطب، وفي خلال ذلك وصل الإمام إلى شاطب ،فرجع أهل الأهنوم الذين كانوا مع العثمانيين والأمير عبد الله بن المعافا من وادعه إلى بلادهم ،وأظهروا الدعاء إلى الإمام والميل إليه ،وانضم إليهم أهل ظُليمه وعُذر ، ثم تقدم الإمام إلى المحراب ودخل في طاعته أهل الهجر ،وتقدم السيد ابراهيم بن جحاف ،والفقيه علي الشهاري بأمر الإمام بقبائل الأهنوم وعُذر وُظليمه إلى شاطب وجبل بني حجاج والموسّم ، وكان في السّوده عسكر العثمانيين ، فوقع بينهم وبين أصحاب الإمام حرب في جبل بني حجاج ، قتل من أصحاب الإمام ثلاثة أنفار ،ولم يزل أصحاب الإمام يشنون عليهم الغارات حتى دخلوا في طاعة الإمام ،ولم يبق في حصن السوده الا الأمير عبد الله بن المعافا .[3]

---

(١) الموزعي ـ دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٣٢

(٢) تاريخ دولة الترك ص ٩ ، المؤلف مجهول .

(٣) الشرفي ـ اللآلئ المضيئة ص ١٥٠

ولما استقر الإمام في الأهنوم بعث بالسيد عبد الله بن هادي الحيداني والقاضي حسن بن علي النساري وغيرهما بعسكر إلى بلاد الشرف ، فأجابهم أهل حجور ، وعاهم ، وطاعن ، فوقع بينهم وبين عسكر العثمانيين وأصحاب عبد الرحيم حرب في بلاد الشرف انهزم فيها العثمانيون ، وأصحاب عبد الرحيم ، وأخذ أصحاب الإمام أثقالهم وأدوات القتال ، وفتحوا حجّه ، إلى أن وصلوا جبل تيس ، ومنهم من تقدم إلى عفار ، وبعضهم أقام الحصار على عسكر العثمانيين في نعمان حجّه ، حتى خرجوا إليهم فبعثوا بهم إلى الامام مأسورين .

وفي شهر شوال سنة ١٠٠٦هـ = ١٥٩٧ م توجه أصحاب الإمام لحرب مَبْيَن ، وكان به عبد الرحيم بعد أن فسدت بلاده عليه ، فحاصروه في حصنه ولم يجد بدا من مواجهة الإمام ، فسار إليه ، فأكرمه الإمام ، ثم أخذ عليه العهد مع البيعة ، وأمره بالتقدم إلى جبل عيال يزيد لمحاربة سنان في عُمران ، فأضمر في نفسه الخديعة للإمام ، وندم على متابعته ، فراسل سنان سرا أنه يتنحى عن عُمران ، ومتى دخلها بمن معه من أصحاب الإمام رجع إليه للقبض عليهم ، فعرف بمكيدته بعض أصحاب الإمام ، فأشار الإمام على بقية أصحابه بالتأخر ، فتأخروا عن عبد الرحيم ، وتقدم إلى عمران بخاصته وفات عبد الرحيم ما أراد .(1)

وفي سنة ١٠٠٦هـ = ١٥٩٧م علم العثمانيون ان حصن ثلا ينقصه المؤن والسلاح وأهله يشكون من قلته ، فجهز سنان الكخيا جيشه ، فوقعت مناوشات خارج المدينة ، انهزم فيها أصحاب الإمام لقلة عددهم ، واستشهد نحو ثلاثين

---

(١) تاريخ دولة الترك - ص ٩ ، ١٠ ، المؤلف مجهول .

نفرا ، ودخل العثمانيون المدينة وأخذوا جميع ما فيها ،وانحاز السيد شرف الدين الخموى- والى الإمام على ثلا- مع جماعة إلى الحصن وذهب السيد أحمد المحرابى ، وهو من أصحاب الإمام إلى الأهنوم عند الإمام ،فألزم الإمام جميع الناس بالجهاد في ثلا ، وحضهم على ذلك ، ووقفت القبائل مع الإمام موقفا محمودا ، فسار السيد صالح عبد الله القاسمي العرياني في عسكر كثيرة إلى حضور ،وسار السيد عبد الرحيم القدمي إلى حضور أيضا ، وأغار السيد شمس الدين أحمد الجونى والمشايخ بالقرب من ثلا وحاولوا دخول المدينة ، لكن العثمانيين ردوهم خارجها ،فلم يستطيعوا المقاومة نظرا لكثرة خيل العثمانيين، ولم يكن مع أصحاب الإمام شيء من الخيل فانهزم أصحابه ،وقتل منهم جماعة ، ولما عاد أصحاب الإمام إلى نواحى (البون) طمع العثمانيون في أخذ العسكر الموجودين بحضور، فقصدهم في اليوم الثاني ، وكان النصر لأصحاب الإمام حيث استمرت الحروب لمدة يومين لاقى العثمانيون فيها هزيمة كبيرة ، فلما وجد صاحب كوكبان ابن شمس الدين موقف العثمانيين أراد انقاذهم ، فعمل على أن يشغل أصحاب الإمام بمن قصدهم ، ثم يأتي هو من خلفهم فيقضي عليهم ، لكن النصر عقد لأصحاب الإمام ،حيث اتفق وصول ابن شمس الدين بنجدة لأصحاب الإمام بقيادة الحاج أحمد بن دغيش ، فوقعت بينهم مناوشة ، كان النصر فيها لأصحاب الإمام ،وبعد هذا النصر رفع الحصار عن حصن ثلا ، ودخلته المؤن والبارود والرصاص .[1]

---

(١) الجرموزي- النبذة المشيرة ص ٧٣ ،

الشرفي - اللآلئ المضيئة ص ١٥٧

استطاع الإمام فى هذه الأثناء فتح كثير من المعاقل كالظاهر وشهارة والسّودة ، وخرج بن المعافا إلى الإمام ، ولم يبق فى يد العثمانيين من المدن الا صنعاء وصعدة ، ومن البلاد اليمن الأسفل وتهامة .

وكانت هناك حروب عديدة خاضها الإمام فى هذه النهضة الأولى ، اكتفيت بذكر أهمها وكان النصر فى أغلبها له ، فقد نجح الإمام القاسم فى بسط سيطرته خلال عدة شهور على الحصون والأقاليم الممتدة من صعدة شمالا إلى صنعاء جنوبا ، وذلك ماعدا هاتين المدينتين لأنهما تعرضتا لحصار قوات الإمام وهجماتها ، وماعدا بعض الحصون الهامة الأخرى ، مثل حصن كوكبان حيث يوجد أحمد بن محمد بن شمس الدين ، وحصن الطويلة لوجود باقى أسرة الإمام شرف الدين فيه ، وكذلك حصن ذى مرمر لقربه من صنعاء .

كانت انتصارات الإمام موضع الدهشة للجميع حتى قيل انه "كان من العجايب ان أصحابه اذا توجهوا على حصن فتحوه فى أقرب مدة "[1] ليس هذا فحسب ، ولكن صنعا نفسها فى هذه الفترة تعرضت لهجمات الإمام وأصحابه ، فقد كانوا يشددون الهجوم عليها أحيانا من الخارج " حتى ان الرمى بالبنادق كان يصل إلى قصر حسن باشا "[2] كما كانوا يتسللون إلى داخلها أحيانا أخرى فيهاجمون حاميتها ، ويستولون على بعض أسلحتها وذخائرها ثم يفرون منها

---

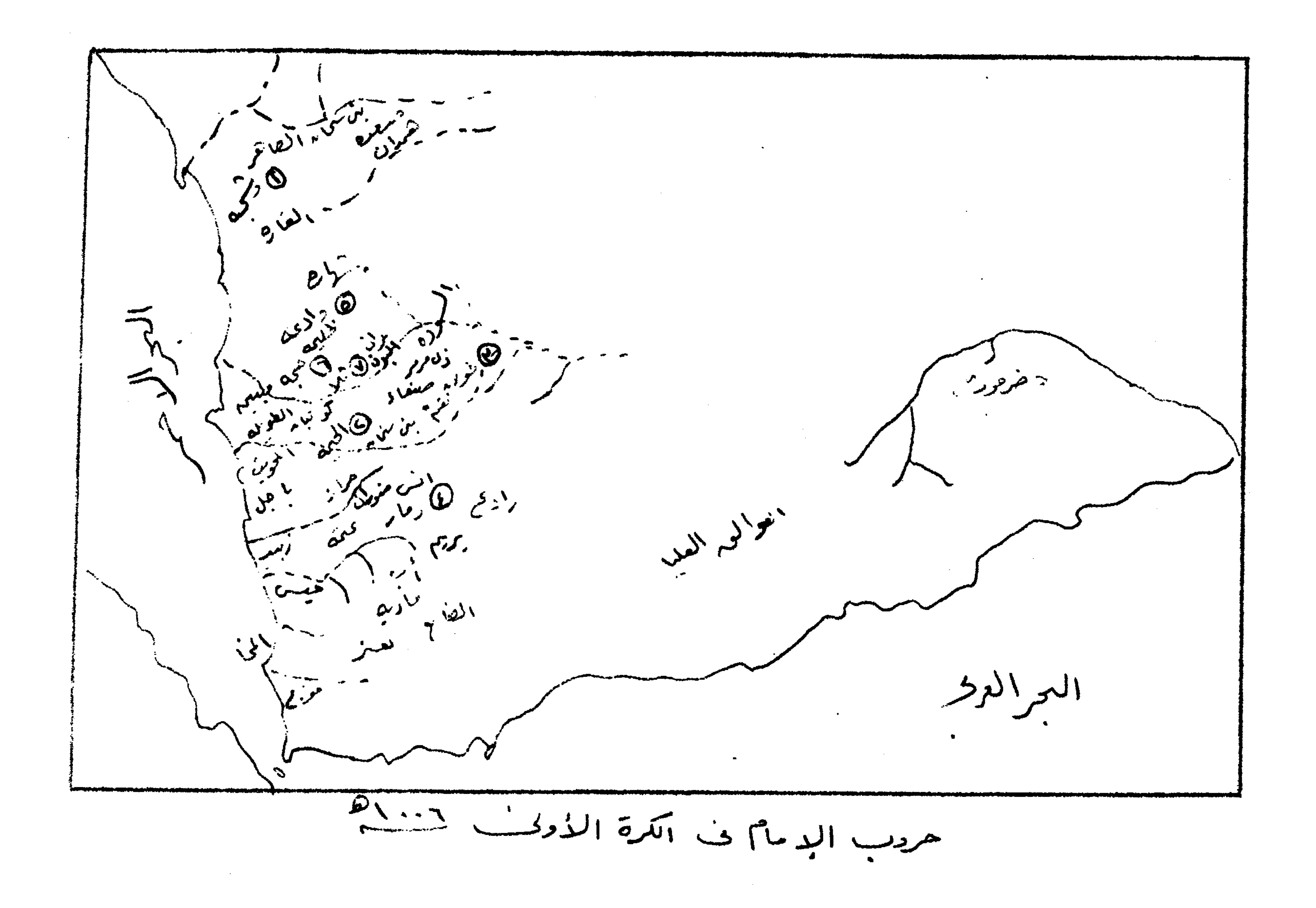
(١) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح جـ ٢ ص ٩٤
(٢) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٦٤

فى آخر الليل إلى جبل نقم المشرف عليها ويختفون به .[(١)]

انه يمكن القول أن انتصارات الإمام القاسم السريعة كانت تعبيرا عن مدى استجابة الأهالى لدعوته ، وتذمرهم من الحكم العثمانى ، خاصة فى المنطقة الشمالية حيث كانت جل فتوحاته فيها ، رغم قلة الأسلحة النارية لديهم ، لأن الولاة العثمانيين فى هذه الفترة كانوا يعملون على جمع الأسلحة على اختلاف أنواعها وخاصة النارية من أيدى الأهالى لاضعاف قدرتهم على الحرب ، لذلك كانت البنادق فى تلك المدة قليلة مع القبائل ، ولا تكاد توجد الا مع أرباب الدولة ، الا أن هذه القبائل استطاعت أن تعوض هذا النقص فى الأسلحة مما غنمته أثناء انتصاراتهم مع الإمام .

---

(١) الكبسى ـ اللطائف السنية ص ١٢٢



حروب الإمام في الكرة الأولى ١٠٠٦هـ

ولما بلغ الامام توجه الجيوش العثمانية على السيد عامر عم الإمام فى جبل تيس وهو يومئذ بحبور، وكان ابن المعافا عنده، رأى أنه من الأفضل الانتقال إلى السَّودة لقرب موقعها من السيد عامر ليمده بالنجدة، زد على ذلك أنها تقع على ذروة جبل وتطل على وادي أخرف، وعصمان الشهيرين بالزراعة فى حاشد[1] فوجودها على ذروة جبل يجعل التحصن بها أسهل من المنطقة السهلية، ومن هذا الموقع يستطيع أن يخرج ولده محمد من مُدع، وكان ذلك رأى أصحابه أيضا، وعلى ذلك تقدم الإمام إلى السودة فى شهر صفر سنة ١٠٠٧هـ = ١٥٩٨م[2]

وفى هذه الأثناء توجه الكخيا سنان إلى ثلا لمحاصرة السيد الحسن بن شرف الدين الكحلانى، عامل الإمام، ولما وصل إلى ثلا، وتقدم لاعانة الأمير أحمد ابن محمد واستفتاح بلاده، فوقف فى الود أطراف جبل الطلع، وتأخر أصحاب الإمام المحاصرون لحصن الطويلة، فتوجه سنان لمحاضرة من فى مدع، ولم يزل يستميل القبائل بالمال، وكانت تلك طريقة يستعملها العثمانيون لاستمالة القبائل إليهم، فكانوا يميلون، نظرا لفقرهم وقلة مواردهم، ثم وجه الكخيا سنان عساكره إلى بيت عذاقة[3] ووقع بينهم وبين أصحاب الإمام حرب قتل فيه قائدا أصحاب الإمام، وقطعت رأساهما وهما السيدان الأخوان أحمد بن محمد المحرابى وأخيه على، وخرج من فى مُدع بأمان، وبعد أيام طلب السيد الحسن ابن شرف الدين الخروج من ثلا على يد الأمير أحمد بن محمد حاكم كوكبان فخرج السيد الحسن، أما محمد بن الإمام فقد رجع إلى أبيه سالما.

---

(١) حسين بن على لويس ـ اليمن الكبرى ص ٨١

(٢) الشرفى ـ اللآلئ المضيئة ص ١٧٥،
الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٨٠

(٣) هو جبل يقع شمال وادى نخلة.



استقرار الإمام في السودة ١٠٠٧م

وفي خلال بقاء الإمام في السّودة ، توجه السيد عامر إلى الإمام ، فأمره بالتقدم إلى خُولان ، فسار إليه على طريق نهم ثم إلى بلاد أنس ومنها إلى الحيمه ثم قصد بأهل الحيمه إلى حبل تيس فاستفتحه وضيق على الأمير أحمد بن محمد مسالكه ، فنهض الأمير أحمد إلى الطويله ، حتى وصل السيد عامر الى المحويت ولبث فيه يومين ، ثم رجع إلى العُدينه فتزوج فيها ، وحاصر أصحاب الأمير أحمد بن محمد ، حتى كاد أصحابه يستولون على المحصورين ، فوجه الأمير أحمد الشيخ صالح الرواس وبعض النقباء في عسكر لتخليص المحصورين ، فمروا بالعدنيه ، ولاعلم لهم أن السيد عامر فيها ، والتقت بهم امرأة أخبرتهم بوجوده ، فمروا عليه وأحاطوا به من كل جانب ، ولم يكن لديه من أصحابه الا القليل ، و بقيتهم في ردمان ، وكان بعض أصحابه قد أشاروا عليه بالانتقال عن ذلك المكان ، ولكنه لم يستمع للنصيحة ، ولم يجد السيدعامر بدا من الخروج إلى أصحاب أحمد بن محمد ، فقبضوا عليه وأخذوه أسيرا ، فلما علم أصحاب السيد عامر بذلك انهزموا ، وقتل منهم نحو ستين نفرا ، وتقدم الشيخ صالح الرواس بالسيد عامر إلى الأمير أحمد بن محمد فأرسل بهم إلى سنان وهو في خمر ، فقتل الأسارى ، وسلخ جلد السيد عامر وهو حيّ ، وقد فت قتله في عضد الإمام القاسم ورثاه بقصيدة طويلة .(1)

رغم هذه القسوة التي استعملها العثمانيون مع الإمام القاسم للقضاء على دعوته بشتى الطرق ، سواء الحربية منها أو النفسية ، وذلك بقتل وسلخ جلد عمه ومطاردة رسله إلى القبائل المختلفة ، حيث قبضوا عليهم ونكلوا بهم

---

(1) الشرفي ـ اللآلئ المضيئة ص ١٨٦ ، ١٨٧

ليكونوا عبرة لغيرهم ، وذلك كما حدث مع العيانى الذى كان يتنقل فى الأقاليم الممتدة بين شهارة وصنعاء ، فقد سلخوا جلده هو الآخر حيا ، وكذلك الحال مع الحماطى الذى كان ينشر الدعوة فى زمار ، اذ مات بعد وضعه فى سجن صنعاء بقليل ،[1] رغم ذلك لم يثن ذلك الإمام عن دعوته بل استمر فيها بعزم وصبر .

بيد أن انتصارات الإمام السريعة وتهديده لصنعاء نفسها ، أثارت ذعر حسن باشا الذى سارع بطلب النجدة من مصر واستانبول ، فأرسلت السلطنة إلى واليها فى مصر بتجهيز الامدادات اللازمة لارسالها إلى اليمن على وجه السرعة ، كما استدعى أيضا على باشا من الحبشة .

وقد صور لنا أحد المعاصرين حالة اليمن فى تلك الفترة بقوله "" وصل المقام الاكملى والأمثلى والأفضلى الباشا على الشهير بالجزايرى إلى أرض اليمن معينا فيها للوزير حسن ، فانه استدعاه من إقليم الحبشة حين صارت أحوال اليمن مرتعشة ""[2] .

وقد اختار حسن باشا على باشا بالذات من إقليم الحبشة لمعرفته بجهات اليمن ،اذ ترجع هذه المعرفة إلى أيام والده الذى كان ذو ثراء ومال عند العثمانيين فاقرض الوزير حسن الأكبر مالا كثيرا فى عهد السلطان مراد بن سليم

---

(١) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٣١ ، الكبسى ـ اللطائف السنية ص ١٢٢

(٢) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٤٢

ابن سليمان ، مما أوجب خروجه إلى بلاد اليمن واستقر في ذى جبله ، وكان معه ولده علىّ ، فتربى باليمن ، ولما مات والده حفظ منزلته وثروته ، وطمع في الرياسة ، فتنازل لحسن باشا بشىء من المال مقابل منحه إقليم ريمه بعد أن يفتحه ، وكانت تلك البلاد منيعة ذات حصون قوية ، وذلك في عهد المتوكل على الله شرف الدين ، وفي خلال هذه المدة كان في مدينة وصاب أمير عثماني متوليا عليها من جهة الوزير حسن ، فارتكب المنكرات فجمع أهل وصاب العسكر وقتلوه بعد حروب شديدة ، ولما خرج على باشا بجموع كبيرة امتنع أهل وصاب وحفظوا بلادهم نحو أربعة أشهر ، حتى دخلها عنوة وقتل أكثر أهلها ، حتى انه كان يرى في الأسواق الرؤوس على الشجر ، ثم بعد ذلك استطاع دخول ريمه ، وسموه أميرا سنجقا ، ثم كثر ماله من التجارة ، فخاف الوزير حسن من أن يمتد سلطانه إلى جهات المغارب أى إلى جهات الساحل ، فأعطاه لقب الباشا على وولاه صعده وبلادها إلى جيزان أى شمال البلاد ، ثم أعطاه الشرفين وما إليها ، وبلاد عفار وشاطب ، فعظم أمره أيضا في تلك المناطق ، فخافه الباشا حسن ، فأرسل للسلطان في الأستانة باخراج الباشا علىّ اخراجا جميلا من اليمن خوفا من استقلاله بها ، بعد امتداد قوته في أكثر أقاليمه ، فولاه السلطان بلاد الحبشة ليستكفى شره ويبعده عن اليمن ، فلما استقر في الحبشة ، وحدثت هذه التطورات في اليمن استدعوه مددا لهم ، [1] وكان وصوله في شهر رجب سنة ١٠٠٧هـ = ١٥٩٩م وقد وعده حسن باشا بولاية اليمن الأسفل وما يستفتحه من بلاد الإمام ، [2] فوقف على باشا في القنين - وهو موضع في جبل

---

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ٨٦
(٢) الشرفى - اللآلىء المضيئة ص ١٨٩

السراه باليمن - وكتب إلى سنان ان يلقاه إلى بلاد خولان ، فدخل سنان من قبلى بلاد خولان ، والباشا علىّ من جنوبها ، فوقع الفتح واشتد غيظ سنان على أهلها ، خصوصا الفقهاء ، فانه شدد فى ظلمهم اعتقادا منه أنهم هم الذين يحرضون الرعية على طاعة الإمام ، فخرج الفقهاء إلى بدبده ، واضطر بعضهم الى تغيير زيه ، ثم رجع على باشا إلى زمار ، ورجع سنان إلى صنعاء .

وفى سنة ١٠٠٨ هـ = ١٦٠٠ م رجع الباشا علىّ لفتح اقليم ريمه وكان محبا لها لانها أول ولاياته ، وبها جميع أمواله ، فاستأذن الوزير حسن فى رجوعه إليها ، فعينه حسن باشا حاكما لاقليمى وصاب وريمه ، اللذان كانا قد انضما إلى جانب الإمام ، فنهض إليها بجيش جرار ، فلما أراد أن يهبط إلى بلاد الجعفرية وإلى جبل ظلم ، وكانت جنوده تتقدمه وهو فى مؤخرتهم ، كمن له الشيخ سعيد صبر وأولاده واخواته وخواصه فى مكان تحيط به الأشجار ، فلما وصل آخر العسكر وتحققوا من شخصيته رموه بالبنادق فقتلوه ، وقيل رماه أحدهم بحجر فى رأسه فمات ، فلم يشعر جنده بذلك حتى أخبروهم بقتله ، فضعفوا وتفرقوا ، فنزلت القبائل وأخذت أسلحتهم ، واستولوا على أموال الباشا علىّ ، وكان قتله فى يوم السبت ٢٣ صفر سنة ١٠٠٩ هـ = ١٦٠٠ م .(١)

لقد استطاع على باشا ان يخضع بعض الأقاليم التابعة للإمام بعد جهود مضنية إلى حظيرة الدولة العثمانية ، الا أن نهايته كانت على يد أحد زعماء هذه الاقاليم فلاقى حتفه هناك .

---

(١) الكبسى - اللطائف السنية ص ١٢٣ ،
الموزعى - الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٣٤

ولما بلغ سنان مقتل الباشا عليّ رجع من غزو الحيمه إلى صنعاء ، وخرج الفقيه على بن يوسف الحمالي من الحيمه إلى أنس ، فاستدعاه أهل حصن مسار من نواحي حراز ، فسار إليهم ، ولما استقر في الحصن عظم على العثمانيين الأمر، فأخذوا يبعثون العسكر لحربه حتى قتل منهم نحو ثمانمائة نفر في مدة الحصار .

كل هذه الأحداث والإمام مازال بالسّودة مستقرا فيها ، الا أن سنان انتقل إلى شاطب لفتحها ، وأخذ يعمل على استمالة أهل خمر ، فبذل لهم الذهب الأحمر المغشوش واستمالهم إليه ،فلما تقدم لحرب أصحاب الإمام كانت المواقع خالية فدخل العثمانيون بلاد شاطب ،ودارت الحرب مع جماعة في جبل بني حجاج من أصحاب الإمام الا أنهم انهزموا واستشهد منهم جماعة، والباقي ذهبوا إلى حصن السودة ، فانتقل سنان إلى الصرارة ، ثم قدم عسكره إلى السَّودة ، فتأهب الإمام لقتالهم ،لكنه أدرك من ابن المعافا الميل إلى سنان وكانت له يد في دخوله السودة .

كان الإمام قد خرج من حصن السودة ، ثم رجع ليأخذ شيئا منه فمنعه ابن المعافا ، فقال الإمام : هذا أمر عقد بليل ، وفهم الحيلة من ابن المعافا وهمّ أحد أتباعه بقتل الإمام ففلت الرمح ، فخرج الإمام وليس عليه الا قميصه وسلاحه وقد لبس عمامته ، وتقلد مصحفه وسيفه ، ووقف بجانب السودة يرمي بالبندق في مكان يسمى الصّاية بالقرب من الموسّن ، حتى عاد إليه فلول المهزمين فتقدموا إلى ظِليمه واستقروا في مكان يسمى الأبرق ، وقد تفرق الأعوان عن الإمام حتى لم يبق معه الا ثلاثة من أصحابه الذين لا يفارقونه في سفر أو حضر ، واضطر

الإمام للذهاب إلى جهات الأهنوم .[1]

أما أهل السودة فقد ضعفت عزائمهم بعد انهزام الإمام وأصحابه ، واضطربت أحوالهم ، وخافوا من بطش سنان الذى اشتهر بقسوته وشدته حتى أصبح ذكر اسمه يثير الرعب والذعر فى قلوب اليمنيين .[2]

كان خروج الإمام من السودة ودخول الأتراك إليها فى صفر سنة ١٠٠٨ هـ = ١٦٠٠م[3] وقد ذكر بعض المؤرخين أن خروجه كان سنة ١٠٠٧هـ = ١٥٩٩ م ولكن الأرجح هو التاريخ الأول .

ان انتصارات الإمام القاسم المتتالية فى المنطقة الشمالية ، أجبرت بعض القواد اليمنيين على الدخول فى طاعة الإمام ، مثل عبد الرحيم بن عبد الرحمن وعبد الله بن المعافا ، وقد بقى أمر هؤلاء الأمراء على ولائهم للعثمانيين طول قوة الإمام وسيطرته ، ثم تأكد هذا الولاء أو بدأ يظهر على حقيقته عندما انحسرت هذه السيطرة ، وهذا ما اتضح من موقف عبد الرحيم ، ثم عبد الله بن المعافا ، فقد انتهز عبد الرحيم أقرب فرصة للافلات من يد الإمام ، واللجوء إلى حسن باشا والكخيا سنان ، بعد أن دخل فى طاعة الإمام وولاه قيادة قواته لفتح عمران ، وانقلب كذلك عبد الله بن المعافا على الإمام أثناء انكماش سيطرته ، وتوالت انتصارات سنان فى المنطقة الشمالية ، فلم يسمح للإمام باللجوء إلى حصن

---

(١) الشرفى ـ اللآلئ المضيئة ص ١٨٠ ، الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٢٢ .
(٢) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٣٢
(٣) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح جـ ٢ ص ٨١

السودة ومنعه من الدخول ، فاتجه الإمام عندئذ إلى حصن شهارة بالأهنوم بعد أن تأكد من خيانة ابن المعافا له .

أصبح الموقف جليا أمام نظر الإمام القاسم ، فقد أدرك أن هذه الحروب لم تكن ضد جبهة واحدة فقط بل ضد جبهتين : الاولى أو العنصر الرئيسي ماكان منها ضد العثمانيين ، والثانية : الأمراء اليمنيين المتعاونين مع الجبهة الأولى ، وقد عبر الإمام القاسم عن ادراكه لهذا الأمر فى أحد خطاباته العامة الموجهة إلى اليمنيين كافة بقوله " وبعد فان الله قد أوجب عليكم قتل هؤلاء الاتراك وأعوانهم من العرب على أى حال ولو خفية فى الطرقات والمساجد والبيوت ، ومن ترك ذلك وهو يقدر عليه فهو عند الله من الهالكين "[1] .

لقد وقع اختيار الإمام لبلاد الأهنوم للاستقرار فيها بعد خروجه من السودة ، لأنه رأى أن فى بقائه مصلحة له ولأهل الاهنوم نفسه ، فان أهل الأهنوم كثيرا ما كانوا يلجأون للإمام فارين من بطش العثمانيين وأذاهم ، بالاضافة إلى بُعد الأهنوم عن مركز الدولة فى صنعاء ، وبها جبال حصينة يستطيع أن يلجأ إليها اذا داهمه الخطر ، كما أنه يعتقد أن جهات الأهنوم اعرف بحقوق الأئمة وما يجب عليهم نحوهم ، فهم أسرع للاجابة والموالاة من غيرهم ، هذا كان رأى الامام ، أما اصحابه فقد رأوا الإنتقال إلى جهة اخرى كجهات خولان مثلا ، وذلك لما رآه من فشل أهل الأهنوم وتفرق آرائهم ، وأنهم

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٧

خافوا أن يميل الناس إلى جانب العثمانيين ، لكن كانت وجهة نظر الإمام هي الأصوب في اختياره الأهنوم .[1]

وقد نقل الجرموزي مؤلف سيرة الإمام القاسم هذا الحديث بين الإمام القاسم وابنه محمد المؤيد بالله عن استقراره في شهارة ببلاد الأهنوم ، قال له "" يا ولدي لا يغرنكم اقبال الفتوح ، فتتركون شهارة وتستبدلون بها ، فقد حصل معي غلط وخطأ بالبقاء في السودة وترك الأهنوم في تلك المدة فأنا لم نتمكن من الخروج منها من غير ملاحمة "".[2]

وهكذا كان اختيار الإمام القاسم للأهنوم ولشهارة بالذات راجعا إلى أهمية موقعها الحصين ، اذ أنها تقع على قمة جبل بالاضافة إلى توفر المياه فيها ، فهي منبعه من جميع نواحيها ، وتنقسم إلى قسمين شهارة الأمير ، وشهارة الفيش كل منها في رأس جبل يفصل بينهما شطر طبيعي للجبل يبلغ عمقه نحو مائتي متر ، وهي تبعد عن صنعاء ١٣٠ كم ، وارتفاعها عن سطح البحر ثلاثة آلاف قدم[3] ، كل هذه الاعتبارات من حيث حصانة موقعها ، ووجود الجبال بها تجعل اليمنيين وخاصة أهل الشمال يتحصنون من أعدائهم داخلها لأنهم تعودوا الصعود والهبوط منها بسهولة بالاضافة الى معرفتهم بمسالك هذه الجبال ، وذلك على عكس العثمانيين فان وعورة هذه المنطقة تحرمهم من

---

(١) الشرفي - اللآلئ المضيئة ص ١٨١
(٢) الجرموزي - النبذة المشيرة ص ١٢١
(٣) عبد الله الثور - هذه هي اليمن ص ٣٩٥

استعمال معداتهم الحربية الثقيلة ، اذ كان يصعب على الجنود نقلها من مكان الى آخر ، كما أن الفرسان يصعب على خيولهم تسلق تلك الجبال ، هذا بالاضافة إلى بعدها عن صنعاء ، وتوفر المياه بها ، كل هذه الاعتبارات جعلتها من شهارة حصن الإمام وأصحابه الحصين ، وجعلته يوصي ابنه باتخاذ مركزا ، لدولته ، فهنا يظهر مدى عمق نظرة الإمام القاسم في اختياره للأماكن التي يتحصن بها أو يستقر فيها ، مما يدل على معرفته بفنون الحرب واختيار الأماكن الاستراتيجية في ذلك الوقت .

دخل الإمام شهارة واستقر فيها ، لكن العثمانيين لم يتركوه وشأنه بل أرسلوا إليه الحملة تلو الأخرى ، وشددوا على شهارة الحصار سنة ١٠٠٩هـ ، وجعلوا عليها الحراس من العثمانيين والعرب ، وكان قائد العثمانيين ذو الفقار ، ومن العرب الأمير عبد الله بن يحيى بن عمرو بن المعافا ، بعد أن ولاه حسن باشا جميع بلاد الأهنوم ، وكان حصار شهارة ٣ شوال سنة ١٠٠٩هـ = ١٦٠١م (١)

طلع بن المعافا بجميع عسكره ومن معه من الأمراء إلى نجد خمر ، بعد أن ولاه جميع الأهنوم إلا الشهارتان ، وجماعة من مشايخ الأهنوم انحازوا مع الإمام ، وفي ذلك اليوم وما بعده رتب عسكره حول شهارة فوقف هو في نجد بني خمر ، وجعل أميرا من العثمانيين يسمى رمضان فيما بين شهارة وبني خمر

---

(١) الجرموزي - النبذة المشيرة ص ١٣٤

فى عسكر كثير ووجه الأمير ذو الفقار إلى حميمة على شرق شهارة ، ثم رتب الأماكن حول شهارة من جميع جوانبها ، لكى يظفروا بالإمام ، لكن دون طائل .[1]

فى خلال ذلك وقعت عدة وقعات منها موقعة (المحافر) سنة ١٠١٠هـ = ١٦٠٢م فقد جهز بن المعافا جيشا فى مكان يسمى المحافر شرق شهارة وهى عبارة عن أكمة لأنه يعتقد أن حفظه لهذا المكان يمكنه من أهل شهارة وقد بذل الأموال الطائلة للعسكر حتى يثبتوا فى أماكنهم ، وعمروا فى هذا المكان أربعين موضعا ، وجلبوا أهل الأهنوم للعمارة ، فحملوا الأخشاب والأبواب من كل مكان ولما استقروا فى المكان خرجت عليهم جماعة من أهل شهارة وأصحاب الإمام نحو مائة نفر لتخريب المكان ، لكنهم لم يستطيعوا لقوة العثمانيين وكثرتهم فى هذا المكان ، ورغم ذلك فانهم حاربوهم وثبتوا فى أماكنهم يوما كاملا من طلوع الفجر حتى الغروب ، وكان سلاحهم الحجارة ، وكان العثمانيون فى تلك الأكمة ، وأصحاب الإمام من فوقهم يرمون بالحجارة فى الهواء[2] ، حتى انتهت المعركة بقتل رئيسهم الأغا محمد ، فلما قتل ضعفت عزائمهم ، وتركوا المكان ومابه من خيام يقدر عددها بنحو تسع خيام ، أخذها أصحاب الإمام ونصبوها فى شهارة عند الإمام[3] ، وفى نفس العام ١٠١٠هـ = ١٦٠٢م عمل ذو الفقار على قطع طريق الاتصال بين شهارة الفيش وشهارة الأمير فوقف فى مكان يسمى الرحبة ، فاحتال حتى نصب مترسا[4] مرتفعا وحصنه بوضع من يحميه

---

(١) الشرفى ـ اللآلئ المضيئة ص ١٩٢

(٢) كالمدفع الهاون الذى استعمله العثمانيين .

(٣) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٤٠

(٤) المترس = هو ما يستتر به من العدو كالحائط (المنجد)

من خاصته ، فلما علم الإمام بذلك اجتمع مع أهل الشهارتين ، وطلب منهم الاستعداد لقتال العثمانيين ،وأن يهبوا له أعمارهم في ذلك اليوم ، فكان له ما أراد ، واستعدوا لتخريب هذا المترس ، فنزل الإمام معهم حتى ركزهم بالقرب من حصن المنصورة ، فلما اكملوا التعبئة كبروا ، والتقى الفريقان فرماهم العثمانيون بالبنادق واختلط الرجال ودخان البنادق وشعاع النيران حتى صار الضوء كالشمس وقد حدث في ذلك الوقت خسوف القمر فأظلم المكان ، ورجع أصحاب الإمام بعد أن هزموا العثمانيين وأخربوا المتراس ولم تكن خسائرهم كبيرة .(1)

استمرت الحروب المتتالية على شهارة طول مدة الحصار ،فكان بعض أصحاب الإمام ينزلون على بعض مواقع العثمانيين فيأخذون ما فيها ،ويقتلون من يتعرض لهم ،(2) وكانت الحرب سجالا .

ونظرا لطول مدة الحصار وقلة المؤن في شهارة اختفى الإمام في كهف بالقرب من المنصورة بشهارة ، وكان الحاج أحمد بن علي بن دغيش الغشمي يرسل السعاة سرا في البلاد الخاضعة للإمام ليجمع المؤن والزاد للإمام ويعطيها للحاج سالم الحكمي والحاج محمد بن زياد وهم من بلد قريبة من شهارة الفيش

---

(١) الجرموزي - النبذة المشيرة ص ١٤٠

(٢) الشرفي - اللآلئ المضيئة ص ١٩٣

ليصلوا بهذه المؤن للإمام وذلك لمعرفتهم بالطرق ، وكان الإمام ينزل إليهم ليأخذ ما معهم بعد التأكد منهم ، ولما طالت مدة الحصار وعانت شهارة من قلة المؤن أكثر فأكثر ، يئس الإمام من التفريج عن شهارة ، فوجد أن الحل الوحيد هو خروجه منها ليسهل رفع الحصار عنها ودخول المؤن لأهلها ، وبعد أن شاور أصحابه في كيفية الخروج واجتمع رأيهم ، خرج الإمام في يوم ٣ شوال سنة ١٠١٠ هـ = ١٦٠٢ م وفرح أصحابه بذلك ، وصحب معه الفقيه على الشهارى والرئيس على بن وهان العذرى ، وترك أبناءه محمد والحسن والحسين وعلى وأحمد ، وترك خطابا عند الشيخ ابراهيم بن المهدى الجحافى ليجيب عن مطالب أهل شهارة ، وما يحتاجون إليه .

وجد الإمام وأصحابه الكثير من المشاق فى الخروج من شهارة إلى جهات برط لشدة الحراسة على شهارة من قبل العثمانيين ، وصعوبة الهبوط فى الليل لعسرها وطول مساحتها وعدم معرفة الطرق ليلا ، اذ كانوا يسيرون ليلا ويختفون نهارا ، فلما وصلوا بلاد بنى سفيان وبها أمير من العثمانيين اختبأوا فى مغارة عظيمة ، وكان هناك شيخان من نهم هما الشيخ سريع والشيخ سعيد عطوا على اخفاء الإمام فى تلك المغارة ، وما جاء إليها أحد الا صرفاه ، وكان العثمانيون كلما اختفى الإمام عن أعينهم شددوا فى الحراسة ، فكانوا يخرجون الخيل تطوف حول الأماكن لتستطلع اخبار الإمام ، ولما جاء الليل خرجوا إلى البطنة فسمعوا صوت الخيل فأختفوا حيث أمضوا ليلتهم ، وكان نعل الإمام قد سقط فقطع الطريق وهو حافى القدمين ، فشق عليه المشى ، حتى أنه قطع من ثيابه على أقدامه وأكمل سيره فى الليلة الثانية حتى وصلوا حوث ،

وطلعوا الجبل الأسود من بلاد سفيان وأشعلوا النار فوق الجبل لتدل من فسي شهارة أنهم وصلوا بأمان ، ففرح أهل شهارة بسلامة وصول الإمام ، وفرح ولده محمد وأظهروا البشرى ، ثم ارتحل الإمام إلى برط [1] ، ولما وصل هناك احتفر بئرا ، وبنى مسجدا جعله مقرا لدعوته ، وسمى الموضع (الهجرة) وهو قريب من ذو محمد ، بطن من بطون برط ، والتف حوله بعض أتباعه من العلماء والفقهاء وقصده مريدوه من كل أنحاء البلاد لتلقى تعاليمه ، أو لتسليمه الأموال والنذور التي يتبرع بها أتباعه .

بقى الإمام في برط بعض الوقت بعيدا عن متناول العثمانيين حتى أتيحت له الفرصة لإعلان الحرب ثانية ، غير أن اقامته هناك لم تكن آمنة تماما، فقد تبرم بعض أهالي برط من اقامته بينهم خوفا من بطش العثمانيين بهم اذا امتدت أيديهم إلى بلادهم ، كما لم تكن اقامته آمنة كذلك لأن حاكم صعدة المسمى قرا جمعه وصل إلى الهجرة التي بناها الإمام ، مما اضطر الإمام إلى الخروج منها في القفار البعيدة ، ولما وصل العثمانيون خربوا الهجرة وهدموا المسجد ، واتجهوا إلى جهات برط للقبض على الإمام لكن لم يتم لهم ذلك ، فهم يبذلون الأموال الكثيرة للقبض عليه ، وجعلوه همّهم وموضع قصدهم ، لظنهم أنهم اذا تمكنوا منه أطفئت نار الفتنة ، وقد بعثوا الجواسيس وأكثروا من الجند للبحث عنه ، لما ذاقوه من مرارة حربه منذ ظهور دعوته ، ولما عرفوا عنه

---

(١) برط = جبل متين واسع الاطراف في رأسه أودية زراعية ، وآبار جوفية يزرع فيه العنب ومن الشمال يشرف على نجران .



حصار شهارة ١٠٠٩هـ ، وخروج الإمام منها إلى برط

من الهمة والصبر واقبال الرعية إليه [1] ، وقد حاول الإمام الارتحال إلى نجران في الشمال أثناء وجوده في برط ، بعد أن والاه بعض أهلها ، لكن عند وصوله إليها حدثت حروبا ستشهد فيها بعض أصحابه ، لأن أهلها من الباطنية ، فلم يستقر بها لخوفه من خبث أهلها ومعارضتهم للأئمة فعاد إلى جهات برط ثانية . [2]

خرج الإمام القاسم من شهارة كما ذكرنا وترك أمر الدفاع عن الحصن لابنه محمد الذى واصل الحرب والصبر فى وجه العثمانيين ، لكن الإمام أثناء وجوده فى برط عمل على إخراج أولاده على ـ الحسن ـ والحسين من شهارة ، فقد ارتدى بعض أصحابه ملابس الحطابين ليحتالوا على حراس العثمانيين ويستطيعوا دخول شهارة واخراج أولاد الإمام ، وبالفعل تم لهم ذلك ، وقد حاولوا اخراج ابنيه أحمد ومحمد فى المرة الثانية لكن محمد أبى ذلك وقال "لقد وهبت نفسى لله سبحانه ، ولمن فى شهارة المحروسة بالله مع المسلمين والعلماء والمستضعفين وأن الإمام لم يأمرنى بذلك ، وفى بقائى سلامة لمن فى شهارة " [3]

لما علم العثمانيون بخروج الامام وأولاده من شهارة ، اضطربت أحوالهم وهاجوا وصبوا غضبهم على القبائل ، وأخذوا منهم الرهائن وهدموا بيوتهم وخاصة

---

(١) الشرفى ـ اللالئ المضيئة ص ١٩٥

(٢) الشرفى ـ اللآلئ المضيئة ص ١٩٥

(٣) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٤٠

قبائل حاشد وبكيل [١] ، وأما أهل شهارة فقد صبروا بعد خروج الإمام وخاضوا عدة حروب كاد يذهب فيها ابن الإمام ، لكن العثمانيين وأعوانهم من آل شرف الدين كانوا مازالوا محاصرين لشهارة ، وقلت المؤن أكثر فأكثر ، وأهل شهارة يعانون من شدة التعب ، فاضطر محمد بن الإمام إلى الموافقة على تسليم نفسه للعثمانيين ، فأرسل الفقيه صلاح بن عبد الله الشطبي إلى ابن المعافا بخطاب ، فما كان من ابن المعافا الا أنه ارسل يستدعيه لتمام تسليم شهارة إلى أيدى أحمد بن محمد بن شمس الدين حاكم كوكبان ، وكان هو من جملة المحاصرين لشهارة وشرطوا أن تخرج القوات الإمامية من الحصن بأمان ومعها أسلحتها ، وأن يذهب الجنود إلى حيث يشاءون ، وهكذا تم تسليم الحصن للعثمانيين على هذه الشروط فى أول شهر محرم سنة ١٠١١هـ = ١٦٠٢م [٢] ، وان كان قد ذكر في بعض المخطوطات أن خروج ولد الإمام ٢٧ ذى الحجة سنة ١٠١٠ [٣] ، وعلى أى حال فان التاريخين متقاربين ، فيكون بذلك حصار شهارة حتى خرج الإمام منها أحد عشر شهرا وسبع وعشرين يوما ، ثم حفظها محمد بن الإمام سنة كاملة ، [٤] وقد وافق العثمانيون على هذه الشروط خوفا من انتقام الإمام القاسم رغم ضعف قوته حينذاك ، وحتى لا يثيرون الأهالى ضدهم اذا قتلوا محمدا بن الإمام أو نكلوا به .

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٣٦
(٢) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٤٠
(٣) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٤٧
(٤) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٣٤

بذلك انتهت النهضة الأولى من دعوة الإمام القاسم ،والتي دامت خمس سنوات ، استطاع الإمام خلالها أن يبسط سيطرته على أغلب الأقاليم الشمالية وحصونها ، ثم عاد فخسر كل هذه الممتلكات ولجأ الى برط ، واستعمل العثمانيون القسوة البالغة في مناهضة الإمام ،فقد طاردوا رسله في البلاد ونكلوا بهم وجعلوهم عبرة لغيرهم ، وقتلوا عمه عامرا ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، واشتدوا في معاملة أتباعه وجيوشه عند ما بدأت سيطرته في الانكماش ، فقد أخذوا ينكلون بالأسرى ويقتلون بعضهم ،ويأخذون من بين قبائلهم الرهائن الكثيرة ، وقد أتت هذه السياسة أكلها في مناهضة الإمام حيث تقاعست بعض القبائل عن مناصرته ، عند ما قرر إعلان الحرب من جديد على العثمانيين من برط ، وذلك كما فعلت قبائل وادعة الشام ، فقد رفضت الاستجابة لدعوته ، بل واستعدت لمحاربته ، وذلك رغم أن هذه القبائل كانت من أهل السبق والمحبة له ، هذا بالاضافة إلى تعاون أمراء آل شرف الدين وغيرهم من الأمراء الزيديين الموالين للعثمانيين ، هذا التعاون القائم على المصلحة ، ومع ذلك فان الإمام استعد من جديد ليخوض غمار الدعوة والحرب من برط ، وبدأت بذلك النهضة الثانية .

الفصل الثانى

ولاية سنان باشا سنة ١٠١٣ هـ

النهضة الثانية

أ - عرض الصلح على الإمام القاسم فى ولاية سنان باشا سنة ١٠١٣ هـ
ب - التطورات فى النهضة الثانية وفكرة رحيل الإمام للبصرة
جـ - انضمام الأمير عبد الرحيم بن عبد الرحمن للإمام وبقية التطورات
د - عودة شهارة للإمام القاسم سنة ١٠١٥ هـ ثم عقد الصلح مع سنان باشا قبيل رحيله .

ظل الإمام القاسم في برط لمدة سنتين ، يجمع الأعوان حوله ويتأهب لبدء الحرب على العثمانيين من جديد ، ومن هنا تبدأ النهضة الثانية من دعوته ، لكن أهل برط كانوا يكرهون بقاءه في بلادهم خوفا من سنان الذى أصبح واليا على اليمن بدلا من حسن باشا في سنة ١٠١٣هـ = ١٦٠٥م، الذى ظلت ولايته على اليمن خمسة وعشرين سنة سنة ٩٨٨هـ إلى ١٠١٢هـ الموافق سنة ١٥٨٠م الى ١٦٠٥م، وفي آخر السنة الثانية عشرة بعد الألف وصلت الأوامر من السلطان أحمد الأول بتولية سنان ولاية في اقليم اليمن عوضا عن الوزير حسن ، وأعطى الوزير حسن ولاية مصر .[1]

وجد سنان باشا أنه من الأفضل بعد هذه الحروب المضنية بينه وبين الإمام القاسم دون النيل منه ، بالاضافة إلى تألب الأهالي عليه ،واستعماله الشدة معهم ، أن يعقد صلحا مع الإمام ، ومن ثم اتفق مع الأمير أحمد بن محمد صاحب كوكبان على أن يرسلوا للإمام يعرضوا عليه الصلح وهو يومئذ في برط ، فأمر السيد الحسن بن شرف الدين الكحلاني - وكان في حبس كوكبان - أن يكتب إلى جهة برط ، ويعرف الإمام بشأن الصلح ، وما ينبغي من تسكين الفتنة ، على أن يقيم الإمام أينما أحب من الهَجَر ، ويجعل له جانب من البلاد ، مع كفايته هو وأولاده ، وكان هذا بمثابة تواطؤ بين الأمير أحمد بن محمد وسنان باشا ، لكي يقصروا الإمام بأقطاعه أرضا حتى يترك هذا الأمر، ظنا منهم أن هدفه

---

(١) الموزعي - الاحسان في دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٤٤

من وراء تلك الدعوة والحروب المميتة هو السيادة والحكم ، لكن الإمام رفض هذا الأمر لأن ذلك لم يكن هدفه من وراء هذه الحروب ، وقد أجاب الإمام على ذلك الخطاب بجواب طويل " وتحققنا ما ذكرتم ، أبقاكم الله ولم تذكروا في كتابكم تحقيق أحوالكم وأحوال أولادنا السادة ، مع أنه نقل إلينا حسن صنيع الأمير صفي الدين أحمد بن محمد بن شمس الدين ابن أمير المؤمنين ، من فعل المعروف الطائل ، الذي جاء شكره على لسان كل قائل ، وورد به الرجال ، والركبان ، فالله يحسن إليه ...

" أما ما ذكرتم ابقاكم الله من ترك الفتنة والميل إلى الراحة فهيهات اترك قول الله تعالى" من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون " إلى أن قال : " وأما ما ذكرتم من اقطاع بلاد فانا أحق بها ، بلى ان يتركوا شهارة وبلادها ، ووادعه ، وبلاد خولان ، وجبل رازح مع برط . ويعقد صلحا سنين معروفة طولها وقصرها إليهم ، فان ذلك مشروع ، فان يرضوا ، فقد رضينا ولا ننقض ان شاء الله تعالى عهدا واوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا ، والامير صفي الدين يضمن لنا وعلينا ".(١)

وهكذا اشترط الإمام أن تكون له بلاد شهارة ، ووادعة وخولان وجبل رازح وبرط ويكون هذا الصلح لمدة معينة ، لكن سنان باشا لم يرض بهذه الشروط بل أراد أن يمنحه بعض تلك الأراضي ويجعل له اسم الإمارة ،

---

(١) الجرموزي - النبذة المشيرة ص ١٤٥

ويخضعه كباقي أمراء آل شرف الدين ،ولكن الإمام لم يرضى بذلك ، فما كان من سنان إلا أن أرسل للإمام مرة أخرى بواسطة محمد بن شمس الدين يهدده بأن يقبل بذلك ويتخلى عن هذا الأمر ، والا سوف يعذب أولاده ويقتلهم ، فلم يكن من الإمام الا أن رد عليه بقوله : "أما من عندكم من المأسورين فافعلوا بهم ما بدا لكم ، وأقسم بالله لا بلغن في حربكم ونكالكم كل مبلغ ، ولا زوغن لكم روغان الثعلب ، ولا ثبن عليكم وثوب الأسد ".(١)

فقد وقع هذا الخطاب في قلوب العثمانيين موقعا عظيما هدّ من قواعدهم وأيقنوا أن الإمام القاسم ليس بالشيء السهل الذي يستهان به ، أو تغريه مباهج الحياة الدنيا ،فقد قدم أولاده فداء دعوته وتحقيق غايته .

وهنا نلاحظ أن الإمام هو الذي أملى شروط الصلح على سنان ، مما يظهر لنا مدى تخوف العثمانيين منه ، ومدى ما وصل إليه من مكانة خلال خمس سنوات خاض فيها غمار الحرب ، ولما وجد سنان ذلك من الإمام لم يكرر المخاطبة معه في الصلح واستعد للقتال من جديد ،بعد أن أنهكه وأصحابه لمدة خمس سنوات كانت الحرب فيها سجالا .

ورغم ما كان الإمام يعانيه من شدة من أهل البلاد في برط ، ومن التنقل من مكان الى آخر ،لم يقبل هذا العرض المغرى ، ففي أيام بقائه في برط

---

(١) الشرفي ـ اللآلئ المضيئة ص ١٩٧

ومعه أولاده وأصغرهم الحسين كانوا يعانون من شدة الجوع حتى إن الإمام كان يبكي وولده الحسين قد سقط من شدة الجوع[1] فلو كان هدفه السيادة أو الإمارة لقبل بعرض سنان فورا .

وانتقاما لرفض الإمام عرض سنان باشا ، توجه سنان إلى الحَيْمة ، والتقى به أحمد بن محمد صاحب كوكبان ليدخلوها عنوة ، وكان أهل الحَيْمة قد مالوا مع الفقيه على بن يوسف الحماطى ، وطلبوا منه التقدم إلى بلادهم والجهاد معهم فوصل إليهم واستخلف على حصن مسار بعض أصحابه ، فلما وصل الحماطى إلى موضع يسمى (حد بنى النمرى) من بلاد الحَيْمة ، ولم يكن أهل الحيمة راضين جميعا عن وصوله ، ولذا بقى فى موضعه ، فتوجه إليه من صنعاء النقيب سعدان بن عبيد - وهو أمير كبير فى عسكر العثمانيين - فالتقوا فى جبل الركب عند حصن رُدَمان من بلاد حضُور ، وأرسل بن شمس الدين بعض أمرائه فى جمع كبير ليقابلوه من الشاحدية ويدخلوا الحيمة من أسفلها ، وكل هذه الجموع التقت بالحماطى ووقع القتال ، فلما رأى أهل الحيمة تلك الجموع انكسرت عزائمهم ، وخافوا على حريمهم وبيوتهم ، فلما أحس بذلك الحماطى وتخاذل أهل الحيمة مال إلى ناحية بعيدة فى الليل ، ثم رجع الى مسار وواجه العثمانيون الموقف ، وقتلوا أكثر من ثمانية وعشرين رجلا ، ودخل الجنود بلاد الحيمة ، وأسروا كثيرا من النساء المجتمعات فى حصن العُر ، فتشفع فيهن الأمير أحمد بن محمد ابن شمس الدين عند النقيب سعدان ، وآل الأمر إلى أن أذن بدخول الحصن

---

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٤٩

بعد أن أعطوه العهود والمواثيق على سلامة من فيه من الرجال والنساء والأطفال وكانوا زهاء سبعمائة شخص ، ولكن النقيب سعدان نكث بالعهد ، وأباح من في الحصن للعثمانيين ، فأسروا النساء والأطفال وهرب الرجال ، ثم سعى ابن شمس الدين في إطلاق بعض المأسورين ، واختير من جملتهم أربعين شخصا كرهائن ،كل رهينة امرأة وطفل وطفلة وأطلق الباقون .[1]

هذه المعاملة القاسية التى عاملوا بها أهالى البلاد زادت من كراهية أهل اليمن فى بقائهم تحت حكم العثمانيين ، فكانوا ينضمون إلى أى حركة مضادة لهذا الحكم ، لكن هدف العثمانيين من وراء ذلك كان ارهابهم ، لكى لا ينضمون إلى الامام القاسم ، وقد أتت هذه السياسة أكلها فى أول الأمر ، ولكن بعد الانتهاء من المعارك كانوا مايلبثون أن يرجعوا للانضمام للإمام ، وتشجيع دعوته والنصرة له للتخلص من الحكم العثمانى ،وقد اتخذ الإمام الجانب الدينى ولاختلاف المذهبى بين الأهالى والعثمانيين سببا لجذب هذه القبائل إليه مرة ثانية .

ثم توجه سنان إلى حراز لحصار حصن مسار لوجود الحماطى به ، وبعد حصار دام ثلاثة أعوام وأربعة أشهر تسلم سنان الحصن ،[2] ووجه سنان باشا الأمير قراجمعه واليه على صعدة للتقدم إلى برط لمحاربة الإمام القاسم بن محمد ، فساروا إليه ،ولم يقدر أهل برط على منعهم ، وكان الإمام قد عمر موضعا فى المحلات الخالية والقفارات النائية وسكن فيه بأصحابه ،ولما بلغه مسيرهم إليه ،

---

(١) الهرفى ـ اللآلئ المضيئة ص ١٦٦

(٢) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٤٧

تحول عنه إلى محل بعيد عنه ،فوصل العثمانيون إلى محله الذى كان فيه فلم يجدوه ،فرجعوا إلى صعدة ، فلبثوا فيها مدة ، ثم عادوا إلى برط ، لكن أهل برط تغيروا على الإمام ، واشتد خوفهم من العثمانيين ، لأن العثمانيين كانوا يأخذون الرهائن منهم ويكتبوهم فى ديوان عساكرهم ويوجهوهم إلى اليمن الأسفل مع أمير لهم يسمى أحمد الأخرم ، وكذلك كانوا يفعلوا مع باقى قبائل حاشد وبكيل لأن الأمير سعدان العبدلى قال لسنان "" كل من كان فى دفتر الامام فأنا زعيم باد خاله دفترك ""(١)

وقرب الجند العثمانى من المكان الذى كان فيه الإمام ،لكن النزاع دب بينهم مما فرق كلمتهم فرجعوا إلى صعده .

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٥٣



حروب الحيمة وصعدة في النهضة الثانية

كان موقف أهل برط ، وغزو قراجمعة صاحب صعدة للإمام ، من أهـــــم الأسباب التي حطت الامام على الخروج من برط ، وقد رأى الإمام أنه من الأرجح الخروج إلى بلاد بني سفيان فطلع الجبل الأسود أعلى من عيان ، لكن العثمانيين كانوا حريصين كل الحرص على توزيع الجنود على المحطات المختلفة ، للانقضاض على الإمام خاصة بعد تفرق أهل البلاد عنه لخوفهم من العثمانيين ، ولكثـــرة هزائمهم في هذه الفترة ، ووضعوا في بلاد حاشد وبكيل فرقة من الجند وكذلك في خمر والصراره وعمران وذئبين ، ووادعة ، والهجر من بلاد الأهنوم والسودة ، وبلاد ذئبان ، وتفرق العلماء والفضلاء في أطراف البلاد في غاية من التخفي .

فلما وصل الإمام إلى عيان رفض أهله نصرته ، وانضموا إلى بعضهم بعضا ، فلما وجد الإمام ذلك خرج إلى الشرق ووصل إلى أسفل بلاد خيار من بني صريم .

يئس الامام من تفرق الأهالي عنه ومنعه من دخول بلادهم ، لتخوفهم من العثمانيين ، وتوالت على الإمام الهزائم وتربص العثمانيين به من كل الجهـــات ، وشددوا في التجسس عليه وأرسلوا ضده الحملات من صعدا وكوكبان وغيرهـــا ، واشتد الأمر على الإمام وكان يعتقد أن ما أصابه سببه عدم الجهاد وعـــدم الاستعداد لمنابذة العثمانيين ، وبقائه في برط مدة دون حرب العثمانيـين ، لكن ما الحيلة وقد تفرقت عنه جميع القبائل والعلماء ، ففكر في أن يرحل إلى البصـرة سنة ١٠١٣هـ = ١٦٠٦م [1] حتى يأتيه الفرج والنصر من اللـه .

---

(١) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٤٨

ولا ندرى لماذا وقع اختيار الإمام القاسم على البصرة بالذات؟ ولكننا نرجح أن يكون هذا الاختيار راجعا إلى أن العراق هو مهد الشيعة حيث أقام به الخليفة على بن أبى طالب مدة خلافته ،وحيث كثرت زيارات مؤسس المذهب الزيدى الإمام زيد إلى العراق ، وقد يكون تفكيره هداه إلى الذهاب للعراق لطلب العون من الدولة الفارسية الشيعية ، حيث كان النزاع قائما ومستمرا بين الشيعة فى العراق والدولة العثمانية السنية للسيطرة على العراق ، فكان التقائهما ، وكانت كل منهما تسعى لفرض زعامتها على العالم الاسلامى حينذاك ونحن نعرف تاريخيا أنه من ضمن الأسباب غير المباشرة لدخول العثمانيين اليمن هو مهاجمة الشيعة الصفويين من الجنوب ،حين عجزوا عن حسم الموقف معهم فى العراق ، ومن محاربتهم من الشمال ،حيث الجليد وصعوبة الجبال الشاهقة وقسوة الجو .

وبعد خروج الإمام من برط الى بلاد خيار بنى صريم ذهب إلى شاطب ومنها إلى وادعه ، ولما وصل الإمام أطراف البلاد اضطربوا وخافوا العواقب لما قد أصابهم أيام استجابتهم له فى أول الدعوة ، ومن أسر مشايخهم الذين لهم الرياسة وحبسهم فى الدار الحمراء ، وتنكيل العثمانيين بهم ، ورغم أن أهل وادعة قد وعدوا الإمام بالنصر والقيام معه ، الآ أنهم بعد وصوله إلى المصنعه رموه بالبنادق ومنعوه من دخول بلادهم ، فأرسل الإمام الشيخ عبد الله بن سعيد الطير ليشعل النيران فى بلده العفيرة ، وهى أعلى من وادعة ، وقد أعطى الإمام الشيخ عبد الله الطير نقودا فضية ليؤلف بها قلوب أهل العقيرة فتم له الأمر ، وكانت تلك الوسيلة لتأليف قلوب القبائل التى كانت تعانى من

الفقر وقلة المال بسبب الانهيار الاقتصادى للبلاد في تلك الفترة ، وكثرة الضرائب والأموال المفروضة عليهم من قبل العثمانيين فكان المال يغريهم للانضمام إلى أى فريق .

لما رأى الامام النيران قال لأهل وادعة هؤلاء أهل العفيرة أقرب منكم إلى العدو وقد والونا ،فكان ذلك من أسباب صلاحهم ونصرتهم للإمام ،وكانت تلك طريقة (تكتيكية) من طرق الإمام القاسم في جذب القبائل ، فأجاب الإمام بعضهم على خوف وخطر وبعضهم امتنع عن اجابته لشدة الحذر ، واستجاب للإمام مايقرب من الألف وبايعوه ،وقد جمع الإمام أهل وادعة في قرية الصبيحات وتكلم فيهم وهدأ من روعهم وقال " ان كان لكم رهائن فاولادى أكثر وأصحابى رهائن في كوكبان وهانا وأولادى بينكم - واشار إلى أولاده الثلاثة - رهائن عندكم ... ولا فارقت وادعة الا منصورا أو مقتولا [1] ، فقام أهل وادعة وتشاوروا في الأمر ، وتم الرأى على نصرة الإمام ،وعاهدوه على ذلك ،وكان ذلك في شهر جمادى الثانية سنة ١٠١٣هـ -١٦٠٦م .

ثم كتب الإمام بعد ذلك إلى بنى جبر فأجابوه ، فوجه اليهم ولده الحسن والسيد على بن صلاح العثالى ، وكانت هذه أول مرة يخرج فيها إليهم الحسن وهو يومئذ ابن خمسة عشر سنة ، ولما وصل إلى ذئبيين ، وبلغ سنان بقاء الإمام في وادعة ، وجه الأمير عبد الله بن المعافا إلى خمر ، والأمير درويش إلى الصرارة ،والأمير عبد الله بن المطهر إلى بلاد عبد الرحيم ،والأمير أحمد

---

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٥٤

الأخرم إلى ذئبين ، فلما رأى الحسن بن القاسم تلك الجموع رجع للى مرهبة مختفيا ، وبقى فيها عشرين يوما ، ثم رجع إلى وادعه عند والده ، ودخل الأمير أحمد الأخرم ذئبين وخربها وأخذ ما فيها فهربت قبائل بنى جبر وتركوا بلادهم خالية .

وأما ابن المعافا فقصد وادعة ، فلقاه الشيخ عبد الله بن سعيد الطير وقبائل وادعة ، فهزمه أقبح هزيمة ، وقتل من أصحابه عدة ، وقطعت رؤوسهم.[1]

كان لهذه الوقعة أهمية عظيمة فى نفس الإمام ، اذ بعد انتصار أصحابه فيها تقوت عزيمته وعدل عن فكره فى الرحيل إلى البصرة ، وانضم إليه بعض القبائل ونصروه ، وانضم إليه عبد الرحيم بن عبد الرحمن بعد نكثه العهد فى أول الدعوة سنة ١٠٠٦هـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى الفصل الاول .

كانت هذه الهزيمة قاطعة لطمع العثمانيين ، فلم يعودوا لمحاربة وادعة بعد ذلك ،[2] وكان عبد الرحيم قد أرسل إلى الامام فى برط يعتذر ويتوب عما حدث منه بعد نكثه العهد والتغرير بأصحاب الإمام ، وأن مراده القيام مع الإمام ونصرته والنهوض بدعوته ، واحترام المواثيق والعهود ، ومكاتبته القبائل له وحثهم على نصرته ،[3] ومع هذا فقد تمهل عبد الرحيم فى اعلان

---

(١) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٤٨

(٢) الشرفى - اللآلئ المضيئة ص ١٩٧

(٣) الكبسى - اللطائف السنية ص ١٢٥

انضمامه للامام خوفا من أن ينقلب عليه سنان باشا عندما تستتب له الأمور في اليمن نظرا لقوة العثمانيين وكثرة جنودهم وأموالهم وخيلهم بالنسبة لعبد الرحيم[1] ، فلما بلغه قيام أهل وادعة مع الإمام ، وانتصار أصحاب الإمام في ذئبين ووادعة تقوى في إعلان انضمامه للإمام ، وفرحت القبائل والإمام بذلك رغم ما كان يشتهر به عبد الرحيم من سوء الخلق ،لكن انضمامه قوى من شوكة الإمام ، لما لعبد الرحيم من قوة وشدة بالإضافة إلى أن الإمام يكون قد كسب أميراً زيدياً تابعاً لأعدائه العثمانيين ، خاصة وأن نفوذ عبد الرحيم قد تقوى واتسع في البلاد أثناء انشغال العثمانيين بمناهضة الإمام في النهضة الأولى ، فالعثمانيون كانوا يعتمدون عليه إلى حد كبير .

وكان سنان باشا معروفا بأنه لا يرضى بوجود شخصية قوية إلى جواره ، وكانت الوحشة بين عبد الرحيم وسنان باشا في سنة ١٠١٤هـ = ١٦٠٧م ،وكان سببها أن الشيخ حسن بن عاطف الأهنومي كان في شهارة عندما تسلمها العثمانيون في النهضة الأولى ، وذهب هذا إلى محمد بن عبد الرحمن ثم إلى أخيه عبد الرحيم هربا من سنان ، لما كان بينهم من ضغائن ،فأمنه عبد الرحيم عنده في حجه ، لكن سنان أرسل في طلبه ، فخاف عليه عبد الرحيم من سنان ، فأرسل له سنان عهدا أنه اذا وصل إليه سوف يعود سالما ، فأرسله عبد الرحيم فقتله سنان ،فعظم ذلك على عبد الرحيم ،وتيقن من غدر سنان به أو بغيره

---

(١) الشرفي ـ اللآلئ المضيئة ص ١٩٧

اذا تمكن منه ، [1] فاضمر عبد الرحيم فى نفسه الخلاف ، ومما أشعل نار هـــذا الخلاف والفتنة أكثر ، أن الشيخ ناصر البهيلة كان منحرفا عن الباشا سنـــان فرفع إلى مسامع عبد الرحيم أقوال ملفقه ووشايات زادت من تلك الوحشة. [2]

وقيل أن سبب الوحشة بين عبد الرحيم وسنان ، أنه بعد استيلاء عبد الرحيم على بلاد الشرف وحجه من الإمام فى الكرة الأولى ، قد جعل العثمانيون اقليم الشرف وحجه له وكتبوا له عهدا بذلك ، وكان للشرف مكانة عظيمة عند العثمانيين ، لما يتحصل لهم منه من أموال طائلة من الخراج ، فخاف عبد الرحيم أن ينـــزع العثمانيون من يده هذا الاقليم ، فهم لا تطب أنفسهم بتركه ، وأنه لابد أن يأتى اليوم الذى يقاتلونه من أجله ويخرجوه منه وذلك عظيم على نفسه ، فهو لا يستطيع مقاومة العثمانيين لما لهم من رجال وخيل ، [3] وكان عبد الرحيم يعلم بمحبـــة الرعايا للإمام وميلهم إليه ، واسراعهم إلى جانبه ، لذلك لم يتردد فى إعـــلان نصرته للإمام وخلافه مع سنان باشـــا .

لما علم سنان باشا بخروج عبد الرحيم عليه ، أظهر عدم الاهتمام لكنــــه هدد قائلا " ما غير عبد الرحيم الا على نفسه ، ولا أزال الا نعمته ، وسوف أملأها عليه خيلا وأوسع أصحابه أسرا وقتلا " [4]

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٥٠
(٢) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح جـ ٢ ص ٨٤
(٣) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ١٩٧
(٤) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح ص ٨٤ ، الكبسى ـ اللطائف السنية ص ١٢٥

وسرعان ما تحول التقارب بين الإمام القاسم وعبد الرحيم إلى خطوات عملية ، فقد أمر عبد الرحيم بالدعاء للإمام القاسم فى الأقاليم التابعة له ، وفى مقابل ذلك طالب الإمام أتباعه المنتشرين فى تلك الأقاليم بالوقوف إلى جانب عبد الرحيم ، الذى كان يمثل سلطة العثمانيين فى أقاليمه ، فتشجع هؤلاء على الاعلان عن أنفسهم دون خوف من العثمانيين ، أو دون خوف من عبد الرحيم نفسه وهو الذى كان يشتهر بالغلظة والشدة ، وتشجع الإمام بدوره كذلك على إعلان الحرب ثانية على العثمانيين ، والانتقال من برط الى منطقة الظاهر التى تقع إلى الجنوب من صعدة لاثارة قبائلها ضد العثمانيين [١]، وذلك بعد أن ضاقت به بلاد برط وضاق به الحال من القبائل وفكر فى الرحيل إلى البصرة كما ذكرت قبل ذلك ، فكأن انضمام عبد الرحيم للإمام واصحابه هو الذى أحدث هذا التغيير فى الموقف .

وكما ذكرنا بأن عبد الرحيم بدأ خطواته العملية بأن أرسل أخاه أحمد بن عبد الرحمن إلى بلاد قُرَاضه ولاَعة ، فاستفتحها ، وجرد عسكرا إلى جزع وبلاد عفار ، وجهز أخاه مطهر بن عبد الرحمن إلى ظليمة والأهنوم وما والاها فاستفتحها [٢].

---

(١) الشرفى ـ اللآلئ المضيئة ص ١٩٨

(٢) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح جـ٢ ص ٨٤

وبعد أن انتهى أحمد بن عبد الرحمن من فتح قُراضة ولاعة تقدم إلى بلاد كوكبان فاستفتح أكثرها ، فخرج الأمير محمد بن أحمد إلى الطويلة ، وجهز النقيب سنبل بعسكر كوكبان اليمنى الذواد ، وانضم اليهم الأمير عبد الله بن المطهر بجماعة من العثمانيين ، فجهز إليهم عبد الرحيم طائفة من عسكره ، وانضمت إليهم قبائل تلك الجهة ، فحاصروهم حتى سلموا وخرجوا إليهم ، ولما وصلوا إلى عبد الرحيم أخذ ما معهم من السلاح الكامل والعدة الوافرة ، وملأ بهم السجون ، وافتتح الحرب على العثمانيين من جميع الجهات .(١)

بعد هذه الانتصارات التي أحرزها عبد الرحيم وهو في جانب الإسلام ، تشجع كثير من مشايخ القبائل ممن يسيطرون على قبائل وبلاد واسعة بالخروج على العثمانيين مثل الشيخ علي بن فلاح صاحب قبيلة الحدا .

كذلك الحماطي صاحب أنس لما علم بخروج الإمام من برط إلى وادعة جمع مشايخ الحَيْمة وعسكرها ، وطلع جبل تيس في جمع كبير فوصل إلى رئيسهم فأطاعهم ، وخرج الأمير محمد بن شمس الدين من كوكبان إلى الطويلة ، ثم جهز عسكرا الى الشاحذية وأمرهم بحرب من في شمسان من أصحاب الحماطي ، فتركوا الحماطي في الحيمة وانهزم من في شمسان من أصحاب الحماطي ، ودخل ابن شمس الدين شمسان والشاحذية ، ثم ذهب الفقيه علي بن يوسف الحماطي ومن معه إلى الشاحذية لحرب أصحاب بن شمس الدين ، وهؤلاء لجأوا إلى

---

(١) الكبسي - اللطائف السنية ص ١٢٥

شمسان ، وحوصروا فيها .

في ذلك الوقت وصلت نجدة من سنان باشا إلى ابن شمس الدين وكانت حوالي ثلثمائة مقاتل ، رئيسهم الشريف صلاح الوزلي ، وضم إليهم ما أمكنه من القبائل لاستخلاص أصحابه في الشاحذية فلما رأى الحماطي هذه الغارة تأخر إلى الحيمه ، وأخذ بذلك بن شمس الدين جبل تيس من أصحاب الامام .(1)

لم يستسلم الحماطي للهزيمة ، بل رجع إلى الحَيْمة ليجمع الجنود والقبائل حوله ويستعد للقاء ابن شمس الدين ثانية ، فبقي في الحيمه خمسة عشر يوما ، ثم خرج إلى اصحاب ابن شمس الدين في شمسان فوقعت الحرب بينهم ، وكان النصر فيها للحماطي ، وفي اليوم الثاني أرسل ابن شمس الدين من الطويلة بفرقة قاتل بها الحماطي ، فقتل من أصحابه اثنان وعاد بمن معه إلى الحيمة مرة ثانية دون أن يحصل على شيء .

في نفس الوقت الذي خرج الحماطي الى شمسان ، تجهز الهادي بن غوث الدين ، أحد قادة الإمام ، لقتال من في الأهجر فانتصر عليهم ، واستقر في الأهجر مدة ثلاثة أيام ثم عاد إلى الحيمة هو ومن معه إلى الحماطي ، ليعاودوا القتال على ابن شمس الدين من جديد ، وبعد شهر مالوا إلى الشاحذية ، وكان في شمسان اصحاب ابن شمس الدين مع فرقة قدرها ألف ، رئيسهم النقيب ياقوت والنقيب سنبل أشول ، والشريف صلاح الوزلي ، ووقعت الحرب فانهزم

---

(1) الشرفي ـ اللآلئ المضيئة ص ١٩٩

أصحاب ابن شمس الدين وقتل النقيب ياقوت وعشرة من رجاله . بعد هذه الهزيمة خرج أصحاب بن شمس الدين لمقاتلة الحماطي والهادى بن غوث الدين في نواحي الأهجر ، ولكنهم عادوا منهزمين هذه المرة وقتل النقيب سنبل وسبعة عشر من رجاله .

بعد هذه الانتصارات التي أحرزها الحماطي ، والتي رفع فيها من شأن الإمام وأصحابه ، بعد أن سلبت منهم جميع الاراضي في الكرة الأولى ، رجع الحماطي إلى الحيمة ، [1] في نفس الوقت الذي كان أحمد بن عبد الرحمن قد استولى على حصن الجميمة بالقرب من كوكبان ، استولى عبد الرحيم على بلاد مسور وملك حصونها كلها ، وتقدمت عساكره الى بيت عذاقة ، فاستقرت فيه ، وبقى أحمد بن عبد الرحمن محاصرا لحصن عولى [2] مدة سنة ، ثم سلمه بعد موت أحمد بن محمد بن شمس الدين في أول شهر ربيع سنة ١٠١٧هـ = ١٦٠٨م . [3]

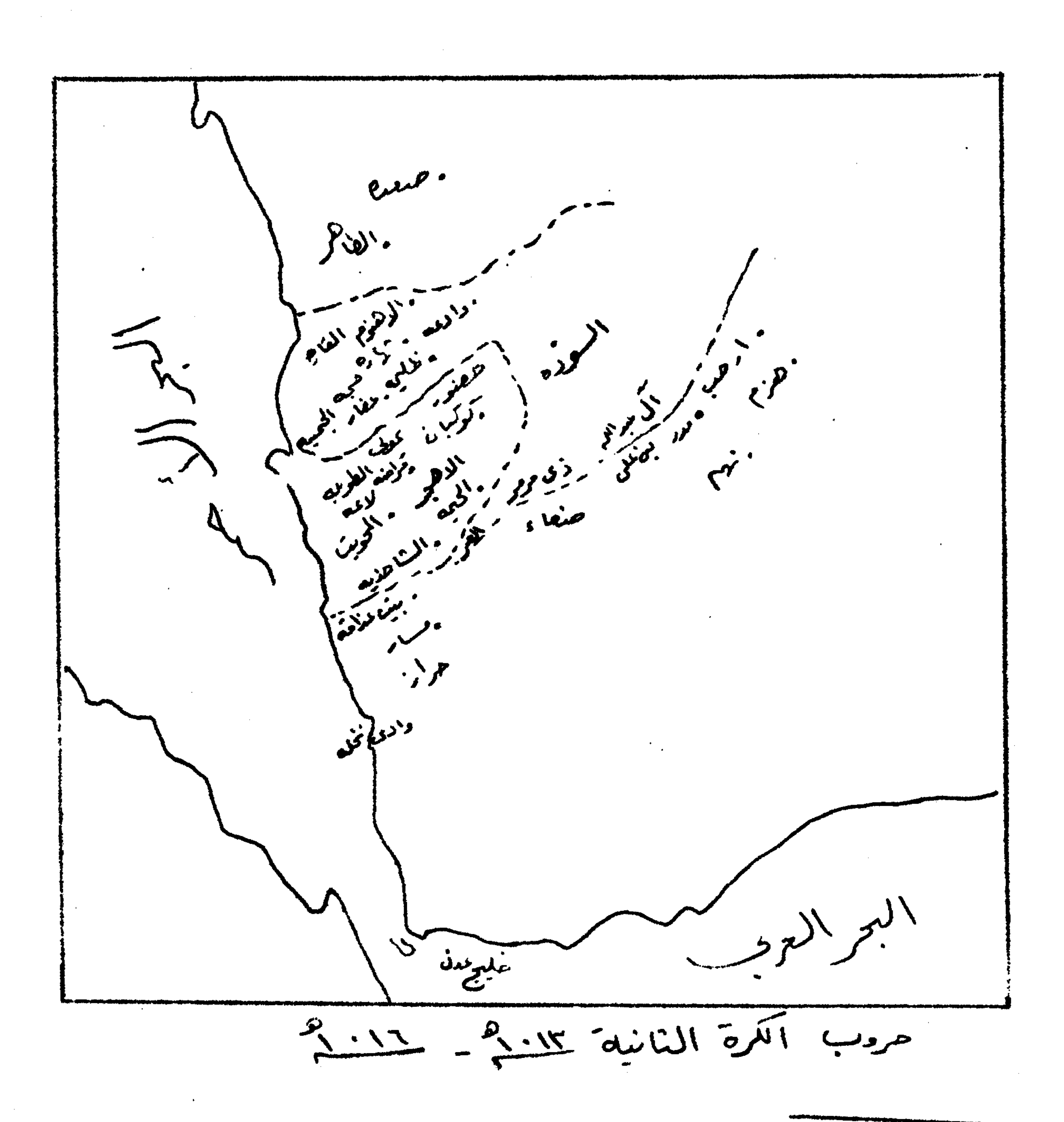
كذلك استولى مطهر بن عبد الرحمن على بلاد شطب وغربان ، ودخل مدينة السودة قهرا ، وقتل جماعة منها ، وحاصر حصن قرن الباغي وفيه حسين ابن المعافا حصارا شديدا ، حتى أشرف على الهلاك ، لكن حدث خلاف بين مطهر وأخيه عبد الرحيم جعله يترك حصار السودة ، فخرج ابن المعافا من السودة ، وفتح بلاد شطب وسلم هو وأولاده من الوقوع في يد عبد الرحيم ، فتقدم

---

(١) الشرفي - اللآلئ المضيئة ص ٢٠٠

(٢) عولى ، الجميمة - كلها حصون بالقرب من مسور .

(٣) الشرفي - اللآلئ المضيئة ص ٢٠١



حروب الكرة الثانية ١٠١٣هـ - ١٠١٦هـ

قراض/حصن

عبد الرحيم الى السودة بعساكره واستدعى أصحاب الإمام ، منهم الفقيه على بن محمد الشهارى فتقدموا جميعا إلى السودة ، وقصدوا ابن المعافا الذى لاقى هزيمة منكرة هو وأصحابه ، واستولى عبد الرحيم على السودة .

بعد ذلك استطاع الإمام أن يمد نفوذه على بلاد الظاهر جميعها ، وبلاد ذئبان وبنى عليّ ، وعيال عبد الله ، وبعض بلاد نهم القريبة من صنعاء ، ولم يبق فى يد العثمانيين الا الرجو وهزم وما حولها ، وكانت جنود العثمانيين فى هذه الاماكن وأصحاب الإمام فى اطراف البلاد ، ووقعت بين الطائفتين حروب كثيرة ، وبقى الأمر كذلك مدة ، وصبرت قبائل تلك الجهات الذين فى جانب الإمام صبرا عظيما ، حتى ملوا هذه الحروب والفتن لما أصابهم من تخريب بيوتهم ، ووصل جنود العثمانيين إلى قرية مُدُر وحاصروا أصحاب الإمام فيها ، وانتهى أمرهم بأخذ تلك القرية وما حولها ، فرجع أصحاب الامام إلى الظاهر ، واستولى العثمانيون بعد هذه الحروب على أكثر البلاد التى أخذها الإمام فى تلك الجهات ، وظلت الحال على ذلك إلى سنة ست عشرة وألف ١٠١٦هـ = ١٦٠٩م [1] .

أوضحنا أن الإمام استطاع أن يمد نفوذه الى أكثر البلاد الشمالية بمساعدة عبد الرحيم وأصحابه ، مما أقلق سنان وأرهبه ، فاشتد غضبه على من فى السجون من الرهائن والأسرى ، من الرجال والنساء والصبيان ، فضيق عليهم أشد التضييق حتى هلك أكثرهم [2] .

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٧٤ ، ١٧٥

(٢) يحيى بن الحسين ، غاية الامانى ص ٧٩٠

في ذلك الوقت كانت شهارة في يد عبد الله بن المعافا ، بعد أن خرج الإمام منها في النهضة الأولى ، فتركها له العثمانيون على أن يكون تابعا لهم ، مع تعيين فرقة من الجيش عليها أغا من العثمانيين ، وشيخ من العرب هو الشيخ ناصر بن الأبيض ، وآخران من مشايخ حاشد وبكيل ، وضموا اليهم نحوا من مائتي نفر لحفظها . وبدأوا في تعميرها ، وأصلحوا مدرجها الكبير ، وأكثروا فيها المؤن ، وعين عبد الله بن المعافا أخاه ابراهيم في الهجر مع فرقة ليحفظوها ، وبقي هو في السودة ، وكان عبد الرحيم بعد انضمامه إلى الإمام القاسم ، قد أخذ يفتح البلاد طولا وعرضا باسم الإمام ، كما أشرنا ، ويدعوا له على المنابر ، والإمام يكاتب الناس باجابته ويأمرهم بمواصلة مناصرته ، أرسل أخاه المطهر بن عبد الرحمن الى إبرق ظُليمه ، فافتتحها ، وكذلك بيت بن علا ، ثم أرسل من حاصر شهارة بمن معه من عسكر عبد الرحيم ، وكذلك السودة ، وطال الحصار عليهما ، ولم يستطيع بن المعافا تخليصها من مطهر بن عبد الرحمن فأرسل بن المعافا الى الإمام سرا ، انه يريد تسليم شهارة له لتخوفه من عبد الرحيم ، فان عبد الرحيم كان يقول " لئن ظفرت بابن المعافا ليكون من المثلة التي لا يفعلها الا هو "[1] وكذلك أهل الأهنوم كانوا لا يحبون عبد الرحيم لما يتميز به من الغلظة والقسوة ، فقد وصفه الشرفي في مخطوطته بقوله : " كان عبد الرحيم سيء الطبع سريع البادرة ، طولا ، عظيم السطوة لا يراعي حقا في الأغلب ... وان الصديق والعدو كانا بمنزلة واحدة في الخوف منه ، مع عدم وفائه بالعهود واستهانته بها "[2] ، لذلك خافت قبائل الأهنوم أن تسلم

---

(١) الجرموزي - النبذة المشيرة ص ١٦٤

(٢) الشرفي - اللآلئ المضيئة ص ٢٠١

عبد الرحيم شهارة خوفا من انتقامه منهم واذلالهم ،فلما طلب عبد الله بن المعافا من الإمام الحضور لتسليمه شهارة كان يضمر في نفسه شيئا لكي يخلص شهارة من وقوعها في يد عبد الرحيم ، فكان يرى أن حضور الإمام سوف يستغرق وقتا حتى يتم ، وفي هذه المدة تكون قد وصلته نجدة من سنان باشا تساعده على رفع الحصار عن شهارة ،ولكن الإمام كان أسرع مما يتصور ابن المعافا ،فأرسل في الحال جماعة من الاعيان لمعاونة مطهر بن عبد الرحمن ،وأرسل أحد أصحابه واليا إلى عُذر ، كما أرسل ولده الحسن ،وتقدم الإمام إلى شهارة ، فلما علم ابن المعافا بمقدمه دخل شهارة بمن معه من عسكر العثمانيين وكانت شهارة تعاني من قلة المؤن لطول الحصار عليها ،وبدخول ابن المعافا مع ما معه من العسكر، زاد من هذه الشدة ،ومن قلة المؤن أكثر فأكثر حتى قيل عنهم "" انهم أكلوا الكلاب ولحوم الدواب ، وبلغت الوقية الملح ثلاث كبار ""[1] وكان ذلك من أهم الأسباب التي أدت إلى تسليم شهارة للإمام ،ولما وصل الإمام اليها خرج إليه جميع العسكر ، فأمنهم على أنفسهم ،وجمع سلاحهم ،وأخذ عليهم عهدا ، ألا يعودوا إلى حربه مرة ثانية ، فعاهدوه على ذلك ، وكان تسليم شهارة إلى الامام في شهر شعبان سنة ١٠١٥هـ = ١٦٠٧ م حيث استمر حصارها أكثر من سنة .[2]

كان تسليم شهارة للإمام نصرا عظيما ،لما لها من منزلة عند الإمام ، فهو

---

(١) الجرموزي ـ النبذة المشيرة ص ١٦٥
(٢) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح ص ٨٦

محب لها ولأهلها ، وقد فتحها الله عليه بدون قتال ، وكانت فرحة الإمام وأصحابه بذلك عظيمة ، واجتمع أهل شهارة على الولائم تعبيرا عن فرحتهم بمقدم الإمام إليهم بدلا من أن يتسلمها عبد الرحيم ، وقد قيل الكثير من الشعر تعبيرا عن هذا النصر العظيم ، ومما قيل :

هبنا بهذا الفتح يابن محمد ... وحمدا لمن أولاك سؤلى ومقصدلى

على بعد عهد فى الزمان وموعد ... وبعد إياس من ولى ومعتدى

وثبت إلى العلياء بصدق عزيمة ... فنلت الثناء والنصر والفتح عن يدى (١)

خرج الجميع إلى الإمام فأطلق سراحهم وأمنهم الا ابراهيم بن المعافا ، فقد اعتقله الإمام فى شهارة وشدد عليه فى الحراسة لأنه كان يريده رهينة عنده ليستطيع أن يفدى به ولديه المأسورين فى كوكبان ، محمد وأحمد ، منذ حصار شهارة سنة ١٠٠٩ هـ ، لكن ابراهيم ابن المعافا استطاع الفرار من شهارة بمساعدة بعض أهلها الموالين له ، وأخفوه فى بعض الأودية ، فعلم الإمام بذلك فأغار على ما يجاور شهارة ووصل الى صور من أعمال شهارة الفيش وأمر الناس بالتفتيش عنه فى تلك الأودية ، وتظاهر أنه لا يعلم مكانه وبأنه هو الذى هرب بنفسه ، كى لا يثير القلاقل والفتن فى شهارة ويربى العداوات بينه وبين أحد فيها ، وكان هذا من حسن صنيع الإمام وإحسانه معاملة أهالى البلاد التى يفتحها (٢) ، وعهد إلى المفتشين بأنهم اذا وجدوه عظموه وعاملوه معاملة حسنة ، فلما وجدوه طلعوا به

---

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٦٥

(٢) " " " ص ١٦٧

إلى الامام فأحسن معاملته ، أما شهارة فكانت تعانى من قلة المؤن ، وارتفاع الأسعار لطول مدة الحصار كما ذكرت وكان اصحاب الإمام لا يأكلون الا العنب أو من النذور والعطايا من الأهالى ، وجمع الإمام مشايخ الأهنوم وطلب منهم طعاما لمن يحفظ شهارة ، فأرسل المشايخ نحو ثلاثين زيديا يطوفون فى البلاد لجمع الامداد حتى اجتمع قدر عظيم من الأقوات ، جعلت لمن يحفظ حصن شهارة .

لما علم عبد الرحيم بتسليم شهارة للإمام اشتد غضبه على أخيه المطهر ، وعزله عما كان تحت يده ، فلما تيقن المطهر بعزله رفع الحصار عن السودة التى كان بها عبد الله بن المعافا (١) ، وكان ذلك سببا فى انحلال قوة عبد الرحيم .

خاف المطهر سوء المصير الذى سوف يلقاه من أخيه جزاء عمله فكاتب العثمانيين سرا ، بأنهم اذا جعلوه أميرا على شهارة وبلاد الشرف كان تابعا لهم ويدخل فى خدمتهم ، فوعدوه بذلك ، وأرسل جنوده إلى بيت ابن علا ، كما أرسل فرقة من جنوده لحراسة طريق حجة خوفا من أن يغزوه أخوه منها ، فقلت بذلك جنوده المحاصرين لشهارة ، فكان ذلك من أهم الأسباب التى مكنت الإمام من دخول شهارة دون عناء ، لكن مطهر بن عبد الرحمن تيقن من عدم مساعدة العثمانيين له ، وانهم لا يوفون بعهدهم ، وهو خائف من أخيه ، فأرسل إلى جنوده بترك ساحة القتال ليصلوا إليه ليحتمى بهم من العثمانيين وأخيه ، ووقف

---

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح ، ص ٨٦

الجند ومطهر فى مكان يسمى المسارحه ، ووقف العثمانيون فى الجهة الأخرى من نفس المكان ، بينما كان ابن المعافا فى السودة ، وكانت أصواتهم المرتفعة تسمع بوضوح من شدة الاختلاط والكثرة ، فخاف أصحاب الامام من هجومهم على شهارة وهم قلة ، وقد تفرقت أكثر القبائل عنهم لعدم توفر ما يأكلون فى شهارة .

لكن النزاع حدث فيها بينهم وتفرق شملهم وبقيت شهارة فى يد الإمام ، وخرج منها الإمام بعد أن ولى عليها من يحفظها ، وأقام الجنود ليحفظوا أطراف البلاد ممن فى السودة ، أعنى من عبد الله بن المعافا والعثمانيين ، ووصل الإمام إلى ظليمه وولى عليها ابنه الحسن ، ثم عاد هو إلى وادعة لتجهيز السرايا إلى الشمال والشرق وبلاد الحيمة وجهات اليمن (١) .

لما علم عبد الرحيم بتسليم شهارة للإمام ، ورأى ما أحرزه الامام من انتصارات ، وقعت فى قلبه الغيرة والتكبر ، وأصبح ينشر بين الناس أن الإمام لا رأى له ، وانه لولا قيامه معه لما فتح الإمام أى بلد ، وأنه كان يبيت النية للغدر بالإمام بعد أن يفتح البلاد باسمه ، وكان عبد الرحيم يطمع فى أن يأخذ شهارة ثم كوكبان والحيمة ، ثم يغدر بالإمام ويأخوانه الذين ساعدوه فى فتح تلك الجهات ، فلما علم بتسليم شهارة اضطربت أحواله فكان تارة يخطب للإمام وتارة يثور ويغضب ، فأرسل له الإمام حاجبه المسمى البواب ليبشره بما فتح الله عليه من البلاد طمعا فى أن يهدىء من غضبه ويكسبه إلى جانبه فلما وصل إليه

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٦٧

الحاجب حاول عبد الرحيم قتله ،[1] وبذلك تيقن الامام من سوء نية عبد الرحيم.

في هذه الأثناء علم الباشا سنان بعزله عن اليمن فخاف أن يخرج والفتنة في أثره ، وأنه يخشى وثوب الإمام أو عبد الرحيم على صنعا في أثناء تغير الولاة ، واذا حدثت مثل هذه الفتنة في اليمن تكون عاقبتها خطيرة ،لذلك ارسل سنان باشا الحاج التاجر أحمد الوادي للوساطة عند الإمام لطلب الصلح لمدة سنة أو أكثر ،لكن الإمام استغرب طلب سنان لما له من السطوة والقوة والبغض للإمام ،ولما وجده منه أثناء مناهضته منذ ظهور دعوته ، فظن الامام الظنون في سنان والحاج أحمد الوادي ، وخاف أن تكون خدعة من سنان باشا ،فأرسل إلى القاضي علي بن أحمد بن أبي الرجال يستشيره في الأمر ويطلب منه تيقن الخبر من الأمير علي بن مطهر بن الشويع ،وكتب اليه "" وصل الحاج أحمد الوادي من عند هذا الطاغية العظيم يطلب صلحا ولا عرفت السبب الموجب لطلبه مع ضعفنا عندهم وقوتهم ،واستظهارهم علينا ،وهل يريدون معرفة حالنا أو هو حق وصدق فهو المحبوب المطلوب ""[2] ، وتمهل الإمام حتى علم أن طلب الصلح صحيح ،ففرح بذلك وعقد الصلح لمدة سنة بينه وبين سنان بواسطة الحاج أحمد الوادي.

---

(١) الجرموزي ـ النبذة المشيرة ص ١٨٠

(٢) "" "" "" ص ١٧٨

أراد الامام أن يشمل عبد الرحيم هذا الصلح لكن عبد الرحيم رفض ، واتهم الإمام بالعجز لقبوله هذا الصلح ، فتركه الإمام وشأنه مع العثمانيين ، وعقد هو الصلح وحده ، على أن يكون للإمام ما تحت يده من البلاد المفتوحة ، ومعنى عقد الصلح هذا أنه اعتراف صريح من الدولة العثمانية بالامام القاسم بعد ما أضنتها الحروب والفتن معه ، ولا ننسى ما قد عرضه سنان على الإمام من صلح قبيل توليه ولاية اليمن رغم ما يتمتع به سنان من القوة والإمام من الضعف بالنسبة لقوة الدولة العثمانية فى ذلك الوقت ، فلما علم العثمانيون بترك عبد الرحيم للامام وخروجه عليه ، جمعوا جنودهم للحرب ضده ، واستمرت الحروب بين الطرفين أربع سنوات ، حتى هلك معظم جند عبد الرحيم ، وقد قيل "" انما موضع فى بلاده كلها الا وسال عليه الدم "" .(١)

وقتل عبد الرحيم أصحابه الذين اشتركوا مع مطهر فى رفع حصار السودة وتركوا الجهاد ، ومكنوا ابن المعافا من دخولها سلما ، وكان عبد الرحيم كارها له ، وأما مطهر فانه استجار بالامام وترك أخاه يتجرع من حرب العثمانيين ،(٢) وضعف عبد الرحيم بعد تفرق أخوانه عنه بسبب سوء معاملته وقسوته عليهم ، ومن ثم كان هلاكه كما سيأتى فى الفصل الثالث .

-•-

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٨٠

(٢) تاريخ دولة الترك ص ١٤ ـ المؤلف مجهول

الفصل الثالث

صلح ١٠١٦هـ ونتائجه

أ - سياسة جعفر باشا

ب - صلح ١٠١٦ هـ ، استقرار الإمام فى شهارة

جـ - تفرغ جعفر باشا للأمير عبد الرحيم بن عبد الرحمن

د - أسر عبد الرحيم ونفيه ١٠١٨ هـ

فى التاسع عشر من جمادى الأولى من سنة ١٠١٦هـ = ١٦٠٨م وصل جعفر باشا واليا على اليمن ،بعد عزل سنان باشا [(١)] ،الذى كان قد قرر الصلح مع الامام القاسم قبيل رحيله ، كما ذكرت فى الفصل الثانى ،مع أنه كان قد اتصف بالقسوة والشدة والجور حتى قيل "كان اليمن مع سنان وعبد الرحيم كالنار" [(٢)] ، وفى ذلك قال الفقيه عبد الله بن داعر " ان الباشا سنان أساء السيرة فى اليمن وعامل أهله بالاحن ،ورماهم بالمحن ،وتوصل إلى أخذ أموالهم الجليلة بكل حيلة ،حتى لقد بلغ أهل الأموال فى كتم ما بأيديهم منها بكل حال" [(٣)] .

وكان سنان قبل خروجه من صنعاء ، قد قتل الأمير حسين الدفتردار فى ديوان القصر ، حتى لا يفشى المظالم التى ارتكبها فى حق أهل اليمن فيرفعها إلى السلطان ، أو الوالى الجديد جعفر باشا لذا بادر فى قتله .

وقيل ان سبب قدوم جعفر وعزل سنان ، أنه قد شكا أعيان أهل اليمن مرارا إلى مسامع السلطان ما يفعله سنان ،ولكن وزير السلطان الأمير درويش كانت بينه وبين سنان مودة ،فكتم عن السلطان هذه الشكاوى ،ثم حدثت بين السلطان ووزيره درويش مخالفة ،فقتله ،فوجدوا هذه الرقاع المتضمنة الشكاوى ، فبادر السلطان بارسال جعفر باشا إلى اليمن بدلا من سنان باشا .

---

(١) المحبى - خلاصة الاثر ج ١ ص ٤٨٥
(٢) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٨١
(٣) يحيى بن الحسين - غاية الامانى ص ٧٩٢

ويرجع السبب فى عدم معرفة السلطان بأمر اليمن ومايحدث فيه من الظلم والجور بالأهالى ،بُعد اليمن عن مركز الدولة العثمانية فى الأستانة ،وكان من الصعب معرفة أحوال أهله ومشاكلهم .

وكان سنان قد لجأ إلى هذه السياسة لاخضاع اليمن للسيطرة العثمانية ، وقد نجح فى تحقيق غرضه من وراء استعمال القوة ، غير أن هذا النجاح كان مؤقتا ،وسرعان ما انقلب إلى اضطراب وفوضى .

لذلك ترك سنان باشا اليمن وهو ملتهب بالحروب والاضطرابات ،فكان على الوالى الجديد جعفر باشا مواجهة ذلك عند بداية ولايته ، فكان من الحكمة أن يغير سياسة سلفه سنان باشا ليستطيع أن يمسك بزمام الأمور فى اليمن ، ولذلك أظهر العدل بين رعايا اليمن لتهدئة الأحوال ،وتخفيف حدة الاضطرابات، من ذلك أن أهل زبيد شكوا إليه ما نالهم من الجور الشديد والظلم من سنان ، وانه جعل أموالهم أوقافا فرد جعفر تلك المظالم وأمر بقتل القاضى عمر أفندى صاحب المخا لتواطئه مع سنان ضد أهل البلاد .[1]

وكان الجباة يحصلون الأموال المقررة فى سجلات الدولة من أصحاب النخيل أو من ذريتهم كما هى ، بغض النظر عما اذا كان هذا النخيل مازال قائما أم لا،

---

(١) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٤٩

أم أنه مثمر أو غير مثمر ، فأمر جعفر باشا باحصاء النخيل المثمر سنويا ، لتكون الضرائب مطابقة للواقع ، كما أنه وجد ظاهرة تجميد الضرائب على البقر في وادي زبيد كما كانت مجمدة على النخيل ، فكانت الضرائب تؤخذ على عدد رؤوس الأبقار سواء الحية منها أو الميتة ،أي على ما كانت عليها وقت احصائها ،وكان بعض الأهالي أو ورثتهم قد اضطروا إلى احتراف المهن المختلفة لتسديد الأموال المقررة عليهم حسب ما هو مسجل في دفاتر الدولة "فأذهب عنهم جعفر باشا هذه المظلمة المطلوبة على المفقود ، ولم يبق عليهم الطلب الا فيما هو موجود فهذه صدقة باقية" (١)

كانت ازالة هذه المظلمة عن الأهالي ذات وقع كبير ، لما كانوا يعانونه من الفقر الاقتصادي للبلاد من جهة ،بالاضافة إلى الخسائر التي كانوا يتعرضون لها بسبب الآفات الزراعية كالجراد مثلا أو انقطاع الأمطار ، أو بسبب قطع الأشجار لاستعمالها في البناء ،أو أن تيبس الأشجار ذات النفع الاقتصادي ، كأشجار البن مثلا ، ففي جبل صبرة ـ جنوب اليمن ـ كانت أشجار البن قد يبست وقطعها أصحابها ، لعدم نفعها ،فقل بذلك المحصول ،وقد تعرضت الأراضي الزراعية في نفس هذه المنطقة للحروب المتتالية في سنة ١٠٠٦هـ ، بسبب هجوم أهل الحجرية المتكرر عليها لمناهضة العثمانيين ، ففي أثناء

---

(١) الموزعي ـ الاحسان في دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٥٢

هذه الحروب أخذ أهل الحجرية فى قطع أشجار البن ، وحرقوا جذوعها ، فتلفت بذلك الأراضى الزراعية ، وقل نفعها الاقتصادى وتعرض أهلها للفقر والدمار والتشرد ، بسبب ذلك لأن للدولة كانت تأخذ منهم خراجا ثابتا بصرف النظر عن جودة المحصول أو خرابه .

فلما جاء جعفر باشا أزال عنهم هذه الغمة ، وأمر بأن يمر وقت ثمرة البن فى جبل صبره مباشرون عارفون بقلة البن لتقديره ، مع كاتب من قبل الكاشف ومندوب شرعى من قبل قاضى تعز يكون محل الثقة عارفا بحق الدولة وحق الرعية معا ، ويقدرون ماهو موجود من البن ، ويأخذون ما للدولة ، ويقرروا بذلك فى سجلات ودفاتر خصصت لذلك " واستمر الحال على هذا المنوال يوجد فيه الموجود ولا يطالبون بالمفقود " (١) .

وقد أدرك جعفر باشا أن رضاء اليمنيين على الوالى العثمانى أو سخطهم عليه ، انما يتوقف أساسا على نجاحه أو فشله فى النواحى الادارية والمالية ، فعمل على كسب الأهالى إلى جانبه بالقضاء على المظالم المالية السائدة قبيل ولايته ، وذلك ، بأن ربط الضرائب بالثروة الحقيقية للأفراد ، ومنع من تجميدها رغم تغير ظروف هؤلاء المالية .

وقد عمد جعفر باشا كذلك إلى تقريب الفقهاء والعلماء على اختلاف

---

(١) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٥٢

مذاهبهم إليه ، واجراء المناقشات الطويلة معهم ،وذلك لاذابة الفوارق المذهبية ولتقريب وجهات النظر في المسائل السياسية والدينية .

فقد اشتهر جعفر باشا بعلمه وتفقهه في الدين ،وتعظيمه للعلماء والأشراف ومعرفته بحقوقهم ، لأنه كان على قدر كبير من المعرفة بالعلوم الشرعية والعقلية وكان شاعرا مجيدا [١] ، وقد ذكر المحبي في كتابه " انه قد ذكره الامام الطبري في تاريخه وقال : سمعت من لفظ والدى قال تباحثت أنا واياه - جعفر باشا - في خمس علوم ،التفسير والحديث ،والمعاني ، والبيان ،والقراءات فوجدته في كل منها كاملا " . [٢]

كما ذكره محمد بن كاني الرومي في تاريخه " كان جامعا بين محاسن الخصال ،ومراتب الكمال ، وكان عالما عاملا ،وفيه من الديانة والتهجد ماهو كثير على أمثاله ، وكان خليقا بكل وصف حسن ، الا أنه كان يحب الفخر وفيه من التيه شيء لطيف . . .ولو أ من سفك الدماء في آخر مجيئه إلى اليمن لكان ممن ملك القلوب وهو معذور في هذا الأمر " . [٣]

لذا نجده قد قرب إليه بعض الفقهاء الزيديين المعتدلين ،وأحسن إليهم ، مثل السيد محمد بن عز الدين المؤيدى المعروف بالمفتى ، والسيد محمد الحوثي والسيد الحسن بن شمس الدين بن جحاف وغيرهم ، وقد ناقشهم في أمور

---

(١) الكبسى - اللطائف السنية ص ١٢٧
(٢) المحبى - خلاصة الاثر جـ ١ ص ٤٨٥
(٣) نفس المرجع والصفحة

فقهية عديدة حتى أظهر لهم "أن الخلاف انما هو لفظي فيما بينهم "[1] وذلك يرجع لقدرته على المناقشة وغزارة علمه ، اذ يعتبر ممن يهتمون بنشر العلم حتى قيل عنه انه هو الذى "أخرج تفسير ابن السعود فنسخ من عدة نسخ وانتشر في اليمن وظهر "[2] .

وكان هذا التفسير لم يعرف من قبل ، اذ كان جعفر باشا يورد على علماء صنعاء مباحث من أبى السعود لم يعرفوها ، حتى حملهم ذلك على الرغبة في الكتابة والتحصيل .

وبهذه الطريقة جذب نحوه العلماء والفقهاء ليكونوا في جانبه بدلا من أن يكونوا ضده ، لما لهؤلاء العلماء من تأثير على الأهالي وخاصة أهل الجبال الشماليين ، لما لهذا الجانب من أعظم الأثر في نفس الجبلي أو الصحراوى ، لذا كانت خطة جعفر باشا ذكية في مس هذا الجانب الحساس ، لكل هذا ،

---

(١) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٥٢

(٢) نفس المرجع والصفحة .

وتفسير أبو السعود نسبه إلى ابو السعود بن محمد بن العماد الحنفي ٩٨٨ - ٩٨٢ هـ من علماء العثمانيين المستعربين ، كان مفسرا وشاعرا ، تقلد القضاء ، وأضيف إليه الافتاء وكتابه في التفسير هذا اسمه : " ارشاد العقل السليم في مزايا الكتاب الكريم "

كانت الفترة التي تولى فيها جعفر باشا فترة هادئة بفضل السياسة التي استخدمها لتنفيذ أغراضه في اليمن وتهدئة أحواله ، وخاصة أنه عقد مع الإمام القاسم صلحا لمدة عشر سنوات ، وقضى على عبد الرحيم بن عبد الرحمن كما سنفصل ذلك فيما هو آت .

وقد وصف أحد المعاصرين حال اليمن في فترة ولاية جعفر باشا بقوله " انقادت له الأرض بالطول والعرض ، وكان في أيامه اليمن كله جنة عدن لما حل في قلوب أهله من الأمان والأمن " (١)

ونحن نرى هنا أن سياسة جعفر باشا متمثلة في جانبين : الأول رفع المظالم المالية عن الأهالي ، والثاني الجانب العلمي لفئة واحدة فقط دون سائر الأهالي وهي فئة العلماء والفقهاء ، ولم ينظر جعفر باشا ولا غيره من الولاة العثمانيين المصلحين في اليمن إلى جوانب أخرى كتطوير الزراعة مثلا ، أو الصناعة أو التجارة ورفع شأنها ، أو تقديم الخدمات العامة للأهالي ، مثل تسهيل طرق المواصلات ، والبريد أو بناء المدارس والمستشفيات وغيرها ، اذ أن هذه الأعمال تركت على أنها من مهمة الأهالي أنفسهم وفقا لتقاليدهم وأوضاعهم الخاصة .

أما أهتمام الولاة العثمانيين بهذه الأمور ان اهتموا بها فانما يكون من أجل زيادة موارد الاهالي في البلاد ، لزيادة موارد الدولة ، أو من أجل رغبة

---

(١) الموزعي ـ الاحسان ودخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٤٧

بعض الحكام فى تخليد ذكراهم باقامة المنشآت الدينية كالمساجد أو بناء القلاع أو الحصون وكذلك اهتمامهم بمظاهر الحياة الدينية والاجتماعية العامة .

كذلك لم نجد أى تغير فى الأوضاع القبلية فى اليمن التى تحتاج إلى تغير حضارى كبير، لأن قدرة الولاة وامكانيتهم محدودة ، اذ لا يمكن تحقيق هذا التغير فى اثناء حكم معين ، أو فى خلال مرحلة تاريخية معينة وذلك لأنه يحتاج إلى امكانيات كبيرة وفترات طويلة ، فتغير هذه النظم أو الأوضاع لا يتحقق الا اذا تغيرت ظروف معيشة القبائل ، ولا يتأتى هذا الا عن طريق نشر التعليم بين الأهالى ، أو عن طريق امتصاص طاقتهم وجهودهم فى القيام بأعمال انشائية وعمرانية كبيرة ، زراعية كانت أم صناعية خاصة أن أرض اليمن خصبة وغنية بالثروات المعدنية ، وتنفيذ هذه الخطوة الحضارية لا يتم الا عن طريق حكومة قوية مستقرة ، ووالى قوى يستطيع أن يتعاون مع هذه القبائل ليتغلب على ظروف بيئتها الطبيعية الصعبة التى يغلب عليها الطابع الجبلى أو الصحراوى .

وبطبيعة الحال لم يكن فى مقدور الدولة فى ذلك الوقت القيام بمثل هذه الأعمال لأنه هدف العثمانيين من وراء حكمهم لليمن فى ذلك الوقت لم يكن لاحداث تغير حقيقى فى أوضاع البلاد الاجتماعية .

ولذلك لم تمتد جهود جعفر باشا لاحداث مثل هذه التغييرات، وانما اكتفى بهذا القدر الذى أشرنا اليه .

أما عن صلح سنة ١٠١٦ هـ واستقرار الإمام فى شهارة ، فقد اتسعت هوة الخلاف بين الإمام القاسم وعبد الرحيم ،وخاصة بعد أن عقد الإمام مع سنان باشا الصلح قبل رحيله ،وقد رغب الإمام القاسم فى أن يشمل صلحه مع العثمانيين عبد الرحيم ، لكن الأخير رفض واتهم الإمام بالضعف والعجز ، وكانت الوحشة بين عبد الرحيم وسنان ، لذلك نجد أنه بعد تولى جعفر باشا ولاية اليمن سارع عبد الرحيم بالاتصال به لاقامة علاقات ودية معه تتمثل فى صلح يعقد بينهم ، وأظهر له أن خلافه مع سنان باشا كان بسبب عداوة كانت بينهم بسبب الوشاة ، وأظهر منابذته ومخالفته للإمام ، وانه راغب فى عقد صلح معه ، سُر جعفر باشا لهذه المبادرة من جانب عبد الرحيم[1] لكن الأخير أرسل أخوه إلى كوكبان للقيام ببعض الأعمال العسكرية لتوسيع مناطق سيطرته أثناء مفاوضات عقد الصلح ، وكان ذلك سببا فى شك جعفر باشا فى صدق نية عبد الرحيم ،وزاد من هذا الشك أيضا أن جعفر باشا أرسل إليه أحد الفقهاء ليعرض عليه الصلح على أن يترك له ما تحت يده من البلاد ، وهو حين ذلك فى كوكبان ، فلما وصل الفقيه إليه أحسن استقباله ، وأظهر سروره بوصوله لما كان بين الفقيه وعبد الرحيم من مودة ،فلما علم أنه وصل لعقد الصلح واغماد سيف الفتنة اشتد غضبه ، وخرج إلى مكان يسمى حوره واركب الفقيه معه ثم صلبه على شجرة هناك فاستشاط جعفر باشا غيظا .[2]

---

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح ص ٨٧ ، الكبسى - اللطائف السنية ص ١٣٦

(٢) تاريخ دولة الترك ص ١٥ - المؤلف مجهول

قال الشرفي في مخطوطته " كان عبد الرحيم كتب إلى الباشا جعفر يريد منه أن يكون من جملتهم ، ويعطونه من البلاد ما فرضاه ، فوقع الخوض في ذلك مدة فلم يتهيئا بينهم اتفاق ، لخبث عقيدة الأمير عبد الرحيم وسوء أفعاله "(١)

ولم يتم عقد الصلح ولذلك رأى جعفر باشا أن فتح الحرب في جبهتين أمر صعب ، وأن الأولى أن يعقد صلحا مع الإمام القاسم ، اذ كان اشتعال الحروب ضد العثمانيين في المنطقة الشمالية من جانب الإمام القاسم وعبد الرحيم يغري جعفر باشا على عقد الصلح مع أحدهما ليتفرغ لمحاربة الآخر ، أو حتى مع كليهما لاطفاء نار هذه الحروب التي واجهته عند بداية توليه أمر اليمن ، ومادام جعفر باشا قد فشل في عقد صلح مع عبد الرحيم ، فقد كان ذلك دافعا قويا الى تقرب جعفر باشا من الإمام ، وعقد معه الصلح .

وقيل ان الباشا سنان قبل رحيله من صنعاء أشار على جعفر باشا بالصلح مع الامام ومتابعة عبد الرحيم .(٢)

وقد أجاب الإمام على جعفر باشا بالموافقة على الصلح لما رآه من المصلحة الظاهرة للأهالي ، وذلك لأن القبائل طلوا الفتنة وطول الحروب بسبب الخسائر التي خسروها في المال والأهل من جراء تلك الحروب ، كما أنه رأى أن كثيرا

---

(١) الشرفي - اللآلئ المضيئة ص ٢٠٥

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٩

من رجال القبائل كانوا يميلون لمن يدفع لهم أكثر من الأموال ، ونظرا لقوة الدولة العثمانية بالنسبة للإمام في ذلك الوقت ، فقد كانت أغلبية القبائل تميل إليهم بعد أن كانت في جانب الإمام ، وذلك راجع لحاجتهم إلى الأموال بسبب فقرهم ، بالاضافة إلى ميل أمراء آل شرف الدين للدولة العثمانية وتعاونهم معها ضد الإمام ، فكان الإمام بذلك يحارب في جبهتين متمثلة في الأمراء اليمنيين من آل شرف الدين والدولة العثمانية ، وكذلك ما ظهر من عبد الرحيم من كره للإمام والغدر به ، وخاصة عندما أرسل حاجبه شمس الدين البواب ، فأشعل عبد الرحيم النار لاحراقه .

كما رأى الإمام أن في عقده مصلحة كبيرة ، فهو بذلك يستطيع أن يخرج أولاده من أسرهم في كوكبان وكذلك باقي المأسورين والرهائن هناك .

فكل هذه الأسباب مجتمعة جعلت الإمام يبادر بالموافقة على الصلح ، وأرسل الإمام القاضي مجد الدين سعد الدين بن الحسين المسوري إلى صنعاء ليعقد الصلح مع جعفر باشا ، وعمل في سبيل عقد الصلح من جهة الدولة العثمانية من الامراء ، الامير عبد الله بن المعافا والحاج أحمد الوادي .

وبالفعل عقد الصلح في يوم الاثنين الحادي عشر من شهر ذي الحجة سنة ١٠١٦ هـ = ١٦٠٨ م لمدة عشر سنين .[1]

---

(١) المحبي - خلاصة الاثر جـ ١ ص ٤٨٥

كانت شروط الصلح التى وافق عليها كلا الطرفين هى : أن يبقى للامام ما تحت يديه من أقاليم المنطقة الشمالية وهى الأهنوم ، وعذر ، ووادعة وظليمة والعصيمات وشهارة ، وبرط ، والحيمة ، ورد له جعفر باشا حصن حميمة السعدا وبلادها وكانت تحت سيطرة العثمانيين ، [1] وأن يؤمن سكان المناطق من الجهتين، ويسمح لهم بحرية التنقل فى أى البلاد ، وان كان لأحد حق فى أحد الجانبين سمح له بالاتصال به ليأخذ كل ذى حق حقه .

كما وافق جعفر باشا كذلك على فك أسر أولاد الإمام محمد وأحمد من كوكبان وجميع أهلهم وأصحابهم ، وإطلاق من فى سجن صنعاء من الرهائن ، [2] واطلاق رهائن الحيمة ، وكان قد قبض على مجموعة منهم أيام الحرب مع سنان فى الكرة الثانية ، فى حروب الحَيْمَة الشهيرة التى مرّ ذكرها فى الفصل الثانى ، واشترط الإمام أن يبقى سلاح أهل الحَيْمَة معهم لمناصرتهم الإمام ، وقد وافق جعفر باشا على ذلك فيما ترجح لاسترضاء الإمام ولتهدئة الأوضاع فى شمال اليمن ، [3] ولما تم عقد الصلح بادر جعفر باشا بتنفيذ الشروط لتهدئة الحالة المضطربة فى اليمن ، وبدأ اطلاق سراح أولاد الإمام وأهلهم وأصحابهم من أسر كوكبان ، فيما بين شهر رجب وآخر رمضان سنة ١٠١٧هـ = ١٦٠٩م . [4]

---

(١) الشرفى ـ اللآلئ المضيئة ص ٢٠٩
(٢) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٥٠
(٣) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٨٢
(٤) الشرفى ـ اللآلئ المضيئة ص ٢٠٩

خريطة الصلح



الأقاليم التى نص عليها صلح ١٠١٦هـ وبقائها تحت يد الإمام القاسم

وقد خرج الجميع إلى شهارة مستقر حكمهم ، واستقرت بذلك أحوال الإمام وأولاده .

وكانت الأمور خلال الصلح على أحسن حال ، ولم يحدث أى منافرة بين الجانبين حتى نقض الصلح سنة ١٠٢١ هـ فى النهضة الثالثة كما سنفصل ذلك فى حينه .

والواقع ان هذا الصلح كان تتويجا لانتصارات الإمام القاسم عند نهاية الكرة الثانية ، وتثبيتا لأقدامه فى المنطقة الشمالية ، وذلك على عكس ما حدث له عند نهاية الكرة الأولى التى انتهت بسلب جميع ما استولى عليه من البلاد وعُرض للهزيمة مما جعله يلجأ إلى جبل برط للاختفاء به .

فقد استطاع الإمام فى نهاية الكرة الثانية أن يفرض وجوده على العثمانيين، وأن يجبرهم على الاعتراف به ، واعتراف العثمانيين بالإمام وموافقتهم على شروط الصلح يعتبر مظهرا من مظاهر ضعف الحكم العثمانى فى اليمن و خلخلة نظمه اذ يعتبر ذلك بداية نهاية الحكم العثمانى فى اليمن ، لان العثمانيين كانوا يحرصون على بقاء هذا الصلح لحاجتهم إليه ، فيعملون بدورهم على تهدئة الأحوال مع الأئمة سادة الشمال للتفرغ لحل مشاكلهم فى باقى أقاليم اليمن ، والحقيقة أن كلا من جعفر باشا والإمام القاسم كان فى حاجة إلى هذا الصلح لتنظيم شئونهما داخل أقاليمهما .

فالإمام قد أحرز عدة انتصارات بالفعل لكن هذه الانتصارات لم تكن

لولا انشغاله بحروبه مع عبد الرحيم [١] ، فكان على جعفر باشا التصدى له والقضاء عليه ، وكذلك دارت الحرب بين جعفر باشا والكتخدا عبد الله شلبى الذى أعلن تمرده عليه كما سنفصل ذلك فى الفصل الرابع ، بالاضافة الى تعدد الاضطرابات فى باقى اقليم اليمن ، مما كان يضعف فى نهاية الأمر من جانب العثمانيين ويقلل من هيبتهم .

وهكذا يمكن القول بأن هذا الصلح كان توطيدا وتدعيما لأقدام الإمام فى المنطقة الشمالية ، وقد شبه الجرموزى هذا الصلح بصلح الحديبية [٢] ، وسوف نحلل هذا التشبيه فى خاتمة الرسالة .

كذلك كانت الاضطرابات التى واجهت جعفر باشا سواء من جانب حاكم صعدة العثمانى أو من جانب عبد الرحيم على السواء بداية لامتداد سيطرة الإمام إلى الاقاليم الشمالية ، ثم إلى باقى أقاليم اليمن على عهد أولاده من بعد ، كما كان هذا الصلح فاتحة خير على الإمام ، فقد اتصل به كثير من الناس وناصروا دعوته ، وانضموا إليه بالالاف لأنهم آمنوا واطمأنوا بهذا الصلح . [٣]

وبعد عقد الصلح مع الإمام القاسم ركز جعفر باشا جهوده ضد عبد الرحيم ابن عبد الرحمن ، وخاصة بعد ما تيقن من سوء نيته ، عندما أرسل له رسوله لعقد الصلح معه ، فما كان من عبد الرحيم الا أن قتل الرسول ومثل به ، كما ذكرنا سابقا .

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٩٥
(٢) نفس المرجع ص ١٨٥
(٣) الشرفى ـ اللآلئ المضيئة ص ٢١٠

وكان صاحب كوكبان ، وهو الأمير اسماعيل بن احمد بن محمد بن شمس الدين ، كان يرسل لجعفر باشا باستمرار عن جميع الأعمال الجريئة التي يقوم بها عبد الرحيم ، وتعديه على بلاده ، فكانت تلك الشرارة التي اشعلت النار في الهشيم ، فانهارت أمور عبد الرحيم وتضعضعت أحواله بعد ذلك .

جهز الباشا جعفر جيوشه لمحاربته ، بعد ما اطمأن من جانب الإمام القاسم حيث عقد معه صلح سنة ١٠١٦هـ ، وفي يوم السبت ١٧ ربيع الثاني من سنة ١٠١٧هـ = ١٦٠٨م وجه جعفر باشا جنوده بقيادة عمر كخيا وجماعة من أهل كوكبان الى قلعة المشفق من بلاد مسور ، وكان عددهم يبلغ نحو ستة آلاف جندي ، وكان في مسور أحمد بن عبد الرحيم فهزم ، ثم دخل الجيش لاعه ، أما أحمد بن عبد الرحمن فخرج من مسور إلى هربه ، فقصده الأمير درويش ، ثم خرج عند أخيه عبد الرحيم في حَوْرَة ، وتشابك الجيشان فانهزم أحمد بن عبد الرحمن ورحل إلى حصن شمسان بني عكاب ، وكانت الحروب على أشدها والرمي بالبنادق من كل مكان ، وكان عبد الرحيم يثبت أصحابه ويقتل منهم من انهزم عن مركز الحرب ، مما جعلهم يخافون منه فيثبتون الثبات العظيم "حتى صار يضرب بهم المثل فيقال هذا من عسكر عبد الرحيم يمدحونه بذلك"[(١)] ، ولكن رغم ما أبداه جند عبد الرحيم من بسالة الا أنه قتل منهم عدد كبير ، وكان عبد الرحيم في ذلك الوقت في كوكبان ، فلما رأى شدة الحروب وقوة الجنود خرج إلى الذنوب ، حيث لم يبق في يده الا الذنوب وحصن كوكبان وحجه وحصن مَبْيَن .

---

(١) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٥٠

وفي تلك الأثناء أعلن من في كوكبان حجه خروجهم على عبدالرحيم ، وخضوعهم للعثمانيين ، وأرسلو العمر كخيا يطلبوا منه الأمان وتسليم حَجه له ، فأسرع عمر كخيا لاستلامها ،[1] ثم أرسل جعفر باشا المدافع الثقيلة لمحاصرة مَبْيَن ، فحاصروها وكان فيها أحمد بن عبد الرحمن وأخوه الأمير عبد الرحيم ، فلما ضاق به الحال وخاف أن تحيط به أيدى العثمانيين من كل مكان ، وكانت بلاد الشرف باقية تحت يده ، رأى أن يخرج إليها ، ويخلف أخاه محمد في حصون حجه ليستطيع النجاة اذا احتاج إلى الفرار وليتمكن كذلك من محاربة العثمانيين بفضل الامدادات من أهل البلاد التي مازالت خاضعة له ، وقد فكر عبد الرحيم في أن يلجأ للإمام القاسم لكي يتوسط له لدى العثمانيين ، أو أنه يتفق معه ليكونوا يدا واحدة لمحاربتهم ، فيتقوى بالإمام لعلمه بمحبة القبائل له ، فهو مسموع الكلام لديهم[2] ، لكن ذلك لم يتم لأن عبد الرحيم سبق وأن اتهم الإمام بالعجز عندما أراد أن يشركه في صلحه مع العثمانيين ، وطال الحصار على مَبْيَن ، فسلم أحمد بن عبد الرحيم الحصن للعثمانيين ، وطلب منهم الأمان فسيروه إلى صنعاء ، بعدما أخذوا جميع مافي حصن مَبْيَن من خزائن عبد الرحيم وأسلحته ونقوده وجميع الأثاث والكتب القيمة ، التي كانت من محاسن الكتب لدى عبد الرحيم ، ثم توجهوا إلى جهات الشرف لملاقاة عبد الرحيم ،[3] فلما وصل عبد الرحيم بلاد الشرف حيث خرج إليها ليلا متخفيا ، وكان أخوه محمد بن

---

(١) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح ص ٨٧

(٢) الشرفي ـ اللآلئ المضيئة ص ٢٠٩

(٣) نفس المصدر ص ٢٠٥

عبد الرحيم فى حصن المفتاح - أحد حصون بلاد الشرف - تنكر هذا لأخيه عبد الرحيم لسوء أفعاله معه ،فتوجه عبد الرحيم إلى حصن كحلان الشرف ، فلما بلغ جعفر باشا أن عبد الرحيم يتنقل من حصن إلى آخر ثار عليه وغضب ،فأرسل له فى الحال الأمير محمد بيك الكردى السردار بعساكر كثيرة لمحاربة عبد الرحيم[1] ، وفى نفس الوقت أرسل محمد بن عبد الرحمن إلى عمر كخيا يطلب منه الأمان ويسلمه حصن المفتاح ، فأسرع عمر كخيا فى الحال لاستلام الحصن فقابله الشيخ ناصر المحبشى بجميع قبائل الاحابشة وسلموه بلادهم، ثم تقدم بعساكره وتسلم حصن المفتاح[2] ، وسار عمر كخيا بمحمد بن عبد الرحمن إلى صنعاء ، ثم حاصروا عبد الرحيم فى حصن كحلان الشرف ومنعوا الداخل إليه والخارج منه[3] .

فلما رأى عبد الرحيم ذلك من اخوته وتنكرهم له بسبب سوء فعاله معهم، وقسوته مع القبائل الذين فضلوا الانضمام للعثمانيين عن الانضمام إليه ، خوفا من بطشه بهم . رأى ان يخرج من كحلان الشرف طالبا الأمان من جعفر باشا سنة ١٠١٨هـ = ١٦٠٩ م فخرج إلى الأمير محمد الكردى السردار، وطلب منه الأمان ، فأخرج له الأمير محمد مرسوما بالأمان من جعفر باشا ،ثم اتجهوا إلى صنعاء ، فلما قربوا منها كان فى استقباله الأمير عبد الله بن المعافا ،واختاره الباشا جعفر بالذات ليكون فى استقباله لما بينهما من العداوة ،وقد أرسله

---

(١) الموزعى - الاحسان ودخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٥٨
(٢) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٥٠
(٣) الكبسى - اللطائف السنية ص ١٢٦

جعفر باشا لاستقباله من أجل الشماتة بعبد الرحيم ، فلما وقعت عين عبد الرحيم عليه تغير وجهه وعرف ان الشر ينتظره ، فلما وصل صنعاء كان فى استقباله اخوته وكافة الأمراء والأغوات ، ولما قابله جعفر باشا وبخه على اعماله القبيحة ، وأمر أن يضعوه فى الدار الحمراء بصنعاء لحبسه فيها .[1]

استمرت الحروب بين جعفر باشا وعبد الرحيم مدة سنتين بعد عقد الصلح مع الإمام القاسم ضعف فيها حال عبد الرحيم وكان مصيره الهلاك .

وكان دخوله إلى الدار الحمراء يوم الأحد سادس ربيع الآخر سنة ١٠١٨ هـ = ١٦٠٩م وبقى فى الدار الحمراء لمدة سنتين ، وكان العثمانيون قد استولوا على جميع البلاد التى كانت تحت يده .

أما أحمد ومحمد أخا عبد الرحيم فقد جعل العثمانيون لكل منهما مرتبة الامارة اسما فقط بدون فعل ، إلى أن مات محمد بن عبد الرحمن فى شوال سنة ١٠٢٧هـ وكذلك أخوه أحمد بن عبد الرحمن[2] ، وفى شهر شعبان سنة ١٠٢٠ هـ أرسل جعفر باشا بعبد الرحيم إلى استانبول بصحبة أغا من أغواته ، فلما وصلوا هناك حبس فى القلعة المشهورة فى وسط استانبول المسماة يَدْىَقلُه فاجتمع هناك بأعمامه وأولادهم وأولاد مطهر بن شرف الدين .[3]

---

(١) الكبسى ـ اللطائف السنية ص ١٢٧
(٢) الشرفى ـ اللآلئ المضيئة ص ٢٠٩
(٣) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٥٩

بذلك زالت دولة عبد الرحيم ، وزالت دولة الإمام شرف الدين ولم يبق منها الا بنى شمس الدين فقط .

وكانت سيرة عبد الرحيم فى اليمن غير مرضية ، وأعماله قبيحة ،اشتهر بقسوته حتى فى معاملة أقرب الناس إليه وهم اخوته ، مما جعل أخوه محمد والشيخ ناصر المحبشى يدبرون له الحيلة حتى أدخلوه إلى حصن كحلان الشرف فتمكن منه العثمانيون ، فلم يملك غير تسليم نفسه ، كما أن له أخبار شنيعة فى مخالفة الشريعة الاسلامية منها شربه للخمر ،وقتله النفوس بغير حق ، فقد ضرب مرة عنق عبد مملوك له ، فقيل له ما السبب فى ذلك ، فقال لان عنقه طويلة تصلح لضربه .

وكذلك ما فعله بوالده ،فقد قتله وادعى أن العبد هو قاتله فقتل بذلك العبد ، وما فعله فى أولاد القحطانى وأمهم فقد علقها فى شجرة مع أولادها بحورة مكشوفة بسبب مسيرة القحطانى إلى محطة جعفر باشا فى بداية الحرب بينه وبين جعفر ،[1] وكذلك عرف بالغدر ودليلنا على ذلك ما فعله مع الإمام القاسم فتارة يدعوا له على المنابر ، وتارة يخرج عليه ، ويغدر به وينقلب عليه ، ويحاول قتل رسله إليه ،فتميزت شخصية عبد الرحيم بهذه الصفات القبيحة ، فهى شخصية

---

(١) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٥١

غريبة جلبت على نفسها المحن ، وحتى بعد خروجه من اليمن إلى استانبول لم يسلم العثمانيون من سوء أفعاله ،فقد حجزه السلطان مع بعض العساكر ، فدبر المكائد معهم وأتلف أكثرهم فأمر السلطان بقتله وقال "" لأن من يفعل هذه المكيدة العظيمة لا يؤمن مكائده ""(١).

---

(١) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٥١

الفصل الرابع

الحالة بعد عزل جعفر باشا سنة ١٠٢١ - سنة ١٠٢٩ هـ

النهضة الثالثة والرابعة

أ - عودة جعفر باشا للولاية بعد عزله وموت إبراهيم باشا وما أعقبها من تطورات ١٠٢١ هـ - ١٠٢٥ هـ (أسر الحسن بن الإمام - موقعة غارب أثلة - موقعة الشقاب)

ب - الوالي محمد باشا وسياسته ١٠٢٥ هـ

جـ - الصلح مع الإمام ١٠٢٨ هـ

د - وفاة الإمام القاسم ١٠٢٩ هـ

سبقت الاشارة في الفصل الثالث إلى أمير صعدة ونزعاته الاستقلالية ، وتصدى الباشا جعفر له ، فقد هزم جعفر باشا قوات هذا الأمير ،بعد صدام قصير ،وماكان من هذا الأمير الا أن جمع أمواله وغادر اليمن مع بعض أتباعه إلى بلاد الشام ،(١) ويبدو أن أمير صعدة كان ذا صلات وثيقة ببعض رجالات الدولة في الأستانة ، اذ قيل أن صدامه مع جعفر باشا كان أحد أسباب عزل جعفر باشا عن ولاية اليمن بعد ذلك بقليل .(٢)

فقد عزل جعفر باشا في سنة ١٠٢١هـ = ١٦١٢م وعين بدلا منه ابراهيم باشا الذي وصل اليمن في أول ربيع الأول سنة ١٠٢٢هـ = ١٦١٣م.(٣)

وقد زادت الاضطرابات في صنعاء بين صفوف العثمانيين عند عزل جعفر باشا ، فقد سارع عبد الله شلبي - كتخدا جعفر باشا بالانضمام الى الوالي الجديد ابراهيم باشا ، ولم يرحل مع جعفر باشا كما هي العادة ، ونادى في العسكر يطلب منهم الانضمام معه إلى ابراهيم باشا ، فلم يقبل أحد منهم ذلك ، فلما علم جعفر باشا بأمر عبد الله شلبي غضب وتعجب لحسن ظنه به ،(٤) فعين جعفر باشا كتخدا له آخر هو الأمير حيدر .

---

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح ج ٢ ص ٩٩
(٢) الجرموزي - النبذة المشيرة ص ١٧٢
(٣) الشرفي - اللآلئ المضيئة ص ٢١١
(٤) الموزعي - الاحسان في دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٦١

أما ابراهيم باشا فقد انشرح صدره بانضمام عبد الله شلبى إليه ، نظرا لمعرفة الأخير بشؤون اليمن ، وبذلك يمكنه الاستفادة من خبرته بشؤون البلاد ، فعينه واليا على صنعاء لتمهيد الأمور بها حتى وصوله إليها ، وأخذ شلبى يجهز جيشا لحرب الإمام ، وطوائف الزيدية ، خوفا من اغتنامهم فرصة تغيير الوالي والاستيلاء على البلاد ، لكن ابراهيم باشا أصيب بالحمى وهو بذمار، ومالبث أن وافته المنية في يوم الاثنين ٢٨ جمادى الأولى سنة ١٠٢٢هـ - ١٦١٣م (١) وقيل أنه مات مسموما ، وكانت مدة ولايته حوالى شهرين فقط .

أدت وفاة ابراهيم باشا إلى انفجار الأزمة بين جعفر باشا وعبد الله شلبى ، فقد عاد جعفر باشا من زبيد قاصدا صنعاء ، بناء على طلب طائفة الاصباحية (٢) ، الذين خرجوا مع ابراهيم باشا ، وكان قائداهم أحمد أغا وسليمان أغا ، فلما علم عبد الله شلبى بعودة جعفر باشا خاف منه لما سلف منه ، فهاج وماج وأخذ ينشر بين الأمراء والعسكر أن جعفر قد عزل ولا ولاية له فى اليمن ، والباشا ابراهيم قد جعله خليفته ، وأن مراده حفظ البلاد إلى أن يأتى وال جديد من الأستانة فخاف العسكر منه ، ووافقوه فى الظاهر بعد أن أخذ منهم العهد على امتثال أوامره ، ومنع عبد الله شلبى جعفر من دخول صنعاء وتجهز لحربه (٣) ،

---

(١) الكبسى ـ اللطائف السنية ص ١٢٨
(٢) الاصباحية ـ هى طائفة من الجند العثمانى ، ويبدو أن اللفظ محرف ، وأن المقصود به الاصباهية أو السباهية وهى طائفة الفرسان فى الجيش العثمانى .
(٣) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٥٢

وأرسل شلبى إلى الإمام يعرض عقد صلح معه على ألا يتعدى أصحاب الإمام المواضع التى هم فيها ، وذلك ليضمن جانب الامام .[1]

والواقع أن أكثر العسكر كانوا يميلون لجانب جعفر باشا لكونه أعلى مرتبة من عبد الله شلبى ، ورغم أن جعفر باشا كان قد أرسل الى عبد الله شلبى ، بموافقته على ابقائه فى منصبه حاكما لصنعاء ، فقد خاف الأخير انتقام جعفر باشا منه ، ورفض الاعتراف بولايته لليمن بعد عزله ، وقد اتخذ عبد الله شلبى موقفا معارضا صريحا لجعفر باشا أدى الى ظهور الانقسام بين صفوف العثمانيين ، اذ اقترح فى رده على خطاب جعفر باشا تقسيم اليمن بينهما ، على أن يكون له صنعاء وما يليها شمالا ، وأن تكون الأقاليم الممتدة من ذمار الى عدن جنوبا لجعفر باشا ،[2] ولما لم يوافق جعفر باشا على هذا التقسيم اتسعت هوة الخلاف بين الطرفين ، فأرسل جعفر باشا الأمير حيدر الى صنعاء ، فاجتمع بعسكر عبد الله شلبى سرا وأظهر لهم أمانا من جعفر باشا ، وأنه أولى بالولاية والطاعة ، فمال اليه أكثر العسكر ودارت بينهم الحرب ، فانهزم أصحاب شلبى ، وكان ذلك سببا فى انحياز باقى العسكر الى جعفر باشا ، وساروا اليه بذمار ، فقتل من الرؤساء جماعة منهم الفقيه على الشهارى الذى نكث العهد مع الإمام القاسم ، وسلم البعض الآخر من القتل ، ثم تقدم الأمير حيدر إلى صنعاء لحرب عبد الله شلبى ، ولما قرب منها وصلت اليه كتب الأمراء والجند بالموالاة لجعفر والتبرؤ من شلبى ، ثم

---

(١) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ٢١٧

(٢) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٦٤

خرجوا من الخندق الذى اختبأوا فيه ، وهؤلاء هم عبد الله بن المطهر وأخوه ابراهيم ، وعبد الله بن المعافا ، وصلاح المؤيدى ، ومحمد المؤيدى ، والأمير درويش وعلى بن الشويع ، والأمير أحمد الأخرم ، فأخذوا الأمان من حيدر لأنفسهم ولأهل صنعاء ، وفتحوا له الخندق على شرط عدم تخريب صنعاء أو الاضرار بأهلها ، فدخل أصحاب الأمير حيدر من الخندق ، فالتجأ شلبى وجماعة من أصحابه الى قصر صنعاء ، ولم تنهب صنعاء أو تخرب على حسب الاتفاق ، بل حاصر أصحاب حيدر القصر الذى به شلبى ، فلما وجد شلبى أن الأمر خرج من يده ، ولا مفر له استسلم وطلب الأمان من حيدر ، فأمنه ، وكتب إلى الباشا جعفر بأمانه ، فلم يجبه إلى ذلك ، بل أمره أن يقتله ويأتيه برأسه ، وتقدم جعفر باشا إلى صنعاء فاستقر فيها .(١)

هذه الاضطرابات التى سادت صنعاء بسبب الفتنة بين عبد الله شلبى وجعفر باشا جعلت الإمام القاسم يفكر فى نقض الصلح الذى عقده مع جعفر باشا سنة ١٠١٦هـ ، لان الإمام كان يرى فى الصلح مصلحة لأهل اليمن من أجل تسكين الفتنة مادام جعفر باشا باقيا ، أما وقد عزل فقد خاف الامام من استيلاء الوالى الجديد على ما تحت يده من البلاد ، وعدم الاعتراف بحق الإمامة ، فتثور عليه البلاد وتتراجع عن مناصرته القبائل ، نظرا لأنهم كانوا قد

---

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح جـ ٢ ص ٩٠ ، الكبسى - اللطائف السنية ص ١٢٨

استراحوا إلى الدعة أيام الصلح ، فاستشار الإمام أصحابه فى ذلك الأمر ، فاجتمع الرأى على نقض الصلح والحرب ، فانتظر الإمام الى أول شهر ربيع الأول سنة ١٠٢٢ هـ = ١٦١٣ م ، وذلك بعد خروج الباشا جعفر من صنعاء بأيام [(١)] ، وبذلك بدأ الامام النهضة الثالثة من دعوته ، فقد كان الامام ينتظر وصول موافقة ابراهيم باشا لتجديد الصلح معه ، غير أن الأخير وافته المنية كما أشرنا سابقا فور وصوله إلى ذمار ، كما أن الامام لم يثق بما أرسله إليه عبد الله شلبى بشأن عقد الصلح معه وبقاء الأوضاع على ماهى ، ورأى الإمام أن الفرصة مواتية لتوسيع نفوذه فى البلاد ، خاصة وأن عبد الله شلبى أثناء الفتنة بينه وبين الباشا جعفر قد سحب أكثر جنوده إلى صنعاء لمساعدته فى الوقوف أمام قوات جعفر باشا ، فأصبحت أغلب الحاميات العثمانية فى المنطقة الشمالية خالية من الجند العثمانى ، ودفع هذا بالتالى قبائل هذه المناطق على اعلان انضمامهم للإمام ومبايعته ، ولهذا بدأ الامام فى ارسال قواته الى الأقاليم المختلفة فور ذلك ، فوجه ولده علياً إلى بلاد الشرف ، وولده الحسن إلى بلاد شطب والسّودة وعفَار ، والقاضى هادى بن عبد الله بن أبى الرجال ، والحاج أحمد بن عواض الأسدى والشيخ سعيد الطير إلى بلاد الظاهر ، فأما علياً فأستولى على بلاد الشرف ، ثم تقدم إلى بلاد عفَار فاستفتحها بعد حروب شديدة ، وأما الحسن فانه فتح شطب والسّودة وارتفع الى جبل بنى حجاج فالتجأ أصحاب الأمير عبد الله بن المعافا إلى قرن الناغى أحد حصون السودة ، أما الظاهر فدخلوا فى طاعة الإمام طوعا ، كما أخضع الفقيه على الشهارى بلاد عيال يزيد للامام [(٢)] .

---

(١) الشرفى ـ اللآلئ المضيئة ص ٢١٧

(٢) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٥٢

بذلك نجح الإمام فى مد سيطرته إلى الكثير من أقاليم المنطقة الشمالية مثل بلاد الشرف وعفار والظاهر وجبل عيال يزيد ، وهذه الأقاليم التى كانت تحت سيطرة الأمير عبد الرحيم قبل نفيه إلى الأستانة ، وكانت كل هذه الفتوحات أثناء خروج ابراهيم باشا ورحيل جعفر باشا وفتنة عبد الله شلبى .

ولم تكن المنطقة الشمالية فقط هى التى سادت فيها الاضطرابات فى هذه الفترة ، بل فى المنطقة الجنوبية أيضا ، فقد تمرد بعض جنود حامية تعز على أميرها ، وعاثوا فى المدينة فسادا ، حتى تم تعيين أمير جديد لها من قبل ابراهيم باشا ، فعمل على اعادة الهدوء إليها بعد أن قبض على زعيم الجنود المتمردين ، وقد استغل بعض أهالى ولايتى تعز والحجرية هذه الاضطرابات فخلعوا طاعة العثمانيين ، مما أجبر جعفر باشا على ارسال بعض قواته إلى هذه الجهات لاعادتها إلى الطاعة ، وذلك بعد أن استقرت أحواله ثانية فى صنعاء بعد القضاء على تمرد عبد الله شلبى الكخيا .[1]

هكذا أصبحت اليمن فى حالة من الفوضى والاضطراب سواء فى شمالها أو جنوبها ، بسبب عزل جعفر باشا وفتنة عبد الله شلبى ، ولكن عودة جعفر باشا إلى الولاية مرة ثانية بعد قضائه على تمرد شلبى ، أعطى العثمانيين قوة جديدة ، ردت لها بعض ما ضاع منها من أقاليم ، فجهز جعفر باشا قواته

---

(١) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٥٠

لحرب الإمام القاسم بقيادة الأمير حيدر الذى خرج من صنعاء فى تسعة آلاف مقاتل ، وقيل عشرة آلاف مقاتل ، فوصل عُمران وأرسل بعض الجند إلى جبل عيال يزيد ، وكان الحسن بن الامام اذ ذاك فى موضع يسمى بيت عِلْمان ، فلما علم بوجود حيدر انتقل منه إلى بلاد الأشمور ، ولم يكن معه غير مائتى نفر ، أما بقية جنوده فتركهم فى جبل تيس ، فلما وصل قرب عُمران ورأى جنود الأمير حيدر رجع إلى موضع بالقرب من بلاد المصانع ، فخرجت عليه فرقة من جند الأمير حيدر من مدع ، فحدثت مناوشة أثناء مروره ، ثم أقبل علىّ بن الإمام القاسم من بلاد حضور الشيخ لنجدة أخيه الحسن ، وكذلك أقبل أحمد بن الإمام الحسن بن على من حجّه ، والحاج أحمد الأسدى بجموع غفيرة ، فاشتدت الحرب واستمرت مدة سبعة أيام ، حتى كاد أصحاب الإمام يتغلبوا على جند العثمانيين ، الا أن حامل الراية من أصحاب أحمد بن الامام الحسن انهزم ومعه أهل حجة ، فتضعضع بقية الناس ووقع فيهم الرعب ، فتتابعت الهزيمة على أصحاب الامام ، فخاف الحسن بن القاسم ان طال عليه الحصار وعلى أهل العُرّة أن يأخذهم العثمانيون قهرا ، ففضل أن يسلم نفسه ويطلب الأمان لأهل العُرّة ، فخرج إلى الأمير حيدر فأرسل بهم إلى جعفر باشا ، فسجنه فى سجن صنعاء المعروف بالدار الحمراء ، وذلك فى رمضان سنة ١٠٢٢هـ الموافق سنة ١٦١٣م [١] ، ولما علم الامام بأسر ولده الحسن خاف على بلاده ، فأرسل للباشا جعفر يطلب منه اعادة الصلح على الشروط الأولى لصلح سنة ١٠١٦هـ ، لكن

---

(١) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٥٣ ، الشرفى ـ اللآلئ المضيئة ص ٢٢٢

جعفر باشا لم يجبه إلى طلبه .[1]

هذه المحنة كان لها أثر عظيم في قلوب الناس ، فقد أصابهم الرعب والفشل حتى أن بعض خواص الإمام وملازميه طلبوا الاذن لهم بمفارقته ، منهم الفقيه أحمد بن يحيى الحداد الصعدي ،فقال له الامام "الخيار إليك ، اما أن تكون من جملتنا في الشدة والرخاء ،وترضى بما جاء من عاقبة وبلاء ... واما أن تفارقنا ولا أجبرك بشيء "[2] ، ومكن ذلك الأمير حيدر كلما قصد مكانا من بلاد الإمام فتحه بدون مشقة وتعب ،ولم يبق في يد الإمام غير وادعة والأهنوم وما لبث أن ضاعت منه وادعة كذلك .

خرج الإمام القاسم من شهارة وهو في أشد المحنة ،حتى أنه كان يدعو الله ويتضرع ويبكي بكاءا شديدا حتى يخرجه الله من هذه المحنة ،فانتقل بعد ذلك إلى صعدة فأقبل عليه أهلها واستبشروا بقدومه إليهم .

لما علم الأمير حيدر بوجود الإمام بصعدة توجه بجيوشه وأمرائه إليها ، منهم الأمير حسين ، والأمير رستم ، والأمير أحمد الأخرم والأمير مطهر بن الشويع والأمير عبد الله بن المعافا ، فلما وصل إلى الهَجَر ترك الأمير عبد الله ابن المعافا هناك ومعه كثير من الجند ،ثم توجه هو وبقية الأمراء إلى صعدة ، فلما علم الامام بالخبر أمر أولاده الحسين وعليّ والسيد أحمد بن الإمام الحسن

---

(١) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح جـ ٢ ص ٩١

(٢) يحيى بن الحسين ـ غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ص ٨٠٢

بالتقدم لمحاربة الأمير حيدر ،لكن الأمير حيدر كان أسرع منهم واستطاع دخول صعدة بدون قتال ، فرأى الحسين بن القاسم أن يتفرق الجند فى بلاد صعدة حتى يقطعوا المؤن على حيدر ، فما كان من الأمير حيدر الا أن أرسل إلى السيد يحيى المؤيدى ـ والى العثمانيين على أبى عريش ـ أن يتقدم إلى رازح ، فلما علم الإمام بذلك أرسل ولده الحسين لحرب السيد يحيى المؤيدى فحاربه وانتصر عليه ، وأرجع السيد يحيى إلى أبى عريش واستولى على جميع أمواله ، فلما رأى ذلك الأمير حيدر وجه فى الحال الأمير رستم إلى بعض بلاد صعدة ، ولكن القبائل هاجمته ، فلما علم حيدر بذلك أرسل الأمير أحمد الأخرم لنجدته ، وكان بين الأمير أحمد ورستم عداوة قديمة فتمهل الأمير أحمد الأخرم فى المسير إليه ،فلما وصل إليه كان على بن الإمام القاسم قد قتل الأمير رستم، واستولى على جميع ما معه ،[1] فتقدم الأمير حيدر إلى أولاد الامام فوقعت الحرب بينهم ، فانهزم حيدر ،وقتل من أصحابه جماعة ، فلما رأى ذلك الأمير أحمد الأخرم أراد الالتجاء إلى الإمام خوفا من ملامة الأمير حيدر ،لأنه لم يصل إلى رستم فى الوقت المناسب ،لكن أصحاب الإمام قتلوه وأرسلوا برأسه إلى الامام ،فبعث بها إلى ولده محمد فى شهارة ،فأمر محمد بن القاسم أن تعلق رأس الأخرم خارج بلاد الأمير عبد الله بن المعافا فى الليل ليثير الرعب والفشل فى قلوب العثمانيين ، فلما رآه ابن المعافا انزعج وداخله الخوف الشديد وانحصر بن المعافا فى الهجر، أما حيدر فقد دبر أمره بالحيلة للخروج من صعدة فخرج منها إلى خمر .[2]

---

(١) الكبسى ـ اللطائف السنية ص ١٢٩

(٢) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح جـ ٢ ص ٩١

يقول الجرموزى فى مخطوطته "كان جعفر باشا قد ندم على نقض الصلح فأمر الشيخ ناصر بن على المحبشى أن يستوقف الإمام فى الشام (الشمال) ويسعى فى الصلح الأول فلم يجبه الامام"[1] ولم يوافق الامام على الصلح رغم ماكان فيه من المحنة لأنه كان قد عاهد أهل خولان على عدم تسليمهم للعثمانيين ، وكانت رغبة جعفر باشا العودة إلى حدود صلح سنة ١٠١٦هـ ، لذلك لم يقبل الإمام بالصلح .

قويت عزيمة أصحاب الإمام بعد حروب صعدة ، وخرجت بعض القبائل على طاعة العثمانيين ، وخاصة عندما خرج محمد بن القاسم الى بنى سعد، وحارب حسين بن المعافا الذى فر إلى لسودة فقتل محمد من أصحابه عدد كبير وأخذ ما معهم من سلاح ، ثم توجه إلى الهجر ، وأقام الحصار على عبد الله بن المعافا ، فلما طال الحصار على عبد الله بن المعافا وليس لديه طعام فكر فى طلب الأمان من الإمام ، وتسليم نفسه إليه ، على أن يخرج عسكر العثمانيين ويسلموا سلاحهم كذلك ، ولما علم الأمير حيدر بأمر حصار بن المعافا ، دبر الحيلة لاخراجه ، فأرسل الأمير درويش وغيره من الأمراء فى جيش وافر إلى الهجر ، ولكن بن المعافا كان فى حالة سيئة من شدة الحصار وقلة الطعام ، كما أن درويش لم يستصحب معه شيئا من الطعام والمؤن لأنه لم يأت الا لانقاذه ، فعظم الأمر على عبد الله ابن المعافا وأشار على أصحابه بالخروج من الهجر فورا قبل اجتماع أصحاب الإمام ،

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٢١٢

وكان الإمام قد وصل من جهة صعدة إلى حبور ، وترك ولده عليا لحفظ صعدة ، ولم يكن معه غير ولده الحسين، فلما استقر في حبور ، بلغة مسيرة درويش لتخليص ابن المعافا ، فأمر ولده الحسين بالتأهب لقتال الأمير درويش وجنوده وهم عائدون من الهجر ، فلما عاد الأمير درويش ومعه ابن المعافا وبقية الأمراء إلى المكان المعروف بفارب أثله ، وهو موضع ضيق الجوانب ، هجم عليهم الحسين وأصحابه ، وكان محمد بن القاسم قد أتى لمساعدته بمن معه من القبائل، وقد أهمل عبد الله بن المعافا والأمير درويش تحصين قرن الوعر واغتروا بكثرتهم وخيولهم ، وقال الأمير عبد الله للأمير درويش "نحن في هذه الكثرة والخيل والجمع ما عسى أن تفعل بنا ألفاف القبائل "[1] فكان ذلك مما يسر للحسين الهجوم عليهم ولم يشعروا الا وقد هاجمتهم عساكر الحسين، فقتل الأمير درويش والأمير عبد الله بن المعافا وغيرهما من الأمراء ومن معهم من العسكر ، ولم ينج منهم غير جماعة قليلة لجأت إلى حصن قرن الوعر ، فحاصرهم الحسين بن القاسم ، حتى سلموا أنفسهم فأخذ الحسين سلاحهم وعُددهم ، وتقدم بهم الى أبيه[2] ، فأودع جماعة منهم في السجن ، وفرق بقيتهم في القبائل ينتفعون بهم في أعمال الزراعة ، وكانت هذه الموقعة في يوم الأحد ١٣ جمادى الثانية سنة ١٠٢٣ هـ = ١٦١٤م ، وبعد هذه الموقعة استرجع الإمام أكثر البلاد التي أخذها منه الأمير حيدر .[3]

---

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح جـ ٢ ص ٩٢
(٢) الشرفي - اللآلئ المضيئة ص ٢٣١
(٣) الكبسي - اللطائف السنية ص ١٢٩

وكان لهذه الموقعة أثر عظيم في نفوس أصحاب الإمام اذ قوت من عزائمهم بعد ما سلبت جميع البلاد التي أخذها الإمام أثناء فتنة عبد الله شلبي ، وحتى البلاد التي كانت للامام أيام صلح سنة ١٠١٦هـ وأصبح الإمام صفر اليدين ، هذا من جانب الإمام القاسم أما العثمانيون فكان لها وقع سيء عليهم ، مما جعل كثير من الجنود العثمانيين يلجأون للإمام القاسم ، بالاضافة إلى أن الأمير حيدر خرج للانتقام من الإمام القاسم بعد علمه بمقتل الأمير درويش والأمير عبد الله ابن المعافا في خمر ، رغم ما كان يعانيه من خوف من الإمام ، فهمّ مسرعا إلى صنعاء واضطربت أحواله ، فأشار عليه عبد الله بن المطهر بالثبات في خمر ، وقوى عزيمته على ذلك فرجع مرة ثانية إلى خمر .

لما بلغ عليّ بن القاسم انتصار أبيه في موقعة غارب أثله ، وكان هو محاصرا لصعدة ، أراد أن يهجم على من فيها من العثمانيين علّه يظفر بهم ، فجمع أصحابه وأتباعه وقصدهم في موضع يسمى الشقاب بالقرب من صعدة ، وهو مكان سهل مكشوف ،[1] لذا أشار عليه بعض أصحابه بالبعد عن هذا المكان ، لكنه صمم على نزال العثمانيين فيه ، فوقعت حرب عظيمة ، كانت خيل العثمانيين فيها كثيرة العدد بالنسبة لما مع عليّ بن القاسم ، وانتهت المعركة بقتل عليّ بن القاسم وقطع رأسه ، وحملها إلى صنعاء ، وقتل معه جماعة من مشايخ خولان أيضا ، وكان ذلك في يوم السبت ١٩ جمادى الأولى سنة ١٠٢٣هـ = ١٦١٤م[2] وقد حزن الامام القاسم كثيرا على مقتل ولده .

---

(١) الشرفي - اللآلئ المضيئة ص ٢٣٣

(٢) الجرموزي - النبذة المشيرة ص ٢٢١

بعد موقعة الشقاب وقتل علىّ بن الإمام القاسم ، أخذ العثمانيون يعملون على افساد القبائل بشتى الطرق ليقضوا على الروح المعنوية المرتفعة عند أصحاب الإمام بسبب انتصارهم فى معركة غارب أثله وتم لهم ذلك ، وفى أول شهر الحجة سنة ١٠٢٣هـ = ١٦١٤ م تمردت قبائل عفار وكحلان و بلاد مسور وحجة على الإمام فدخلها العثمانيون ، وأخذ حيدر يعمل فيها السيف كما استولى على عَرّان قهرا وأسر جماعة منهم وقتلهم وأرسل برؤوسهم إلى صنعاء ، ثم وقعت موقعة الفايش التى انتصر فيها أصحاب الإمام وغنموا غنائم كثيرة من سلاح وآلات حربية ،[1] وكانت الحروب قائمة أيضا فى الظفير والموسم ، وخلالها وقعت موقعة غربان المشهورة التى انتصر فيها أيضا أصحاب الإمام وولى حيدر منهزما هو وجميع جنوده إلى خمر .

بعد موقعة غربان مل العثمانيون القتال وقلت شوكتهم وأنهكتهم الحروب المتتالية " وكلما راموا سد ثغر انفتح عليهم آخر "[2] وظلوا هكذا حتى وصل الخبر إلى صنعاء و بعزل جعفر باشا من منصبه وتعيين محمد باشا بدلا منه ، وذلك سنة ١٠٢٥هـ = ١٦١٦م فسعى جعفر باشا حينذاك إلى عقد صلح مع الإمام لمدة عام لأنه كما قيل " خالف (خاف) أن يسير والفتنة فى اثره "[3] وقد أشار على جعفر باشا بعض أصحابه بأن يوسط الحسن بن الامام القاسم المأسور فى صنعاء بطلب الصلح من والده على أن يترك الإمام الأمير صفر يخرج

---

(١) الشرفى ـ اللآلئ المضيئة ص ٢٣٩

(٢) نفس المرجع ص ٢٤١

(٣) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٢٣٥

من صعدة سالما ، والآ سوف يأخذ الحسن معه إلى الأستانة ، ولكن الحسن اعتذر بحجة أن هذا الأمر ليس في يده ، ولكن جعفر باشا أرغمه على ارسال خطاب له ، فأرسل هذا الخطاب على هيئة أبيات من الشعر بدون أن يذكر اسمه قائلا:

مولاى ان الصلح أعذب مورد　　فاسلك لهسبيلا سويا أجردا
ارسل ولاء الحلم فى ضافية كى　　يروى ظمأه المسلمين عند الصدا

فقرأ الامام الخطاب ولم يعرف أنه من ولده بل ظن أنه من أحد المتوددين إليه فأجابه بقوله :

يا ما نجا محض النصيحة مرشد　　إن الهدى عندى لمن يبغى الهدى
والحلم نحن تجارهُ يروى لها　　ظامى الحشا ويثور عدلى عقيد تى

ووافق الإمام على عقد الصلح ، وتمت المكاتبة بهذا الصلح سرا ،وأرسل الإمام الفقيه جمال الدين بن عامر الزمارى إلى صنعاء لعقد الصلح .(1)

كانت شروط الصلح كالتالى : أن يترك للإمام ما تحت يده وقت الصلح الأول وهى بلاد الحِيمة وحضور ،وجبل مسور وبلاد صعدة ،وان الاسرى فى صنعاء مثل الحسن بن القاسم يبقون فى صنعاء ولا ينقلون منها إلى مكان آخر ، لأن الإمام خاف أن جعفر باشا يأخذ ولده معه إلى الأستانة ، ثم أرسل الإمام من أخرج الأمير صفر من صعدة ، وجعل ولاية صعدة للأمير صلاح بن أحمد بن الحسين المؤيدى ، وأما مدة الصلح فسنة واحدة تبدأ من أول رجب سنة ١٠٢٥ هـ

---

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ٢٣٦

الى سنة ١٠٢٦م وتم الصلح على هذه الشروط .

إن الإمام القاسم بذلك أحرز نجاحا عظيما فى توسيع حدود ممتلكاته ، اذ سقطت أغلب أقاليم المنطقة الشمالية فى يده ولم يبق للعثمانيين بها الا بعض المراكز الرئيسية مثل صعدة ، التى ما لبثت هى الأخرى أن سقطت فى يد القبائل الموالية للإمام ، ولم يبق للعثمانيين غير خمر وكوكبان فقط فى المنطقة الشمالية (1) ، لكن هذه الانتصارات التى أحرزها الإمام لم تكن تخفى حقيقة هامة ، وهى أن العثمانيين مازالوا أكثر عددا وأحسن تسليحا بالنسبة لقوات الإمام ، بالإضافة إلى أن الأرض التى أخذها الإمام كانت أرض فقيرة جبلية يكلف الاحتفاظ بها الشىء الكثير ، لذا كان على الإمام أن يسعى فى استمرار الصلح بينه وبين الوالى الجديد محمد باشا .

قبل أن نبدأ فى المفاوضات التى جرت بين الإمام القاسم ومحمد باشا لابد أن نتعرض لهذا الوالى الجديد وسياسته فى اليمن ، اذ يعتبر هذا الوالى ضمن الولاة الذين حاولوا تثبيت أقدامهم فى داخل ولاياتهم بطريقة سلمية ، كما فعل جعفر باشا من قبل ، فقد أدخل محمد باشا بعض الاصلاحات أيضا ، التى حاول بها أن يهدئ من الأحوال فى اليمن ، لأنه دخل اليمن وأحواله مضطربة بسبب كثرة الحروب بين الدولة العثمانية والإمام القاسم ، وقد صور لنا عيسى بن لطف الله حالة اليمن قبيل وصول محمد باشا فقال "" كان

---

(١) تاريخ دولة الترك ص ٢٤ - المؤلف مجهول



حدود صلح ١٠٢٥هـ بين جعفر باشا والإمام القاسم

وصوله واليمن قد عمته الخطوب والفتن ، وشملته النصب والحزن ،وتفرقت قبائله "" [١] لذا كان عليه أن يسير وفق خطة معينة ليستطيع أن يجذب إليه قلوب اليمنيين ، وإلا سوف تزداد الحروب وتشتعل نيرانها ، وقد تميز محمد باشا بصفات أهلته لأن يقوم بتلك الاصلاحات ، ووصفه كثير من معاصريه مثل المحبي بقوله "" كان رجلا حليما ،حازما في جمع الأموال صبورا على الشدائد "" [٢] كما وصفه الكبسي كذلك بقوله "" كان هذا الباشا من أعقل العقلاء ،الوافر الذهن الحاضر ، والتدبير النافع "" [٣] كما أنه استطاع أن يجذب قلوب اليمنيين إليه وخاصة الزيديين منهم فقد أحسن إلى الأسرى في سجن صنعاء ، ومنهم الحسن بن الإمام القاسم ، الذى أسره جعفر باشا وأودعه سجن صنعاء المعروف بالدار الحمراء كما سبقت الاشارة إلى ذلك ، فقد فك عنه القيود ورخص للعلماء بالدخول إليه ، وأعطاه سرية وهى أم ولده أحمد ، وكان يأذن له بالخروج لكن بصحبة الحرس ، [٤] مما كان له أعظم الأثر فى نفس الإمام القاسم ونفس الحسن كذلك فحصلت بينهما المودة ، وتبادلا الهدايا ، وأنشأ الحسن قصيدة يمتدح فيها محمد باشا نظير احسانه اليه [٥] ، وعندما وصل الى تعز أطلق جميع الأسرى

---

(١) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح جـ ٢ ص ٩٣

(٢) المحبى ـ خلاصة الأثر جـ ٤ ص ٢٩٦

(٣) الكبسى ـ اللطائف السنية ص ١٣٠

(٤) نفس المرجع ص ١٣٠

(٥) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٥٨

من قلعة القاهرة ، ففرحوا بخروجهم أشد الفرح ، مما كان له أثر عظيم في نفوس أهل اليمن ورضائهم عن ولايته لهم [(١)] ، مما جعل أحد المؤرخيه يصفه بقوله : " أنه الين من وطىء اليمن قدمه " [(٢)] ، الا أن محمد باشا قد أخذ عليه أنه بخيل ، حريص على جمع المال ، حتى قيل أنه جمع كثيرا من الأموال عند دخوله تعز "" لأنه خرج من الروم [(٣)] وهو فقير "" [(٤)] .

وصل محمد باشا إلى اليمن في شهر شعبان سنة ١٠٢٥ هـ = ١٦١٦ م ، قادما من مصر ، ولا غرابة في ذلك فان السلطنة كانت في أغلب الأحيان تختار ولاة اليمن من بين من تولوا نيابة غزة أو من بين ولاة مصر ، أو ممن تقلدوا وظائف هامة بها ، وذلك حتى يكونوا على دراية بأحوال اليمن ، وعلى علم بأخباره ، فقد كان محمد باشا كاتب الديوان بمصر للوزير حسن باشا قبل توليته على اليمن ، لذا نجده يقول : أنه أدرى الناس باحوال أهل اليمن ، كما أن محمد باشا قد نهج على نهج جعفر باشا في تقريب العلماء والفقهاء إليه ومناقشاتهم ومنهم السيد عبد الرحمن بن الصديق الطباطبي ، والسيد عيسى ابن لطف الله ، والفقيه حسن أفندي ، كما كان كثير القراءة في جميع الفنون ، ولديه مكتبة غاصة بالكتب [(٥)] ، واهتم محمد باشا أيضا باقامة العدل في اليمن ،

---

(١) الموزعي ـ الاحسان في دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٧١

(٢) فاروق عثمان أباظه ـ الحكم العثماني في اليمن ص ٢٤

(٣) الروم ـ جرت العادة باطلاق كلمة روم على سكان القسم الاوربي من الدولة العثمانية ، اذ كانت ممتلكات الدولة العثمانية في أوربا من قبل ممتلكات رومانية .

(٤) الشرفي ـ اللآلىء المضيئة ص ٢٤١

(٥) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٥٦

وأقام الديوان فى صنعاء عقب وصوله ،للنظر فى مظالم الأهالى " فانصف المظلوم من الظالم ، وساوى بطريق الحق بين المالك والمملوك ، والغنى والصعلوك .. فطمع الضعيف فى انصافه ، وخاف القوى من انحرافه ، فحصل له فى القلوب هيبة ورهبة ومحبة "(١) ، كما صرف محمد باشا بعض جهوده للقيام ببعض المنشآت العمرانية ، فاهتم بتجديد سور صنعاء ، وبتعمير مسجد طلحه الصحابى بها واقامة منارته العظيمة ، وشيد مسجدا كبيرا فى بريم وعمر المدينة نفسها بعد تهدمها أثناء الحروب مع الإمام القاسم ، وأقام حولها سور يحفظها ، وفى نفس الوقت اهتم ببناء القلاع والحصون ، وخاصة قلاع حجّة ، ورمم ما تهدم منها (٢) ، وحفر بئرا فى صنعاء وهى المعروفة باسم بئر باشا (٣) ، وأكمله من بعده فضلى باشا ، وأمر بعمارة البركة التى بجوار ضريح الشيخ أحمد علوان بتعز وزاد فى المصلى ،وفرش جامع صنعاء ، وتنبه محمد باشا إلى شىء هام عند وصوله وزيارته لجبل الكبريت بزمار ،حيث وجد الكبريت فيه بكثرة ،وهذه المادة تستعمل فى صناعة البارود ، فأمر فى الحال بتحصينه وجعل الجند حوله ، والسبب فى ذلك أنه علم بأن أصحاب الإمام القاسم أصبحوا يجيدون استعمال البنادق ، لكثرة ما اغتنموه من عسكر العثمانيين خلال حروبهم ، وبما أن البنادق تحتاج إلى البارود الذى يصنع من هذا الكبريت فلابد من استغلاله وحراسته ، فارتفعت أسعاره ، " حتى بلغ رطل البارود بثلاث أحرف وقرش "(٤) ، كما اهتم محمد

---

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح جـ ٢ ص ٩٥
(٢) نفس المرجع ص ٩٦
(٣) السيد مصطفى سالم - الفتح العثمانى الاول لليمن ص ٣٧٢
(٤) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٥٦

باشا بالبحث عن السجلات والدفاتر ، ورواتب الجند ومحصول البلاد ، وكانت وظيفته في مصر قد أكسبته الاهتمام بمثل هذه الأمور ، وكذلك اشتهر العثمانيون بدقة التسجيل واهتمامهم بالسجلات والدفاتر الحكومية ، وذلك منذ قيام دولتهم [١] ، لذا نجده عند وصوله يحاسب الباشا جعفر على مافي خزائنه من أموال ، وطالبه بمال ابراهيم باشا وعبد الله شلبي [٢] ، واهتم محمد باشا كذلك بتجهيز قافلة المحمل اليمني ، كعمل دعائي هام ، وذلك ليكسب جانب اليمنيين إليه ، بالاضافة إلى رضاء السلاطين العثمانيين في الأستانة ، خاصة وانه وصل اليمن وهو في حالة سيئة من الحروب والفتن ، وقد وصف الموزعي هذا الاهتمام بقوله "" ومن المآثر العديدة الزيادة العظيمة التي زادها من المحمل الشريف اليماني ، في زيادة الجمال والرواحل لركوب الضعفاء والفقرا والأرامل ، وزيادة البقسماط والبر والأرز والسمن والعسل وغير ذلك مما يحتاج إليه المحتاج من المسافرين والحجاج حتى الكعبة ، جعل جميع ذلك كافيا زائدا بحيث يحصل فيه المدد للحاج ذاهبا وعائدا "" [٣] .

وقد يرجع اهتمام محمد باشا بالمحمل اليمني ، محاكاة منه لاهتمام ولاة مصر بالمحمل المصري .

---

(١) على همت ـ أبوالفتح السلطان محمد الثاني وحياته العدلية (ترجمه من التركية محمد احسان) ص ٩١ .

(٢) الجرموزي ـ النبذة المشيرة ص ٢٣٥

(٣) الموزعي ـ الاحسان في دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٧٦

لما استقر محمد باشا فى صنعاء اتصل الإمام به وطلب منه اطالة مدة الصلح الذى عقده مع جعفر باشا قبيل رحيله سنة ١٠٢٥هـ = ١٦١٦م إلى عشر سنوات بدلا من سنة واحدة وذلك بحجة عدم أهمية المناطق الجبلية ، وفقر سكانها وقلة خراجها ، ولكن محمد باشا رفض هذا الاقتراح لأنه لم يتعرف على أوضاع اليمن بعد لقرب وصوله إليه ، ولذلك "فلا ينبغى المبادرة إلى المهادنة الأبعد معرفة أحوال البلاد" [(١)] أما صلح جعفر فهو كما هو "لا ينقضه ناقض" ، وكان رفض محمد باشا هذا الاقتراح بداية النهضة الرابعة والأخيرة من مراحل دعوة الإمام القاسم ، فقد انتهت مدة صلح سنة ١٠٢٥هـ=١٦١٦م فى شهر جمادى الأولى سنة ١٠٢٦ هـ = ١٦١٧م واستمرت الحروب بين الإمام القاسم والباشا محمد ، وكان أولها فى بلاد حُضُور ، فوجه محمد باشا الأمير تكريم بجنده إلى هناك ، وكان قائد الإمام الشيخ عبد الله بن سعيد الطير قائد أهل الحِيْمة ، وقتل جماعة من الفريقين ، ثم جرت بعد ذلك حروب كثيرة فى مسور وبنى مطر وحروب فى منطقة القذف [(٢)] أيضا انجلت تلك المعارك عن قتل الشيخ عبد الله الطير [(٣)] واستطاع محمد باشا أن يأخذ تلك الجهات من الإمام .

وفى الثالث عشر من شهر شعبان سنة ١٠٢٦هـ = ١٦١٧م وقعت حروب فى بنى حيس وقدم وجنب ، استطاع أصحاب الإمام الانتصار على قوات

---

(١) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٥٥

(٢) القذف - منطقة غرب صنعاء ، وهى جزء من بلاد بنى شهاب .

(٣) الكبسى - اللطائف السنية ص ١٣٠

العثمانيين ، كما استطاع أصحاب الإمام دخول حَجة، ثم فتحوا بلاد قُراضة ولاعة ومسور في ٢٨ القعدة سنة ١٠٢٦هـ ، وفي شهر جمادى الثانية سنة ١٠٢٧هـ = ١٦١٨م وقعت موقعة بني علي وانتصر أصحاب الإمام فيها بعد أن قتل منهم ستة رجال [1] ، ووقعت غيرها من الحروب التي أنهكت كلا الفريقين ، فما كان من الباشا محمد الا أنه أرسل باستدعاء الأمير صفر من الأستانة لمعاونته في تلك الحروب ،فوصل في شهر ذي الحجة سنة ١٠٢٧هـ = ١٦١٨م .

والحقيقة أن الحروب بين الفريقين كانت سجالا ، وكان محمد باشا يأمل في أن يحرز نصرا حاسما أمام قوات الإمام القاسم ليرفع من شأنه لدى السلطان العثماني ، وخاصة أنه كان يقول أنه أدرى الناس بأحوال اليمن ، لأنه كان على اطلاع مستمر بأحواله من واقع تقارير ورسائل ولاته ، وقد اغتر محمد باشا بمعلوماته النظرية عن أوضاع اليمن وأصر على شن الحروب على الإمام ،الا أن واقع اليمن خيب آماله ، فقد خاض غمار الحروب لمدة ثلاث سنوات متواصلة ،ولم يستطع أن يحرز انتصارا يذكر ،بل على العكس من ذلك تمكن الإمام خلال هذه السنوات أن يوسع ممتلكاته في المنطقة الشمالية على حساب العثمانيين ، لذا نجد أن محمد باشا قد عاد ووافق على الصلح الذي طلبه منه الامام قبل ذلك .

أرسل الأمير مصطفى - عامل محمد باشا على خمر - إلى محمد باشا يبلغه بأن الإمام يطلب الصلح منه لأن الفتنة قد طالت ، فجمع محمد باشا الأمراء

---

(١) الشرفي - اللآلئ المضيئة ص ٢٥٣

والأعيان ،وطلب منهم المشورة فى هذا الصلح ، وشرح لهم وضع البلاد وحال العسكر وتمردهم رغم كثرتهم وزيادة العطاء لهم ، فردوا عليه بقولهم "" الحركة على الإمام فى هذا الوقت ليس فيها صلاح ،ولا استمرار ،غير بذل الأموال وذهاب الأرواح وترك كل شىء هو الرأى الصائب ، اذ أن الامام القاسم ليس كما كان فى السابق ،وكذلك القبائل فقد عظمت شوكتهم وظهرت قوتهم وكثر معهم السلاح ... مع اقبال القبائل على الامام ، لأن الامام لا يأخذ منهم مالا ، ولا يعرض عن سؤال ، ولا يقبض منهم الا الذى يطابق هواهم ، والعسكر الموجود ليس فيهم من عساكر الأروام الذين عرفوا بالاقدام ومارسوا الحروب غير شرذمة يسيرة ""(١) ، ووافقوا جميعا على عقد الصلح ، فظهرت الأمور واضحة أمام الباشا محمد ، وأجاب الأمير مصطفى إلى ذلك ، كما وصل إلى الباشا الأمير على بن الشويع يطلب الأمان للسيد عبد الله بن شمس الدين بن جحاف للوصول لعقد الصلح ،فأعطاه محمد باشا الأمان وقابله بالاكرام ،وتم ابرام الصلح فى شهر جمادى الأولى سنة ١٠٢٨هـ = ١٦١٩م لمدة عشر سنوات ، على أن يكون للإمام جميع ما تحت يده من البلاد ،وإخراج الأسرى من الجانبين ، ماعدا الحسن بن الامام ، فقد اعتذر الباشا عن اطلاقه ، لأن جعفر باشا رفع أمره للسلطان ، فلا يمكن اطلاقه الا باذن منه ،(٢) لكن محمد باشا أبدى استعداده لاطلاق سراح الحسن بن الامام اذا ترك الامام البلاد التى كانت تحت يده أيام صلح جعفر باشا ،ويقصد بها بلاد القذف من بنى شهاب غرب

---

(١) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٥١

(٢) الكبسى - اللطائف السنية ص ١٣٠

صنعاء نظرا لقربها من صنعاء وكثرة خيراتها بالنسبة للباشا [١]، فلم يرض الإمام بذلك لما في ذلك من المصلحة لأهل البلاد ، وفضل بقاء ولده أسيرا على تسليم تلك البلاد للعثمانيين ،فلم يكن من محمد باشا الا أن فك قيود الحسن ،وأخلى له الطبقة العلوية من الدار الحمراء ،ولم يمنع من أراد الدخول عليه ،لاسترضاء الإمام ،أما البلاد التي وقع عليها الصلح فهي بلاد غربان ،وغشم ، وبني مالك من وادعة ، وبني غشيمة من وادعة أيضا ، وبلاد بني قيس ،وبني صريم ، ومرهبة وبني جبر ،وبلاد بني زهير إلى حدود بني جرموز ، وإلى حدود بلاد نهم وما ولاها إلى جهة الشمال ، وجهات شطب ، والموسم ،وبلاد عفار وجبل نيسا ، والظفير ، والشرفين ، وجزء من بلاد الحيمة ،وحراز وبلاد الظاهر وذئبان وعيال عبد الله ، وعيال أسد ، ظليمة ، والأهنوم ،وعذر والعصيمات ، وبني سفيان وخيوان ، وعيان وجهات صعدة وجبل رازح فهي كلها للإمام ،أما بلاد الكلبين وخمر فهي للعثمانيين [٢]، وبعد تمام الصلح شرع كلا الفريقين في تنفيذ شروطه ، فانتقل الإمام من وادعة إلى شهارة ، ووصل الأسرى من صنعاء وكوكبان من أصحاب الإمام إلى شهارة ، وهم أكثر من مائتين وأربعين رجلا ، كما أطلق الامام ما عنده من أسرى ، بعد أن كساهم كلهم وزودهم بالمال والزاد ، وكانوا فوق الأربعمائة ، ثم انسحب جميع جنود العثمانيين من بلاد الإمام إلى صنعاء [٣]، وبذلك تم الصلح على أحسن حال ، ووقف القتال بين الفريقين وهدأت الأحوال .

---

(١) الشرفي - اللآلئ المضيئة ص ٢٤٣

(٢) نفس المرجع ص ٢٥٧

(٣) الجرموزي - النبذة المشيرة ص ٢٦٢



صلح ١٠٢٩هـ بين الامام القاسم ومحمد

والحقيقة أن عقد الصلح كان فى مصلحة الطرفين الإمام القاسم ومحمد باشا ،لاضطراب البلاد ، وليستطيع كل منهما تنظيم شئونه داخل أقاليمه ، فالإمام القاسم كان فى أمس الحاجة إلى هذا الصلح لتعرض بلاده للقحط وانقطاع الأمطار مدة طويلة ، وتعرض البلاد إلى شدائد الجوع والغلاء ،مما كان سببا فى اضطراب أهل البلاد ،وهجرتهم من بلادهم ،حتى أن البعض منهم هاجر إلى الحبشة سعيا وراء الرزق ، وكان البعض يموت جوعا و((اشتد عليهم الضرر وعظم ، ثم عقبة الموت العام فيهم ، حتى تعطلت القرى عن سكانها ، وخلت المساكن عن قطانها ، فكان يموت أهل القرية جميعهم ... فلا يجدون من يتولى دفنهم ،وهرب أكثرهم من الموت من بلد إلى بلد ، فأدركهم الموت إلى حيث هم))[1] هذا من جانب ، ومن جانب آخر كانت أكثر البلاد التى عمها القحط مثل خولان العليا تنقض عهدها مع الإمام ،وأصبحت تستهزئ به ، لأن العثمانيين كانوا يبذلون لهم الأموال الكثيرة مقابل تخليهم عن الامام ،وهم فى ذلك الوقت فى أشد الحاجة إلى تلك الأموال نظرا لظروف البلاد التى تعانيها من الحدب والقحط والغلاء ، وكان أول من نقض عهد الإمام وطاعته بنو اسحام ثم بنوا شداد ، وحاول العثمانيون اشعال الفتنة بين القبائل باثارة النعرة القبلية بينهم ،فاضطربت البلاد على الإمام ، بالاضافة إلى أن العثمانيين لما اشتدت عليهم الحروب ،واضطربت الأحوال ، حاولوا قتل الإمام القاسم ،ليستريحوا من هذه الفتنة ، بأن وضعوا له البارود تحت وسادته ، لكنه نجا من القتل واكتشف هذه المؤامرة[2] ، كما أن الإمام خاف على بلاده وأولاده

---

(١) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٧٧

(٢) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٢٥٩

بعد موته ، فان ترك البلاد على هذه الحال ،وهى مشتعلة بالحروب وقدعمهـا القحط ، ووهن أتباعه وضعفوا ، ولا يستطيعوا مناهضة العثمانيين ، ويُقضى عليهم كما فُعل بأولاد المطهر ، وقد نقل الجرموزى حديث عن الإمام القاسم مما يبين أسباب موافقته على الصلح وطلبه قائلا : " قلت للإمام اراك تبذل الرغائب فى الصلح ، وقد عالجوك فيه مع وصول محمد باشا فلم ترضى ،والآن تطلبه فقال : الإمام الأولى انى رأيت أن أختم عمرى بالجهاد وبتنغيص دنيا الظالمين (يقصد العثمانيين) ورأيت الأمر تفاقم ،وظننت قرب أجلى ، خفت أن يحدث الموت بى وأمور الاسلام على ما ترى فلا يتمكن أهله من النصر ويحصل فى الاسلام ما يحصل ،فرأيت المسارعة حتى ينتزح الأتراك عنا وفرج الله ".(١)

أما من ناحية محمد باشا فقد كان فى حاجة أيضا لعقد الصلح اذ أن جنوده قد ضجروا ، وطلبوا رفع مرتباتهم ، وحدث بينهم اضطراب ،حتى أنهم هموا بقتله وأخذوا منه أموالا كثيرة ،فان أكثر هؤلاء الجنود ليسوا من فرق الانكشارية الذين عرفوا بالاقدام ومارسوا الحروب ،بل كان أكثرهم من أهالى مصر الذين يجمعهم واليها من الفلاحين وقطاع الطرق عند ما تطلب منه النجدة (٢) ، بالاضافة إلى اضطراب الأحوال فى المنطقة الجنوبية مثل اقليم ريمه ووصاب وعتمه فهى بلاد جبلية وعرة تقوم فيها كثيرا الاضطرابات التى تقلق الدولة ، وكذلك الحال بالنسبة

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٢٦١

(٢) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٦٦

لأقليم الحجرية اذ تمرد حاكمها اليمنى الأمير على الشرجبى [(١)] على طاعة الوالى العثمانى ، وكان أحد شيوخ هذه المنطقة ،وكان جعفر باشا قد قربه إليه ومنحه لقب أغا ، ثم رقاه بعد قليل إلى رتبة السنجق [(٢)] ، وقد اتسعت هذه الاضطرابات في إقليم الحجرية إلى حد كبير خاصة أن الشرجبى قطع طريق عدن إلى تعز ، وطريق المخامن طريق مُوزع وعظم أمره ، وقد وجهوا إليه كثيرا من الأمراء لحربه فهزمهم وقتلهم ، واستفحل أمره حتى قلت المؤن على العثمانيين واضطربت أحوال عسكرهم وقد فشل كذلك محمد باشا فى حل النزاع القائم بين الأمير على الشرجبى وأحد جيرانه [(٣)] ، واستمرت الحروب باقليم الحجرية حوالى عامين ، لم يستطيع محمد باشا اخمادها الا بعد وصول الأمير صفر مددا له فى سنة ١٠٢٨هـ = ١٦١٩م ، كما سبقت الاشارة إلى ذلك ،فذهب الأمير صفر إلى اقليم الحجرية على رأس قوة من الجند قدرها أربعمائة جندى . [(٤)]

كما وجد محمد باشا أن الأقاليم التى تحت يد الإمام جبلية وفقيرة وخراجها قليل ،والاحتفاظ بها يكلف الكثير ،فلا يتحصل منها على نصف المنفق عليها . [(٥)]

لكل هذه الاسباب مجتمعة سواء من جهة الإمام القاسم أو من جهة محمد باشا فقد كان كل منهما يحبذ الصلح ،ومن ثم كانت الموافقة عليه وكان كل

---

(١) الشرجبى ـ نسبة لأقليم شرجب بالحجرية .

(٢) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٥١

(٣) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٢٦١

(٤) يحيى بن الحسين ـ أنباء ابناء الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٥٧

(٥) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح جـ ٢ ص ٩٩

منهما حريصا على بقائه لحاجته إليه ،لكن هذا الصلح لم يكن يخفى حقيقة هامة هى ظهور ضعف الحكم العثمانى فى اليمن وخلخلة نظمه ، بالاضافة إلى أنه أخفى الفشل العسكرى الذى منيت به القوات العثمانية أمام المقاومة اليمنية ، كما أنه يرمز إلى ظهور قوة الإمام القاسم رغم شدة ظروف البلاد فى الأيام الأخيرة ، ويظهر ذلك فى قول أصحاب محمد باشا عندما استشارهم فى عقد الصلح "" فان الإمام القاسم ليس كما كان فى السابق ،وكذلك أصحابه ليسوا الآن كما كانوا فى ماضى الزمان ، بل صاروا أهل سلاح وعدة "" [1] لذا نجدهم عند لقاء الامام خاصة فى الأيام الاخيرة يحسبون له حسابا ، ومما يظهر ضعف نظم الدولة وخلخلة أوضاع العثمانيين فى اليمن حينذاك قول محمد باشا عند رحيله من اليمن "" كنت أعتمد على دفاترى وحفظى من أخبار اليمن ، وأقول ليس أحد أعرف منى بأحوال اليمن ، وأعترف الآن أنى دخلت اليمن وخرجت منه ولا عرفت ولا حققت قدر أنملة "" [2] .

وهكذا انتهت المراحل الأربعة من نهضات الإمام القاسم والتى وضعت الأسس الأولى للدولة القاسمية الزيدية فى اليمن على يده ثم أيدى أولاده الذين استطاعوا اخراج العثمانيين للمرة الأولى من اليمن فى العشر الأوائل من شهر جمادى الأولى سنة ١٠٤٥هـ = ١٦٣٥م .

---

(١) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٥٨

(٢) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٧٤

بعد عقد الصلح بسنة توفى الإمام القاسم بن محمد فى ليلة الثلاثاء الثانى عشر من ربيع الأول سنة ١٠٢٩هـ = ١٦٢٠م فى حصن شهارة .[١] ولم يكتم أمر موته بل عرفه العامة والخاصة ، وكان سبب وفاته الحمى الحارة، وكان قبل وفاته يشتد به ألم فى بطنه ، فكان يقعده عن الخروج من بيته ، حتى أنه ترك صلاة الجمعة أحيانا ،و طال به المرض ثلاثة عشر يوما ثم توفى ،وقبل وفاته أرسل إلى الفقهاء من خارج شهارة ومن داخلها .[٢]

بعد وفاة الامام القاسم اجتمع الأعيان والفقهاء الزيدية وتشاوروا فيما بينهم لمبايعة إمام جديد يجمعون عليه ، واتفقوا على مبايعة محمد ولد الامام ، وكان محمد بن القاسم فى ذلك الوقت مشغولا بتجهيز والده ،فطلبوه وأخوه الحسين ، وأعلموهما بأمر اجتماعهم فقال محمد : " " يختار الفقهاء والسادة من يصلح من آل الرسول ، وأنا أول من يبايع وأقوم بمعاونته ، وأسلم ما لدى من بيوت الأموال إليه ، وأن يده مع أيديهم "" [٣] ولكنهم أبوا الا قيامه بأمر الإمامة من بعد والده ، وأنه لا يجوز له رفضها ،فقبلها مظهرا أنه كاره لها ، وقام السادة العلماء والفقهاء بمبايعة محمد فى تلك اللحظة ،ولقب بالمؤيد ، وبايعه أكثر من فى شهارة بيعة رضى ورغبة ، وكان الاتفاق ، ثم الاجماع على مبايعة الإمام المؤيد من العوامل الهامة التى أدت إلى استمرار وحدة القوى الزيدية ، وتماسكها أثناء حروبها فيما بعد مع العثمانيين ، مما حقق لها فى النهاية الانتصار عليهم ، وذلك على عكس ما حدث بعد وفاة الإمام المطهر ،اذ تنازع

---

(١) الشوكانى ـ البدر الطالع جـ ٢ ص ٥٠ ، ٥١

(٢) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٢٧٠

(٣) الشرفى ـ اللآلئ المضيئة ص ٢٥٨

أبناؤه فيما بينهم على السلطة وكان مصيرهم الهزيمة والضعف ثم نفيهم إلى الأستانة

وفي أثناء مبايعة الإمام المؤيد ، أمر المؤيد القاضيين يحيى بن محمد بن صلاح الأهنومي ، ويحيى بن صلاح الثلائي وغيرهم بتغسيل والده وتجهيزه ، ثم دفنه ولده المؤيد قبيل الفجر في مسجد شهارة ، وأم المؤيد الناس للصلاة عليه ، وقد أجمع الفقهاء الزيدية على إقامة قبة فوق قبره ، رغم أن الإمام القاسم يكره ذلك ، وأمر الناس الا يعمروا القباب فوق موتاهم ، لأنه يرى أن هذه العادة بدعة ، وكان يقول لأصحابه " لا بارك الله لمن عُمر عليه أو عين لنفسه مشهدا "(1) وقد نحرت العقائر وتصدق بها في جميع البلاد وعلى أهل العلم وحفظة القرآن، وقرئ القرآن على قبره عدة أشهر ، وحزن عليه الجميع ، وقيل في رثائه الكثير ، ومن ذلك ما قاله القاضي علي بن الحسين المسوري :

من الآن فلنبك العُلى والفضائل ... ويهمل الا ذكرهن الفواضل
سلام على الدنيا سلام مودع ... فقد أوحشت فيها علينا المنازل
وأظلمت الآفاق طرا وأكدرت ... علينا لداهي الخطب فيها المناهل (2)

وبعد أن تمت البيعة للمؤيد ، أرسل بكتاب إلى محمد باشا في صنعاء أخبره بوفاة والده وأنه القائم بأمر الامامة من بعده ، وأنه باق على الصلح الذي عقد مع والده " لا ينقضه ناقض " ، وأهدى إليه نسخة من كتاب الكشاف ،(3) وكانت

---

(1) الشرفي - اللآلئ المضيئة ص ٢٥٨

(2) الجرموزي - النبذة المشيرة ص ٢٧٧

(3) الكشاف - كتاب في علم التفسير واسمه الكشاف في حقائق التنزيل ، للعلامة أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي المتوفى سنة ٥٢٨ هـ (كشف الظنون ج ٢ ص ١٤٧٥)

نسخة عظيمة ، ورد محمد باشا على المؤيد بالموافقة على استمرار الصلح بكتاب هذا نصه : (((بسم الله الرحمن الرحيم .. لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ،وقدوة مستحسنة ، طريق سلكه سيد المرسلين وحبيب رب العالمين ،لله الحمد ،ما قضى وقدر وأمضى ،كل نفس ذائقة الموت ، وكل انسان وان طال عمره الى الفوت ،انا لله وانا إليه راجعون وصائرون ومنقلبون ، فيعزى ولدنا المقام الأكمل الأعلم الأفضل متبع الفضائل عمدة الافاضل مالك أزمة المفاخر والمعارف الجسيمة محمد بن القاسم بن محمد ،منحه الله صبرا وكتب له أجرا بوالده الامام العلم الأطول الأعلم الأفضل يغشاه الله برحمته ورضوانه واسكنه بحبوح جنته باحسانه وجعل نزله فى عليين ... والحمد لله الذى جعلكم القائمين من بعده ، والشادين شده لما اختاره الله من الخير من عنده ، وقيامكم بالأمر بعد استخارة الله سبحانه ، ومواطأة من العلماء الأخيار والقضاة الأطهار ، فانهم ان شاء الله لذلك أهل ولما وقع من اختياركم موضع ومحل ، تولى الله عونكم ورزقكم الصبر ، وكتب لكم على فراقه الأجر ... وأنتم بمقامه أحق وإليه أسبق ،وذكرتم ان الذى بيننا وبين والدكم رحمه الله من العهود والمواثيق ثابت أساسها ، محكمة امراسها زاد الله أساسها ومراسها ثباتا وامراسا وقوة ، كما هى الارادة المرجوة ونحن ان شاء الله على ذلك ما يبدو منا أمر مظهر فيه اختلال ، ولا يكون منا للموضوعات بقواعدها وعقودها انحلال ، بل انا لكم كما انتم لنا وما هو الموجود عندكم هو كذلك عندنا والألفة الصافية الخالصة الوافية ، كما هى ما يغير تلك القواعد مغير ولا يكدرها مكدر ، ونحن لكم فى أمر الخير مساعدون ، وطرق مرضات الله معاضدون ، والله يختار لنا ولكم الخير ،وتأخذ بنواصينا إليه ومرشدنا ، ونحن دلائلنا عليه ،وحسبى الله وكفى . تاريخ سابع عشر شهر ربيع الاول سنة ١٠٢٩ هـ بمحروس صنعاء))) (١)

(١) الكبسى ـ اللطائف السنية ص ٣٠ ، ٣١ ، الشرفى اللآلئ المضيئة ص ٢٥٩

ومن هذا الخطاب يتضح لنا مدى محاولة الباشا محمد استمالة الإمام المؤيد ومدى تمسكه بالصلح معه ، مما يوضح اضطراب الأحوال وخلخلة الأوضاع بالنسبة للعثمانيين ، ومدى قوة الدولة الزيدية وتملسكها .

وتميزت بداية عهد الإمام المؤيد بالهدوء والاستقرار ،لاتفاقه مع محمد باشا ، وأدى هذا إلى استمرار الهدوء النسبي في اليمن حوالى ثماني سنوات ، اذ لم تتجدد الحروب الا في محرم سنة ١٠٣٦هـ = ١٦٢٦م حيث نقض الصلح قبل استكمال مدته بسنتين ، وكان السبب المباشر لنقض الصلح وإعلان الحرب ضد العثمانيين ،هو أن يحيدر باشا كان قد قتل في رمضان سنة ١٠٣٥هـ ١٦٢٥م أحد الفقهاء من كبار أتباع الإمام المؤيد أثناء زيارته لصنعاء لقضاء بعض حاجياته [١] وذلك لاتهامه بأنه كان يدعوا الأهالي إلى مبايعة الإمام ،وقد طالت المكاتبات بين الامام المؤيد وحيدر باشا حول تسليم قاتل الفقيه إلى الإمام لمعاقبته ، أو لدفع دية القتيل ، لكن هذه المكاتبات لم تنته الى شيء ، وكان يشجع الإمام المؤيد على إعلان الحرب على العثمانيين أن كثيرا من رؤساء وشيوخ المناطق الشمالية وغيرها كانوا يراسلون الإمام سرا لتأييده ،ولمطالبته بالهجوم على العثمانيين ، بل وكانوا يرسلون أبناءهم إليه رهينة لديه لتأكيد الولاء له ، وقد أدى هذا إلى اشعال نيران الحروب في اليمن [٢] ، وفي خلال الفترة ما بين

---

(١) تاريخ دولة الترك ص ٣١ (المؤلف مجهول)

(٢) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن في تاريخ اليمن ص ١٦٢

عقد الصلح ونقضه فى سنة ١٠٣٦هـ تحقـــق تغير واضح فى ميزان القوى ،بين الزيد يـين والعثمانيين بالاضافـة إلى أنها آخر فترات الهدوء الـــــتى سادت اليمن قبل خروج العثمانيين من اليمن .

—•—

الفصل الخامس

الخلل في الإستانة

أ - نظرة عامة في أهم النظم العثمانية

ب - الخلل في الاستانة وأثره على اليمن

حـ - التوازن بين الامامة والولاية

شيد العثمانيون دولتهم على أسس سليمة من القوة والتعاون النادر ، والنظم الراقية ، التي مكنتهم من قهر أضخم القوى في العالم المعروف كله ، ولا يمكن الحكم على مدى هذه الأسس بدراسة نظم حكمهم في الأماكن النائية كاليمن ، فان أي نظام يخرج عن ميدانه الحيوي لابد أن يتعرض للفساد والإفساد ، أو التطور على أي شكل كان ، ولكن اذا تطرق الخلل إلى تلك النظم في عاصمة الدولة ، فان ذلك لابد أن ينعكس بطريقة أو بأخرى على البلاد المحكومة .

والحق أن ظهور العثمانيين على مسرح التاريخ كان أشبه بمعجزة ، اذ تميز نمو الدولة بالسرعة الخارقة ، فلم يمض وقت طويل حتى سيطرت على الشئون العالمية ومصير الإنسانية ، وكانت في انتشارها في آسيا ، وأوربا وأفريقيا أشبه بمحيط ملئ بالعلوم والنظم والديانات المختلفة ، ولعل هذا هو السبب في أن الدولة لم تجد فسحة زمنية لدراسة الفرعيات من هذه الأصول ، وتفهمها أو تذوقها ، كما حدث بالنسبة للزيدية في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية ، ومن ثم كان لطبيعة الدولة نفسها دخل كبير في تشكيل نظم الحكم فيها ، فالدولة العثمانية كانت قبل كل شيء آخر كأنها جيش قائم ، وقد ظل العثمانيون محتفظين ببعض ما كان للأتراك الرعاة من خصال خاصة ، أخصها أنهم ولدوا للحرب والفتح ، وكان الجهاد هو أول شيء في الدولة ، وكانت نظم الحكم نفس هذا الغرض ، ولكن بمرور الزمن وخاصة بعد فتح القسطنطينية بدأت الدولة تتجه للعناية بالنظم الادارية ، وفي أيام

سليمان الأول اتحد هذان الشيئان ، وسارا جنبا إلى جنب ، بيد أن طبيعة الدولة الحربية ظلت هى الغالبة .

كانت مهمة الجيش فتح البلاد ، ثم الحكم ، وبدأت المهمة الأولى تحتل مكان الصدارة منذ عهد السلطان محمد الفاتح ، ومع ذلك فالمهمتان ارتبطتا ببعض أشد الارتباط ، فكانت الحرب تحرك معها الحكومة بأسرها إلى جبهة القتال ، وفى أغلب الأحيان كان كبار موظفى الدولة هم فى نفس الوقت قواد الجيش ، وكانت أهم قوات الجيش الوحدات النظامية ، وهذه كانت تنقسم إلى الانكشارية وهم من المشاة والسباهية وهم الفرسان أو الخيالة ، وكان إلى جانبهما وحدات خاصة بالمدفعية وهم طوبجيلر ، بالإضافة إلى بعض الوحدات غير النظامية ، وكانت أهم هذه الفرق توضع فى مقدمة الجيش لتحمل الصدمة الأولى من ضربات العدو ، كما كانت الدولة تستخدمهم فى العمليات الانتحارية والعمليات الشاقة عند اقتحام المواقع المنيعة ، أو فك الحصار ، فهم يعتبرون أخطر وحدات الجيش ، نظرا لبراعتهم فى القتال .(١)

وكانت الخيالة تنقسم إلى فرق السباهية ، وهم أهم الفرق ، ثم السلحدار وتليها فرقة العلوفه جى ، ثم فرقة الغرباء ، وهذه الفرق غير النظامية فرق احتياطية لم يكن لها مرتبات معلومة ، وانما كانت معيشة أفرادها على ما يغنمونه من ساحة الحرب ، ولم يكن لدى العثمانيين خيل عربية ، وانما بغال ، وأكاديش وخيل شبه الكدش ، وقد أجاد العثمانيون استخدام

---

(١) الشناوى - تاريخ اوربا ج ١ ص ٥٣٠

المدفعية ، وكانت المدفعية العثمانية من القوة بحيث كان الواحد منها يقذف بكتلة الحجر التي تقرب من القنطار ، ومما يدل على جودة صبها وصنعها أنها نقلت الى أسوار المحيط الهندى عن طريق السويس .(١)

عرف عن القوة المحاربة العثمانية بسالة أفرادها ، والطاعة والنظام ، ونظافة المعسكرات ، واحتمال المصاعب ، والرغبة فى الحرب وضبط النفس وقت الشدة ، وإلى جانب هذه المميزات كانت هذه القوة من الناحية العامة تتميز بالوحدة ، وتظهر هذه الوحدة بشكل واضح فى القيادة ، بمعنى أن قائد القوة المحاربة هو السلطان ولا قائد غيره ، وهو الذى يقود الجيش فتلتف حوله الهيئة الحاكمة ، ويلتف حوله كذلك الانكشارية والسباهية ، وتظهر هذه الوحدة أيضا فى أن الجيش العثمانى بهذا الوضع كان غير قابل للتجزئة ، لا فى القيادة ولا فى صفوفه ، أى ليس للدولة العثمانية غير جيش واحد ، وكان لهذا عيبه حين اتسعت فتوحات الدولة ، اذ كان معنى انشغال السلطان العثمانى مثلا فى الجبهة الشرقية أمام فارس ، أن الجبهة الغربية خالية من جيش رئيسى لمواجهة النمسا مثلا ، كما أثبت العثمانيون جدارة فائقة فى إقامة الاستحكامات والهندسة البحرية وكذلك عرفوا نظام الجاسوسية .

أما الأسطول البحرى ، فقد اعتنت به الدولة من عصر يزيد الثانى ، وفى عهد السلطان سليم الأول خطت البحرية خطوات واسعة ، نظرا لامتداد الدولة

---

(١) البحراوى - فتح العثمانيين عدن ص ١٩٤

واشرافها على البحرين الأبيض والأحمر ، مما زادها عددا ونشاطا ، ولكن التقدم في البحرية العثمانية لم يسر جنبا إلى جنب مع اتساع الدولة ، ولا مع تقدم القوات البرية ، ومع أن الدولة أحرزت انتصارات حاسمة في البر ، فأن الأمر لم يكن كذلك في البحر ، ومع أنه كان قد مضى على فتح القسطنطينية وقت طويل ، فان العثمانيين لم يفكروا في بناء ترسانة في استانبول الا في سنة ١٥١٨ م حينما بدأوا في انشائها على انقاض ترسانة البيزنطنيين ،(١) وإلى ذلك يعزى جزء كبير من فشل العثمانيين في تحقيق مشروعاتهم في المحيط الهندى وخليج فارس ،ومن ثم لم تتحقق الأغراض التى من أجلها فتحوا اليمن ، وقد امتدت السيطرة العثمانية إلى اليمن في الوقت التى بلغت فيه الدولة أوج قوتها ومجدها ، ومعنى ذلك أن الدولة حينئذ كانت قادرة على دعم سيطرتها في اليمن ، وعلى مد ولاتها هناك بما يحتاجونه من جنود ومعدات ،

ويتأكد هذا اذا عرفنا أن الدولة العثمانية كانت تمتد من المجر غربا إلى حدود فارس شرقا ، ومن شمالى البحر الاسود شمالا إلى عدن جنوبا ، وأن البحرين الأسود والأحمر قد أصبحا بحيرتين عثمانيتين ، كما أصبح للأسطول العثمانى السيادة العليا في البحر المتوسط ، وكان الجيش العثمانى حينذاك يفوق كثيرا الجيوش الأوربية من ناحية نظامه وتجهيزاته وذلك بالرغم من

---

(١) البحراوى ـ فتح العثمانيين عدن ص ١٩٥

الاصلاحات التى أدخلت على تلك الجيوش فى ذلك الوقت ،[(١)] وحين كان السلطان سليمان القانونى سنة ١٥٦٦ م على رأس الدولة العثمانية بلغت الدولة أوج عظمتها ، بفضل ما تميز به هذا السلطان من صفات جعلت معاصريه يطلقون عليه لقب الكبير أو العظيم .

وبلغت الدولة العثمانية حينئذ شأوا بعيدا فى التنظيم العسكرى فى القرن السادس عشر الميلادى ، لكن بعد عهد السلاطين العظماء أخذ الخلل يتطرق إلى نظم الدولة ، ومن بينها النظام العسكرى ، مما جعله ينعكس على جميع ولاياتها ومنها ولاية اليمن ، ففى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر الميلادى أخذ الضعف يستشرى إلى فرق الانكشارية ، الذين كانوا أساس قوة الدولة وسبب عظمتها ، ثم صاروا سببا فى توقفها وضعفها ، وخاصة حين اعتكف السلاطين فى السراى ، وأدى ذلك إلى ضعف الروح والنظام العسكرى ،[(٢)] وكانت الدولة قد سمحت لأفراد فرق الانكشارية بالزواج والاقامة خارج ثكناتهم ،[(٣)] وكان من نتائج هذا الاجراء أن أصبح الانتماء إلى فرق الانكشارية وراثيا بدون اعتبار للكفاءة العسكرية ، وقد حدث أن أدخل السلطان مراد الثالث ١٥٧٤-١٥٩٦ م فى فرق الانكشارية الأفراد الذين أسهموا فى المحافظة على النظام فى الاحتفالات التى كان يقيمها ، مما جعل

---

(١) السيد مصطفى سالم - الفتح العثمانى الأول لليمن ص ١٥٥
(٢) د . محمد البحراوى - حركة الاصلاح ص ٨٢
(٣) محمد فريد - الدولة العلية ص ١٠٨

ضمن فرق الانكشارية أخلاط من العامة والسوقة[1] وقد نجم عن فتح باب الالتحاق بفرق الانكشارية أن زاد عددهم زيادة ضخمة بحيث أصبحوا عبئا ماليا على خزانة الدولة ، هذا الفساد الذى استشرى بين أفراد فرق الانكشارية انتقل إلى سائر فرق الجيش ، ودب الحقد فى نفوس أفراد فرق السباهى بوجه خاص ، وقد هالتهم المنح والامتيازات التى اغدقت على الانكشارية ، وأخذوا كلما سنحت لهم الفرصة يمارسون أعمال السلب والنهب ، وإشعال الحرائق فى استانبول ، وكأنها غدت مدينة معادية فتحت عنوة وتستباح فيها أعمال العنف[2] ، وبعد ذلك أصبحت الحكومة ألعوبة فى أيدى الانكشارية ، وكان هؤلاء يمارسون نشاطات اجرامية فى أوقات السلم ، ويشاركون فى خلع السلاطين طمعا فى زيادة العطايا ، وتاريخ الدولة حافل بمثل هذه الأحداث منذ مطلع القرن السابع عشر الميلادى فالسلطان مصطفى الأول ١٦١٧-١٦١٨م خلع بعد ثلاثة أشهر فقط من توليته ، وولى مكانه ابن أخيه السلطان عثمان الثانى سنة ١٦١٨ - ١٦٢٢م ، وهذا أيضا عزلة الانكشارية سنة ١٠٣١هـ - ١٦٢٢م ، عندما أحسوا أنه يحاول القضاء عليهم بسبب اصرارهم على الراحة والكسل ، مما ألزمه عقد الصلح مع بولونيا سنة ١٠٢٩هـ = ١٦٢٠م وأعادوا مكانه السلطان مصطفى الأول ، ولم يكتفوا بعزله بل هجموا عليه فى قصره وقادوه قهرا إلى ثكناتهم ، وأهانوه ثم نفوه إلى القلعة المعروفة فى استانبول باسم يَدَى قُلَه ، ثم أعدموه هناك ، وكان هذا أول سلطان يقتل بيد رعاياه ،[3] ولم يمكث

---

(١) الشناوى ـ تاريخ أوربا جـ١ ص ٧٥٥

(٢) الشناوى ـ تاريخ أوربا جـ١ ص ٧٥٧

(٣) سرهنك ـ حقائق الاخبار ص ٥٧٦

(٤) محمد فريد ـ الدولة العلية ص ١٢٣

السلطان مصطفى الأول الذى أعيد إلى الحكم ثانية إلا عاماً واحدا ، ثم عزل وعين بدلا منه السلطان مراد الرابع الذى لم يتجاوز الثالثة عشر من عمره ، والذى فى عهده انفصلت اليمن عن السيادة العثمانية ، رغم ما قام به من جهود لارجاع مجد أجداده واصلاح الخلل الذى أصاب دولته ، لكن هذه الجهود التى بذلها السلطان مراد الرابع فى إصلاح شئون دولته ، والحروب التى قام بها فى المناطق القريبة من عاصمته ، هى التى شغلته عن الاهتمام بالابقاء على اليمن تحت السيطرة العثمانية أو باستعادته بعد خروج العثمانيين منه .(١)

ويمكن القول أن حركة الانكشارية فى تمردها وعصيانها فى القرن السابع عشر حتى نهايته ، كانت فى صورة واحدة ومتكررة من حيث الأسباب والنتائج ، ولم يتسنى للدولة ازالة فساد أو تحقيق إصلاح ، بعد أن اختلت هذه الادارة العسكرية ، وبعد أن استشرى الفساد وتأخرت مرافق الحياة ، وضج الناس بالشكوى وسلاطين الدولة فى العاصمة عاجزين عن اتخاذ أى اجراء بسبب هذا الفساد ، انعكست تلك المظاهر الفاسدة على أكثر البلاد التابعة للدولة العثمانية خاصة البعيدة عنها مثل اليمن ، اذ كان يغلب على الحملات الذاهبة إلى هذا الميدان العنصر غير النظامى ، فقد كان على والى مصر امداد الولاة فى اليمن بالجنود ، لعجز الدولة العثمانية عن إرسال الجنود النظاميين لانشغالها بالحروب فى العراق ، والميدان الاوربى ، وبسبب تمرد الانكشارية وفسادها ،

---

(١) السيد مصطفى سالم - الفتح العثمانى الأول لليمن ص ١٥٧

فكان والى مصر يرسل عسكرا ملفقا من كل نوع من الأساكفة والصناع وقطاع الطرق والفلاحين المصريين غير النظاميين ، لأن الجنود العثمانيين بمصر تقاعسوا عن الاشتراك فى الحروب لأنهم ألفوا الراحة والدعة ، وتنعموا فى مصر باللذات المتنوعة وتعلقوا فيها بكل أسباب الحياة ، وكثرت أولادهم ، وصارت مصر موطنا لهم .[١] وزاد من هذه المساوئ وضاعف من أضرارها أن الدولة لم تكن توفر لهذه العناصر غير الصالحة ضروريات الحياة ، ولذلك كثيرا ما كانوا يركنون إلى النهب والسلب للحصول على هذه الضروريات لذلك اضطر القواد العثمانيون فى حالات كثيرة إلى سلوك طريق يتنافى مع النظام العسكرى ، مثل التحايل وتقديم الرشوى لسد حاجات الجند واسترضائهم ، كما كان ينظر إلى اليمن باعتباره منفى للمجرمين والعصاة ، فكان رجالات الدولة يرسلون إليه هذه الفئات للتخلص منها ولتأديبها ، فقد أرسلت استانبول إلى مصر أثناء ولاية محمد باشا الصوفى ١٦١١-١٦١٥ م حوالى ألفى جندى " لينفوا إلى اليمن لفساد وقع منهم "[٢] وذلك فى أثناء ولاية جعفر باشا ، وقد امتنع هؤلاء الجنود عن الذهاب إلى اليمن بعد وصولهم إلى القاهرة ، واعتصموا فى احدى دورها فاضطر الوالى لارسال قوة من الجند لمحاصرتهم ، ولاخراجهم بالقوة فاستسلموا لمصيرهم بعد أن قتل منهم ثلاثة جنود أثناء المقاومة التى بذلوها بعد أن فشلت الوساطة السلمية فى اقناعهم بالتوجه إلى اليمن .[٣]

---

(١) قطب الدين النهروالى - البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ص ١٩٩

(٢) محمد أبى السرور - المنح الرحمانية ص ١٤٠

(٣) محمد أبى السرور - المنح الرحمانية ص ١٥٦

وقد رأينا فى الفصل الرابع الانقسام والفوضى التى عمت اليمن بعد عزل جعفر باشا سنة ١٠٢٢ = ١٦١٣م وما حدث بينه وبين عبد الله شلبى وجنوده مما أدى إلى ازدياد الاضطرابات بين صفوف العثمانيين وانقسامهم ، وفى عهد الامام المؤيد بن القاسم وبالأخص فى ولاية حيدر باشا الذى تسلم ولاية اليمن سنة ١٠٣٤هـ = ١٦٢٥م ظهرت ظاهرة خطيرة تدل على أنهيار الأوضاع بين صفوف الجند العثمانى ، فقد تعددت حوادث هروب الجند من اليمن نتيجة صعوبة وخطورة هذا الميدان ، وذلك لعجز الوالى العثمانى عن دفع مرتباتهم ، ولضيقهم بمناخ تهامة الحار ، وكانت بعض الفرق العثمانية تعمل على الهرب إلى مكة أثناء توجهها إلى اليمن ، أو تلجأ للإمام مباشرة وترفض الانضمام إلى صفوف العثمانيين ، كما حدث أثناء محاصرة حيدر باشا صنعاء ، اذ رفض الجنود النزول إلى ميناء المخا ، وتوجهوا إلى ميناء اللحية حيث لجأوا الى ميناء القنفذة للذهاب الى مكة (١) .

وهكذا انعكس ضعف الانكشارية وفسادها على الفرق العسكرية فى اليمن أيضا ، اذ تبدوا الفروق واضحة بين الانكشارية فى عصرها الذهبى ، وبين الانكشارية فى عصر الاضمحلال ، فقد كانوا يتلهفون على الخروج إلى الحرب ، ويعتبرون النفير العام حادثا سعيدا ، ينتظرونه وهم فى شوق شديد إليه ، وكان هذا فى عصر قوة الدولة أى فى عصرها الأول .

---

(١) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٦٦

أما من الناحية الإدارية ، فاننا نلاحظ أن مرونة النظم العثمانية ، وخاصة فى فترة نمو الدولة استطاعت أن تستوعب النظم التى وجدتها فى البلاد المفتوحة ، وأن توائم بطريقة عملية بين نظم العثمانيين الأصلية وبين أوضاع البلاد المختلفة التى خضعت لسيطرتها ، ولذلك اختلفت النظم العثمانية من بلد إلى آخر ، مما ساعد العثمانيين فى النهاية على حكم بلاد كثيرة مترامية الأطراف ، فقد تشابه الحكم المحلى فى الولايات العثمانية مع الحكم المركزى فى الدولة ، فكان على رأس كل ولاية وال أو بكلر بكى بمعنى أمير الأمراء وسلطاته فى داخل ولايته تشبه سلطات السلطان المركزية ، وكذلك يساعد الوالى فى حكم ولايته مجموعة من الموظفين تتشابه أعمالهم وألقابهم مع أعمال وألقاب موظفى الحكومة المركزية ، ومعه مجموعة من الكتاب والمحصلين لمعاونته فى جمع الأموال المقررة على الأهالى وتحديد أوجه صرفها ، وإلى جانب هؤلاء جميعا كانت هناك مجموعة السناجق ، أمراء المقاطعات والمدن الهامة فى داخل الولاية ، وكان إلى جانب كل سنجق بدوره مجموعة من الموظفين تشبه مجموعة موظفى الوالى ، مما أدى وبمرور الوقت إلى تضخم جهاز الدولة التنفيذى ، فشكل هذا خطرا كبيرا فيما بعد على كيان الدولة .(١)

وكان النظام الادارى فى اليمن يقوم على نفس هذا النمط حيث يمثل الوالى العثمانى السلطة العثمانية فى اليمن ، ويعتبر الوالى قائدا حربيا واداريا معا ، وكان يقود الجيوش بنفسه ، وقد رأينا خلال فصول الرسالة كيف

---

(١) السيد مصطفى سالم - الفتح العثمانى الأول لليمن ص ٤٣٢

قاد حسن باشا وسنان باشا الكخيا الجيوش فى مناهضة دعوة الإمام القاسم بن محمد ، وهذا الوالى يكون له الحق فى تكوين قوة من أهل الأقاليم لمساعدة قواته بصرف النظر عن الاختلافات المذهبية ، فتولى اليمنيون حكم بعض الأقاليم ، وقادوا الفرق العسكرية ، وتولوا الوظائف الادارية والمالية ، وذلك للاستفادة من خبراتهم بشئون البلاد ، بعد منحهم الألقاب العثمانية ، أى اعتبارهم أمراء أو سناجق عثمانيين ، ومنحهم كذلك مرتبات من الدولة العثمانية ، وقد مرت بنا أمثلة من هذا النمط الادارى خلال فصول الرسالة ، فقد عين العثمانيون أمثال حسن باشا ، وسنان باشا وغيرهم من ولاة اليمن أمراء آل شرف الدين فى مثل هذه المناصب ، مثل أحمد بن شمس الدين حاكم كوكبان ، وابن المعافا حاكم السودة وعبد الرحيم بن عبد الرحمن حاكم حجة ، هؤلاء دخلوا فى خدمة العثمانيين ، وقد رأينا كذلك كيف استعان الوزير حسن باشا بعدد كبير من أمراء وزعماء المنطقة الشمالية فى الحملة التى أرسلها تحت قيادة سنان الكخيا للقضاء على الاضطرابات فى إقليم الحجرية ويافع .(١)

ثم يأتى بعد الوالى الكتخدا ثم مجموعة حكام الأقاليم والمدن الهامة أى السناجق والكشاف ، وهم فى نفس الوقت قادة القوات العثمانية ، ثم يأتى بعدهم أمراء الآلايات والصوباشية وحكام المدن ثم رؤساء القوات التى تعمل

---

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح ج ٢ ص ٩٢

على حفظ الأمن في البلاد ، وكان ضعف الولاة وفسادهم يؤدى إلى انتشار الظلم والفوضى في البلاد ، لضعف الاشراف العملى على حكام الأقاليم ، وقد رأينا الفوضى واندلاع الحروب في اقليم اليمن أثناء ولاية سنان باشا الكخيا ، الذى اشتهر بالقسوة والغلظة ،فلما أتى اليها جعفر باشا بعد عزل سنان باشا كانت اليمن في حالة فوضى كاملة .

لقد تحرى السلاطين ورجالات الدولة العثمانية الدقة في اختيار الولاة وخاصة قبل أن ينتشر الفساد في نظم الدولة وأجهزتها اذ كان يتم اختيار هؤلاء الولاة ممن يثق بهم السلطان ، أو ممن نشأوا في السراى حتى يكونوا موضع ثقته ، أو من تولوا نيابة غزة أو مصر ، وذلك حتى يكونوا على دراية بأحوال البلاد ، غير أن تفشى الفساد في أجهزة الدولة قد أتاح الفرصة أمام بعض الولاة الضعفاء لتولى أمور اليمن ، واعتمد بعض الولاة في اليمن للوصول إلى مناصبهم على الهدايا والرشوى لرجالات الدولة في عاصمة الدولة ، فقد اعتمد أمير صعدة على قرابته من أحد رجالات الدولة في استانبول في عزل جعفر باشا رغم صلاحيته ، كما أوضحت ذلك في الفصل الرابع ،وكان بُعد اليمن عن مقر السلطنة العثمانية كذلك ، سببا في تأثر اليمن بما أُصاب نظم الدولة من اضطراب ، وانحراف ، مما أدى إلى تولى بعض الولاة الفاسدين ، وإلى انتشار الرغبة بين العمال والجنود في ابتزاز أموال الأهالى ، مما أدى إلى ازدياد اضطراب الأمور في اليمن .

اشتهر العثمانيون بدقة التسجيل واستخدام الدفاتر الحكومية ، واتضح

ذلك بصورة جلية فى اليمن ، فكان الولاة والعمال يهتمون بتسجيل أوجه الصرف والمرتبات ، واتفاقيات الصلح التى يتم ابرامها ،[١] وقد أصاب هذه الناحية الهامة من نواحى النظم الادارية العثمانية ما أصاب باقى نواحى النظم من الجمود والفساد ، ويدلنا على ذلك ما أظهره محمد باشا من تلاعب فى محتويات السجلات الموجودة باليمن حين توليه الأمور بها سنة ١٠٢٥هـ = ١٦١٦م ، اذ كان قد دون بها "" اناسا كان يجرى عليهم من السلطنة أرزاق ولا لهم وجود "" .[٢]

أما الحريم ، فكن فى عهد السلاطين الأوائل ، أى فى عصر قوة الدولة فى شبه عزلة عن بقية الخاصة السلطانية ، ولذلك فأنهن كن قليلات التأثير على تيسير أمور الدولة فى عهد هؤلاء السلاطين ، ولكن عند ما بدأ الضعف يدب فى شئون الدولة أصبح تدخلهن واضحا ، وكان سببا فى فساد نظم الدولة وانحلالها ، وكان الاحتلال فى الولايات النائية أكثر وضوحا منه فى مركز الدولة ، حيث بدأت سيدات القصر فى التدخل فى شئون الحكم بعد أن كان مكانهن القصر فقط ،ولم تظهر بوادر هذا الخلل فجأة بل أخذ يظهر رويدا رويدا ، وزادت هذه المظاهر الاجتماعية والسياسية سواء فى عهد السلاطين الضعفاء ، فالسلطان مراد الثالث سنة ١٥٧٤م-١٥٩٥م وقع تحت تأثير رجال

---

(١) على همت - أبو الفتح السلطان محمد الثانى وحياته العدلية ص ٩٦

(٢) عيسى بن لطف الله - روح الروح جـ ٢ ص ١٠٢

حاشيته وندمائه وخضع أيضا لسيطرة أربعة من السيدات هن والدته وزوجتاه ، وكبيرة وصفات السراى ، وأخذت هذه الفئات فى التدخل فى شئون الدولة العامة لتحقيق مصالحها الخاصة ، وعملت على اجبار رجالات الدولة بما فيهم الصدر الأعظم على تنفيذ رغباتها ، كما عملت على الاحاطة بالصدور العظام ، وتدبير المؤامرات احيانا اذا رفضوا تنفيذ هذه الرغبات .(١)

قد ترك السلاطين للعلماء وكل مظاهر التكريم والاحترام كرئاسة الاحتفالات، والتصرف المطلق فى أمور القضاء والثقافة ، ومن ثم استقر فى الأذهان أن علماء استانبول وحدهم هم الأهل لذلك ، وساعد على ذلك حماسة العلماء وصرامة خلقهم فى أيام الدولة الأولى ، مما أكسبهم تأثيرا على غيرهم ، وكان العلماء متواضعين على جانب من الطاعة طالما كان السلاطين يقودون الجيوش بأنفسهم ، ويتوجون بالنصر ويسيطرون على قواتهم ، وحين ترك السلاطين قيادة الجيوش للوزراء بدأ يقوى نفوذ العلماء ويشتد سلطانهم ، ومن ثم أخذوا يحسون بأهميتهم السياسية(٢) ، ولما تطرق الخلل إلى أنظمة الدولة ومنها نظام القضاء ، ظهرت منهم مجموعة تتصف بالجهل بالاسلام وتعاليمه ، اذ أصبحت بعض مناصب القضاء والافتاء تعطى كانعام ، وكان أولاد كبار العلماء يعفون أحيانا من الدراسة المنتظمة والامتحانات ، وتمنح لهم الألقاب العلمية وهم فى بيوت آبائهم ، وقد

---

(١) السيد مصطفى سالم ـ الفتح العثمانى الأول لليمن ص ٢٨٨
(٢) البحراوى ـ حركة الاصلاح ص ٨٠

وصل كثير من ذلك الصنف إلى قمة هيئة علماء استانبول .[١]

وقد انعكست تلك المظاهر على البلاد النائية البعيدة عن قلب الدولة وظهر هذا الفساد بشكل واضح في ولاية اليمن ، ومن ثم نرى الجرموزى صاحب سيرة الإمام القاسم قد هاجم القضاة العثمانيين بشدة لأنهم أساءوا إلى الشريعة الاسلامية التي كانوا يحكمون باسمها ، مما زعزع ثقة الزيديين في هؤلاء العلماء ولذلك سموهم الكفار والجهال والظالمين وغير ذلك من الصفات ، لأن هذه الوظيفة قد تدهورت عندما تولاها غير مستحقيها ممن كانوا يسعون إليها لما كانت تدره على صاحبها من دخل ، لأن القاضي كان يحصل على رسوم محددة من المتقاضين من ناحية ، ولحصوله من ناحية ثانية على الرشاوى في القضايا المختلفة .[٢]

أما من حيث التنظيم المالي ، فقد أدى اتساع الدولة وظروفها التاريخية إلى وجود نظم خاصة لحكومات الولايات ، فكانت حكومة كل ولاية تجمع الضرائب من الولاية ، وتقوم بالانفاق منها على الولاية ، كما كانت هناك أوقاف خاصة ، تخصص ايرادها للانفاق على المنشآت الدينية والمساجد ، ولما اتسعت الدولة وكثرت مصروفاتها ، وبدأ الخلل يدب في أوصالها أخذت تعاني من الأزمات المالية الشديدة[٣] ، بسبب الاضطرابات الداخلية والخارجية التي أشرنا إليها من قبل ، وبدأ في الدولة العصر الذي أطلق عليه المؤرخون العصر المخيف[٤]

---

(١) البحراوى ـ حركة الاصلاح ص ٨٩

(٢) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٩٨

(٣) على همت ـ ابوالفتح السلطان محمد الثاني وحياته العدلية ص ٩٦ ، الدسوقى ـ الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ص ٦٦

(٤) البحراوى ـ فتح العثمانيين عدن ص ١٠٢

وقد انعكس كل ذلك على الولايات البعيدة وعلى الأخص اليمن ، وبعد أن كانت الدولة تقوم بدفع مرتبات الجند من خزانة الدولة فى عهد السلاطين الأوائل وكان هؤلاء الجند يقنعون بتلك المرتبات لأن هدفهم كان فتح البلاد ونشر الاسلام بها ، وكانت التربية العسكرية التى تدربوا عليها قد عودتهم على الحياة الخشنة المبسطة ، الا أن هذا النظام أصابه هو أيضا الخلل وأصبحت مرتبات الأمراء والجنود ضئيلة بالنسبة إلى حياة الترف والبذخ التى تعلقوا بها فى عهد السلاطين الضعاف ، مما كان من أهم العوامل التى أدت بهؤلاء إلى ظلم الأهالى وابتزاز أموالهم لكى يعوضوا قلة المرتبات ، كما أن نظم العثمانيين المالية كانت تترك بعض الثغرات التى تتيح لبعض كبار موظفيها الفرصة لاستغلال وظائفهم للحصول على الثروات الضخمة ، لأن الخزانة العامة للدولة كانت تصرف لبعض كبار موظفيها جزءا من مرتباتهم ، أما الجزء الباقى فكانوا يأخذونه من الأهالى أو من العوائد مقابل ما يقدمونه من خدمات.(١)

وقد اتبع العثمانيون فى اليمن شتى الوسائل الملتوية للحصول على المال، فقد عمد كثير من ولاة اليمن إلى جمع الأموال لتحقيق أغراض شخصية لتولى حكم مصر مثلا وطلب الهدايا الكثيرة من الأهالى عند وصوله أى بلد من بلاد اليمن ،(٢) وذلك كما فعل محمود باشا الذى تولى أمر اليمن سنة ٩٦٨هـ = ١٥٦١م

---

(١) على همت ـ أبو الفتح السلطان محمد الثانى وحياته العدلية ص ١٩٥
(٢) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٣٠

واتصف هذا الوالي بكل صفات الانتهازية لتحقيق أغراضه ، فقد قتل رئيس سك النقود واستولى على أمواله الوفيرة بتهمة التلاعب بالعملة وغشها بغلبة النحاس على الفضة ، وكانت تهمة باطلة ،[١] كما غير سنان باشا الكخيا في اليمن سنة ١٠١٣هـ = ١٦٠٤م العملة مما أضر بالناس ، وكذلك كان يعطي رؤساء القبائل الذهب الأحمر المغشوش ليميلهم إليه أثناء مناهضة الامام القاسم بن محمد ، واستعمل العثمانيون في أحيان كثيرة الشدة في جمع الأموال من الاهالي وذلك لحصول الجيوش على احتياجاتهم بالقوة من المناطق التي ينزلون بها ، وذلك يرجع إلى التناقض بين ضخامة الأعباء المالية وبين ضعف الأحوال الاقتصادية في البلاد ، وقد أشار الجرموزي إلى هذه القسوة في جمع الأموال بقوله : "" أما المال فلهم في أخذه قوة سطوة ، فلقد يعذبون أهله العذاب العظيم مثل ضرب السياط قليلا وكثيرا ، وقد يجلدون بعضهم حتى يموت مع المشاهرة والكي بالنار "" .[٢]

أما نظام الضرائب الذي أخذ به العثمانيون ، فكان متعدد الجوانب ، فهناك نظام العشور والخراج ونظام الالتزام التي سارت عليه الدولة العثمانية في جمع الضرائب في كثير من ولاياتها ، وقد طبق هذا النظام في أرض اليمن[٣] بخلاف الحجاز التي اقتصرت موارد الدولة فيها على رسوم التجارة في موانئها

---

(١) قطب الدين النهروالي- البرق اليماني في الفتح العثماني ص١٢٨

(٢) الجرموزي- النبذة المشيرة ص ٧٦

(٣) البحراوي - فتح العثمانيين عدن ص ٢٠٠

الهامة مثل جدة ، كان نظام الالتزام موضع سخط أهالي اليمن في كثير من الأحيان لما فيه من ثغرات تسمح للقائمين بتنفيذه باستغلال الأهالي وجمع الثروات الخاصة ،لأن حكام الأقاليم هم الذين كانوا يلتزمون بجمع خراج أقاليمهم، وكان هؤلاء يحرصون على جمع الثروات من وراء بيع التزاماتهم مما كان في النهاية يزيد الأعباء على الأهالي ، كذلك كانت تجمع الضرائب على النخيل والأبقار ، سواء كانت هذه الأشجار باقية أم غير باقية ، وكذلك الحال بالنسبة للابقار والاراضي مما جعل هذه التصرفات موضع تذمر كثير من الأهالي حتى ان جعفر باشا عند توليه الحكم وجد هذه الظاهرة موجودة ، فأزال هذه المظلمة على المفقود من النخيل والبقر ، [1] غيرأن أعمال جعفر باشا الاصلاحية كانت مواقف نادرة في تاريخ العثمانيين باليمن .

بعد هذا العرض لأهم النظم للدولة العثمانية ، نجد أن الدولة بلغت في عصرقوتها شأوا بعيدا من التنظيم الإداري والحربي وغيرهما ، بيد أن هذه النظم لم يكن لها الأثر الايجابي أو الوجود الفعال في أطراف الدولة وجهاتها النائية ، وكأنها كانت تختفي أو تتلاشى تبعا للقرب ، أو البعد عن مجال الدولة الحيوي ، ومركزها الرئيسي ، شأنها شأن الحملات نفسها ولا سيما في جنوب غرب الجزيرة العربية ، وحينما انهارت تلك النظم في مركز الدولة ذاته وفي مجالها الحيوي في أوائل القرن السابع عشر الميلادي ، انهارت أكثر في الأطراف التي منها اليمن .

---

(١) الموزعي ـ الاحسان ودخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٤١

انعكس الخلل الذى دب فى النظم العثمانية والذى أشرنا إليـــه على موقف الدولة الخارجى ، ففى نهاية القرن السادس عشر الميلادى كان علـــى الدولة أن تخوض حروبا عدة فى ميادين مختلفة لأسباب كادت أن تكون متشابهة سواء على الحدود مع فارس أو فى الشمال الافريقى ، بل وفى أوربا أيضا ، فى وقــت برزت فيــه روسيا كدولة حديثة تمثل عبئا ثقيلا اضافيا على الدولة العثمانيـــة وتمثل أيضا عائقا من أهم لعوائق لاستقرار الدولة وللاصلاح فيها ، كذلك كانــت الحالــة خطيرة بالنسبة للدولة فى حوض البحر المتوسط ،لكن كيف السبيل إلـــى مواجهــة هذه الأخطار مع وجود هذا الخلل فى عاصمة الدولة وفى كل أجـــزاء جسمهـــا ؟

من ثم نرى الدولة تضطر لعقد معاهدات واتفاقيات صلح ، وبدا واضحـــا فيما تعقده الدولة من معاهدات للصلح مدى ما آلت إليه من ضعف ،ومــــدى تأثير ذلك الخلل ، واذا أخذنا الميدان الفارسى كمثل تطبيقى لهذه الحالـــة ، فقد كان شاه فارس على استعداد لنقض الصلح مع الدولة بمجرد علمه أن العثمانيين قد اشتبكوا فى حرب مع أى دولة أخرى ، انتقاما للعار الذى لحق الفرس فـــى الحروب الماضيــة ،فقد نقض الشاه اسماعيل الصفوى الصلح الذى عقده مـــع فرهاد باشا سنة ٩٩٨هـ ثم عاد للصلح ثانية مع نصوح باشا سنة ١٠٠٢هـ على غرار الصلح الأول ، وما لبث أن نقض هذا الصلح أيضا عندما رأى انشغـــال الدولــة وكثرة اضطراباتها ، واستطاع دخول بغداد سنة ١٠٣٢هـ ـ ١٦٢٣م (١) ،

---

(١) سرهنك ـ حقائق الاخبار ص ٥٧٠

كما أصيبت الدولة العثمانية أيضا بضربة قوية فى سوريا ولبنان وذلك بخروج أمير لبنان فخر الدين المعنى على السلطان أحمد الأول سنة ١٦٠٣م فقد اشترك مع جان بلاط الكردى وهددوا سوريا نفسها بالاحتلال ، واستولى فخر الدين على بعلبك سنة ١٦١٠م،[1] وبذلك أصبحت الدولة مرهقة فى الداخل والخارج ، فقد عقد السلطان أحمد صلحا مع الشاه عباس ابن طهماست سنة ١٦١٢م تنازل فيه عن كل ما فتحه العثمانيون من بلاد منذ عهد سليمان بما فى ذلك بغداد ، وكان عقد صلح ستوا رتورك فى الغرب وابرام الصلح مع الفرس على هذا النحو اسقاطا لأهمية اليمن من حيث اتخاذها قاعدة ارتكاز ضد الانتشار الأوربى فى المحيط الهندى ، وتهديد فارس من الجنوب ، وهكذا انعكست أوضاع الدولة العثمانية العامة على أوضاع اليمن الداخلية .

كان ابرام العثمانيين الصلح مع الإمامة الزيدية أكثر من مرة دليلا على حدوث التوازن بين القوتين فى اليمن وخاصة بعد أن تعلم أصحاب الامام القاسم استعمال البنادق ، وتمرنوا على اطلاق البارود ، فقد حصل اليمنيون على كثير من أسلحة العثمانيين النارية أثناء الحروب الطويلة بين الطرفين كما سنفصل ذلك فى النتائج والتحليل ،وكانوا ينقلون هذه الأسلحة إلى حصونهم ومعاقلهم ، خاصة المدافع الكبيرة ، وكان حصول الزيديين على الأسلحة واستعمالهم إياها من الأمور التى شجعتهم على الوقوف فى وجه العثمانيين بعد أن كانوا يخشون مواجهتهم فى بداية الأمر .

---

(١) كارل بروكلمان ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٥١٣

كما أنهم حافظوا على كثير من الوظائف والنظم التى اكتسبوها عن العثمانيين بعد أن ظلوا قرونا طويلة عبارة عن زعماء دينيين يسكنون قمم الجبال الشمالية ، وبذلك بدا أن وجود العثمانيين فى اليمن قد بدأت نهايته ، يتضح ذلك جليا من قول محمد باشا عندما استشار الأمراء والأعوان فى عقد الصلح مع الامام سنة ١٠٢٨هـ " قد طلبتكم لهذا الأمر الذى دامت الفتنة بيننا وبين الإمام مع تضاعف عدد العسكر ، وزيادة المدد لها واتسع مدارها ، ولم يحصل فيها كفاية فى فتح بلاد الإمام ، ومابرحوا واقفين فى الحدود ، فأجابوا بأجمعهم وقالوا : الحركة على الإمام فى هذا الوقت ليس فيها صلاح ولا استمرار غير بذل الأموال وذهاب الأرواح ، وترك كل شىء هو الرأى الصائب فأن الامام القاسم ليس كما كان فى السابق ، وكذلك القبائل ليسوا كما كانوا ، أما الآن فقد عظمت شوكتهم وظهرت قوتهم "كثر معهم السلاح "[1] بالاضافة إلى أن الدولة القاسمية فى هذه الفترة كانت تمثل الجديد القابل للنمو والامتداد بينما الحكم العثمانى كان يمثل القديم المثقل بالأعباء والأخطاء معا ، وعلى سبيل المثال ، فقد كان الحكم الإمامى غير مرتبط بالتكاليف المالية المرهقة التى تثقل كاهل الأهالى بالضرائب الفادحة ، على عكس الحكم العثمانى الذى كان يشتد فى جمع الأموال من الأهالى لتغطية حاجاته الكثيرة المتزايدة ، وانعكس هذا بوضوح فى " أن الامام كان لا يأخذ منهم[2] مالا ولا يفرض سؤالا ، ولا يقبض منهم الا الذى يطابق هواهم "[3] .

---

(١) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٥٨
(٢) أى القبائل
(٣) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٥٨

ومن ناحية ثانية ، نجد أن صفوف الزيديين فى هذه الفترة التى نحن فى صدد الحديث عنها كانت تتمتع بوحدة الصف تحت زعامة الإمام القاسم وأولاده من بعده ، بينما كانت المنازعات والانقسامات بين صفوف العثمانيين تثير الحروب بين بعضهم البعض ، وتضعف من شأنهم ، وذلك كما رأينا أثناء النزاع بين جعفر باشا وعبد الله شلبى الكخيا ، وقد رأينا من خلال هذا الفصل الخلل الذى أصاب نظم الدولة العثمانية وانعكس على اليمن بأوضح صوره مما أضعف من قوتهم ،ومن قوة وجودهم فى اليمن ، وبذلك تحقق فى آخر أيام الإمام القاسم تغير واضح فى ميزان القوى بين الزيديين والعثمانيين ،أى حدوث التوازن بين الامامة والولاية ، ثم حدث تغيرا آخرا فى إمامة أبنائه من بعده وهو رجحان كفة الإمامة على القوة العثمانية والوجود العثمانى مما أدى فى النهاية إلى اخراج الدولة العثمانية من اليمن جميعه .

--•--

الخاتمة

النتائج والتحليل

ان الخاتمة تعنى أن أبين النتائج أو ما توصلت إليه من خلال بحثـــى ، هذه الخاتمة جعلتها قسمين : أحدهما خاص بالقاسميين ، والثانى خـاص بالدولـة العثمانية ، لأبين وجهة نظرى التحليلية بالنسبة للقاسميين والدولـة العثمانية .

وفيما يختص بالقاسميين فقد بدأت بفترة الاستقرار التى سبقت حكـم القاسم ، لأن الفترة التى سبقت ظهور دعوة الإمام القاسم بن محمد كانت كمـا بينا من قبل فترة استقرار للحكم العثمانى فى اليمن ، وقد تضافرت عدة عوامـل لجعل هذه الفترة تتميز عن غيرها من فترات الحكم العثمانى فى اليمن ، ولجعلها تتصف بالهدوء والاستقرار ، وقد بدأت هذه الفترة بداية قوية لأنها كانـت تستند إلى جهود حسن باشا والكخيا سنان ، اللذان استطاعا أن يحافظا علـى النتائج التى حققوها فى اليمن ، وساعدت ظروف اليمن الداخلية على هـدوء الأحوال نسبيا فى هذه الفترة ، فقد توفى المطهر دون أن يخلفه شخص قـوى يستطيع أن يتزعم اليمنيين ، أو أن يقودهم ، بل خلفه أبناء ضعاف تنازعوا الأمر فيما بينهم ، فضعف شأنهم حتى أصبحوا ألعوبة فى أيدى العثمانيين ، ممـا ساعد العثمانيين على القضاء على أى حركة مناوئة لهـم بسهولة ، وبالرغـم مما كانت تعانيه الدولـة العثمانية من خلخلة فى نظمها فى هذه الفترة ، الا أن نجاح العثمانيين فى فرض سيطرتهم فى اليمن حينذاك لا يرجع إلى قوة الدولة أو الى قوة مساندتها للولاة فى اليمن ، بل يرجع إلى قوة شخصية الولاة العثمانيين وضعف موقف اليمنيين ، فقد توفى المطهر وأتاح الفراغ من الإمامة الفرصـة أمام العثمانيين لفرض سيطرتهم على أقاليم اليمن المختلفة وتدعيمها" لقـد

كانت وفاة المطهر بالنسبة للأتراك (العثمانيين) نصرا عظيما وبشرى سعيدة أتاحت لهم المزيد من السيطرة وبسط النفوذ والتنكيل بأعيان البلاد "" [١] ، فأصبحت المنطقة الشمالية موضع طمع العثمانيين بعد أن كانت مصدر إقلاق لهم ، وكان ظهور الإمام الحسن في هذا الوقت أمرا متوقعا نظرا لاضطراب الأحوال في المنطقة ولسوء سياسة الأمراء القائمين بها ،وقد ساعد على ظهور هذا الإمام ، أن المذهب الزيدى بطبيعته يبيح لأى من الأشراف الزيديين اذا توفرت فيه الشروط اللازمة ،أن يعلن إمامته ويدعوا الناس إلى مبايعته ، ولقد نجحت الدعوة في بداية الأمر إلا أن هذا النجاح لم يستمر طويلا لموقف الحكام المعادى منها ، فضعفت الأحوال اليمنية الداخلية ، بالاضافة إلى انهيار الأحوال الاقتصادية نظرا للحصار البحرى البرتغالى ، ونظرا لكثرة الاضطرابات والحروب الداخلية ، لافتقاد اليمن الشخصية القوية التى تجمع حولها العناصر اليمنية ضد العثمانيين ، مما مهد الطريق أمام الولاة العثمانيين مثل حسن باشا وكتخداه سنان باشا أن يوطدوا سيطرتهم على اليمن ،وأن يمدها كل منهما إلى أقصى امتداد لها ، بعد أن تخلصوا من العناصر القوية من أبناء المطهر وغيرهم من الأمراء الشماليين ، بالاضافة إلى أنهم كانوا يوجهون الضربات القوية لأى حركة مناوئة لحكمهم ، خاصة في إقليم ريمه ، وصاب ، ويافع ، والحجرية ، وهناك ملاحظة هامة وهى بالرغم من أننا

---

(١) أحمد حسين شرف الدين - اليمن عبر التاريخ ص ٢٦٤

أطلقنا على هذه الفترة فترة استقرار للحكم العثمانى ، الا أن هذه الفترة لم تهدأ فيها الأحوال نهائيا ، نظرا لطبيعة اليمن الجبلية التى كانت ملجأ حصينا بالنسبة لليمنيين فى أثناء الوقوف فى وجه العثمانيين ، بالاضافة إلى مرونة المذهب الزيدى ، وانتشاره فى المنطقة الشمالية ، فلاغرابة أن يعلن الإمام القاسم إمامته بعد نفى أبناء المطهر والإمام الحسن بسنوات قليلة ، وان يقود اليمنيين ضد الحكم العثمانى ، فكأن فترة الاستقرار هذه كانت ارهاصا لظهور دعوة الإمام القاسم بن محمد ، الذى نجح فى وضع أساس دولة قوية ، بفضل ما تميزت به شخصيته من مميزات ، جعلت له القدرة على إقامة هذه الدولة الرسيّة الزيدية ، فقد كان شديد العزيمة قوى الارادة ، صبورا على المكاره ، قائما بالعظائم ، وليس أدل على ذلك مما تحمله من الأذى والمشاق فى سبيل نشر دعوته ، لأن ذلك لم يكن بالأمر السهل ، كما أوضحنا من قبل ، وقد رأينا كم من العقبات والانتكاسات صادفته ، فكان يتنقل من مكان الى آخر يتلمس الأعوان والأنصار ، وكان العثمانيون يضيقون عليه الخناق ليستسلم دون جدوى ، كما أن سنان باشا عرض عليه بعض البلاد ليحكمها مع كفايته هو وأولاده ، لكى يكف عن دعوته ، فلم يرض الإمام بذلك لأن هدفه كما قال هو لم يكن امتلاك الأراضى أو الحكم ، كما أن القبائل كثيرا ما كانت ترفض اقامته لديها خوفا من بطش العثمانيين ، وكان الإمام يتقبل هذه الأمور بتجلد وصبر ، ويدعو الله محتسبا به ، ومثال ذلك حين دب الرعب فى قلوب القبائل بعد أسر ولده الحسن فى بلاد عُذر وظُليمة والأهنوم وبلاد صعدة ، وفى هذا يروى لنا السيد عبد الله العريانى ما يدل على ذلك فى قوله : "كنا مع الإمام فى نواحى حُور ، فأتخذ الإمام موضعا خاليا . . وتوارى الإمام فى بعض

الشعاب ثم كشف رأسه ودعا الله سبحانه بدعاء ، وبكا بكاء كثيرا حتى سمعه الفقيه "[1]

وهناك الأمثلة العديدة الأخرى التى تدل على تحمله للمشاق ، فقد ضاع من الامام نعاله أثناء خروجه من شهارة سنة ١٠٠٩هـ متخفيا من العثمانيين ، فكان يربط بعض ثيابه على أقدامه ليتابع سيره فى هذه المناطق الجبلية الوعرة إلى برط ، هذا بالاضافة إلى ايمانه الشديد بالله التى تميزت به شخصيته ، وذلك يرجع إلى النشأة الدينية التى نشأها ، ويظهر ذلك جليا فى خطاباته التى يرسلها للناس كافة أو إلى أولاده وولاته فى البلاد ، فكثيرا ما كان يبدؤها بآيات قرآنية مطابقة للغرض من هذه الخطابات فمن كتبه لأهل وادعة حاثا على الجهاد بقوله " يا أيها الذين ءامنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ،تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون "[2]

ومن كتبه لأصحابه " اذا عزمتم فتوكلوا على الله وابقوه ، وحافظوا على الصلوة ، ولا ترضوا منكرا ينصركم الله ، وتواضعوا لله ،وتيقنوا أن ليس النصر الا من عند الله "[3] كما يظهر تمسكه بالدين وايمانه بالله فى توجيه أبنائه

---

(١) الشرفى - اللآلئ المضيئة ص ٢٢٤
(٢) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٩ - القرآن الكريم صورة الصف آية : ٩
(٣) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٧

فقد أوصى ولده محمدا (المؤيد) بقوله " إنى أوصيك أن لا تترك القـرآن يوما واحدا ، ولو فى كل يوم جزئين ، أو جزءا واحدا ، ولا تترك ذلك أبدا ، وعليك بصلاة الجماعة ، فانها من الواجبات ، ولا يغرك قول من يقول أنها سنّة، وعليك بملازمة العلم وطلبه فانه من أكبر الفرائض . . " [١]

وهناك العبارات التى كثيرا ما رددها الإمام تعبيرا عن شدة ايمانـه بالله ،فعندما سجن ابنه الحسن قال " أنا قد أودعت ولدى الله سبحانـه وتعالى ، وهو لم يخيب لديه الودائع . . واننى أترك ولدى وديعة لله سبحانه وتعالى حتى يفرج الله عليه " [٢] وذلك لأن العثمانيين منعوا اطلاقه مـن السجن ورضوا باخراج سائر المسجونين فى صلح سنة ١٠٢٨هـ، كما أشـير لذلك فى الفصول السابقة ، كذلك كان الإمام اذا هزم أو تعرض لأذى العثمانيين ينسب ذلك إلى تقصيره فى حق الله فقد قال لأصحابه أثناء حروب الكـرة الثالثة مع جعفر باشا " أترون هذه الشدائد ، انما آتتنا من قبل تقصيرنـا فى حق الله ،فهلموا نستغفر الله العظيم " [٣] كما أن الامام كان كثير التفاؤل قليل التشاؤم ، فقد تفاءل بالشيخ عبد الله بن مسعود - أحد مشايخ قارة - وكان أول المبايعين لدعوته ، اذ كان وسيم الوجه وافر اللحية ،كما أنه استبشر بالفرس الذى أهداها له الشيخ أبو زيد - شيخ بنى سنحان وأول من ناصر دعوته - اذ سأل الإمام عن اسم الفرس فقيل له اسمها الفتح فتيمن بها ،

---

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة - ص ١٤٢
(٢) الشرفى - اللآلئ المضيئة ص ٢٨٣
(٣) الجرموزى - النبذة المشيرة - ص ٢١٥

وقد سمع الفقيه عماد الدين يحيى بن محمد يقرأ أثناء حصار شهارة سنة ١٠٠٩ هـ قوله تعالى : " يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا " وكان الإمام مفكرا فى أمره فتفاءل بذلك وخرج إلى برط ، وفى أحد الأيام سمع صوت طائر قبيح المنظر فتشاءم قائلا " معنا فى هذه الليلة غدر "[1].

وبالاضافة إلى هذه الصفات المميزة لشخصية الإمام ، فانه كان محاربا وسياسيا محنكا ، فكان يستطيع أن يحمل البندقية ويقاتل بها ، وهذا شىء عظيم بالنسبة لذلك الوقت الذى نحن بصدد الحديث عنه ، لأن استعمال البنادل كان شيئا حديثا بالنسبة لليمنيين ، وكان استعمالها مقصورا على أرباب الدولة العثمانية فقط ، كما تظهر قدرته الحربية كذلك فى مهاجمة قوات العثمانيين ومناوشته دون التصادم معها ، وهو ما يعرف حاليا بحرب العصابات التى تعتمد أساسا على الكر والفر السريع وعلى عدم الصدام الجماعى بالجيوش النظامية ، بل تعتمد على الجهود الفردية ، وتكبيد العدو أكبر قدر ممكن من الخسائر ، وقد استغل هذه الطريقة لمعرفة أصحابه بطبيعة أقاليمهم ، وعلى خفة حركتهم ، ومرونتهم التى تمكنهم من الاختفاء السريع بعد الحاق الضرر بعدوهم ، فكان الإمام كثيرا ما يلجأ إلى جبال حصينة ، مثل جبل شهارة ، وجبل برط ، التى يصعب على العثمانيين نقل عددهم الثقيلة إليها ، كما يصعب على خيولهم صعود هذه الجبال مما كان له أكبر الأثر فى نجاح حروبه

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٢٦٤

ضد العثمانيين ، كما تظهر حنكته السياسية حين هرب ابراهيم بن المعافا بمعاونة بعض رجال شهارة المعادين للإمام ، أثناء تسلم الإمام شهارة سنة ١٠١٥هـ وكان الإمام قد احتجزه ليخرج به ولده محمد من أسر كوكبان ، فتظاهر الإمام أن هذا الرجل هرب بنفسه من غير عمل أحد ، وتظاهر بالتفتيش عنه ، رغم معرفته بمكانه ، وذلك لكي لا يثير الفتن والقلاقل في شهارة ، بعد أن تسلمها ولكي يتمكن من القبض على بن المعافا وتحقيق غرضه منه ، ومن حسن سياسته أيضا تعظيمه لعبد الرحيم بن عبد الرحمن رغم معرفته التامة بخداعه ، وشراسة أخلاقه ، وانما كان غرضه من تعظيمه أمام السامعين أن تخلص موالاتهم للإمام ، وأن يكسب عبد الرحيم وهو أحد أمراء آل شرف الدين إلى جانبه وهم يمثلون الجبهة الثانية في حرب دعوته لأن العثمانيين استخدموا أمراء آل شرف الدين لمحاربة الإمام ، فكان يرى الإمام في كسب عبد الرحيم إلى جانبه قوة معنوية ليتقوى بها ، خاصة وأن نفوذ عبد الرحيم اتسع وتقوى اثناء بدء دعوة الإمام وتحقق بالفعل ماكان يرمي إليه الإمام من وراء تلك السياسة ، اذ تشجعت القبائل على الإعلان عن أنفسهم دون خوف من العثمانيين ، أو دون خوف من عبد الرحيم نفسه الذي كان يشتهر بالغلظة والشدة .

كما اشتهر الإمام القاسم بقدرته على جذب القبائل إليه متخذا الجانب الديني واتصال نسبه بالرسول صلى الله عليه وسلم لتقريب هذه القبائل إليه ، وذلك نظرا لتعلق الجبليين بالسلوك الديني وفقا لطبيعة هذا العصر ، كذلك استخدم المال في تقريب بعض القبائل إليه ، كما أن الإمام قد عبر بمهارة

عن تذمر اليمنيين من سياسة العثمانيين وأخطائهم الفردية أوالجماعية ، فكان يحرض الأهالى على القتال بتذكيرهم بما ارتكبه العثمانيون من أخطاء ومظالم ، وكانت كتبه إلى القبائل المختلفة تمتلىء بمثل هذه الاشارات، فقد وجد الإمام القاسم فى أخطاء العثمانيين ومفاسدهم مادة غزيرة لتقوية مركزه وإلى حض اليمنيين على التخلص من حكم العثمانيين والى اخراجهم من بلادهم ،

وقد لجأ الامام القاسم أحيانا إلى ادعاء الكرامات مستغلا فى ذلك جهل العامة فى تفسير الظواهر الطبيعية ، ونرى فى المخطوطات التى تعرضنا لها الكثير من هذه الكرامات مثل ربط خسوف القمر أو كسوف الشمس بحادثة لها أثر عظيم فى الدولة ، وقد أبرز أحد الخطابات لأصحابه مدعيا أنه من على بن أبى طالب (رضى الله عنه) فيه ذكر قيام إمام فى ذلك الوقت، وقد أظهر هذا الخطاب عندما وجد أن بعض أصحابه قد انفضوا من حوله .

وكان الإمام القاسم كثيرا ما يلجأ إلى رفع الروح المعنوية لدى أتباعه باشعال النيران فوق قمم الجبال فى الليل لاعلان انتصاره وارهاب العثمانيين ، اذ كانت العادة المتبعة لدى اليمنيين اذا وقع حرب بين قبيلتين ، فان القبيلة المنتصرة تشعل النيران فوق قمة جبلها لإعلان فرحها وسرورها بالنصر الذى حققته على القبيلة الأخرى ، وقد فعل ذلك الإمام القاسم عندما تمكن من الخروج من شهارة إلى برط سنة ١٠٠٩ هـ ، كما تحلى الإمام القاسم بصفة الشفقة والرحمة، فكان يتفقد المساكين من حين إلى آخر، كما شملت رأفته الحيوانات فقد قال لأحد أصحابه عندما دخل شهارة فى سنة ١٠١٥هـ " يا قوم

ها هنا بقية هرر من سناجيب العجم قد بلغت من الجوع ، ولا تأكل العنب تأذنوا بتفريق هذه لها (يعني قطع من اللحم) "[(١)] .

هذه أبرز السمات الشخصية التي تميز بها الإمام القاسم ومكنته من وضع أسس الدولة القاسمية التي استمر نموها في عهد أبنائه من بعده ، اذ استطاعوا في عهد ولده الإمام الموئيد اخراج العثمانيين سنة ١٠٤٥هـ = ١٦٣٥م اذ كانت أسس هذه الدولة قائمة على تعالم الدين الاسلامي الحنيف والسنة النبوية الشريفة ، فقد اقام الإمام الحدود على السارق والزاني وشارب الخمر وغيرهم ، وقضى على البدع والخرافات التي انتشرت في اليمن ، وطلب من الأهالي التمسك بأهداب الدين ومحاربة العادات المنتشرة بينهم ، فقد أمر بقطع شجرة كان الأهالي يتقربون إليها بالذبائح والقرابين ،[(٢)] كما كان يمنع الناس من اقامة القباب على الأضرحة ، لأن ذلك من البدع التي ابتدعها الأهالي لتعظيم الموتى ، وكان اذا فتح بلدة أراق ما بها من أدنان الخمر، ففي أثناء حصار شهارة سنة ١٠١٥هـ ودخوله إليها " وجد الخمور باقية فأمرهم الإمام باراقتها "[(٣)] وقد نشر العدل بين الناس وحرص على اقامة الجماعة ، وكان يشاور أصحابه في جميع الأمور في الحرب والسلم ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وينصف المظلوم من الظالم ، ويرعى الفقير والغني على السواء ولا يأخذ من الرعية الا ما يوافق هواهم من الخراج ، كلا على حسب قدرته ،

---

(١) الجرموزي - النبذة المشيرة ص ١٢٢

(٢) نفس المرجع ص ١٧٠

(٣) نفس المرجع ص ١٦٥

بهذه الدعائم بنى الإمام قواعد دولته التى استطاعت أن تستمر ويقوى ساعدها فى عهد ابنه المؤيد الذى تسلم الحكم من بعده عن طريق الاختيار وليس بالنص، لأن التوريث ليس من مذهب الزيدية ، وانما اشترطوا أن يخرج الإمام داعيا ، وذلك يدل على خلو اليمن من إمام قوى ينافس المؤيد ، والا لانضم إليه البعض دون البعض وحدثت الفتنة فى اليمن ، لكن تميز أول حكم المؤيد بالاستقرار والهدوء بفضل الصلح الذى عقد بين الإمام القاسم ومحمد باشا سنة ١٠٢٨ هـ ، واستمر فى عهد ولده محمد من بعده ، فأخذ الامام المؤيد يقوى قبضته فى داخل ممتلكاته حتى يثبت دعائم حكمه ، ومن ثم بدأ خطوته التالية لاخراج العثمانيين من اليمن بمعاونة أخواته أحمد والحسن والحسين ، واستطاع أن يستولى على الأقاليم الشمالية جميعها سنة ١٠٣٦ هـ بعد نقض صلح سنة ١٠٢٨ هـ كما سبقت الإشارة الى ذلك ، ولم يبق فى أيدى العثمانيين الا حصنا عُمران وثلا ، كما لم يبق فى أيدى حلفائهم آل شمس الدين بن الإمام شرف الدين غير حصنى كوكبان والطويلة [1] ، حتى هذه الحصون الباقية لم تمكث طويلا ، اذ تساقطت هى وغيرها من الحصون الأقل أهمية فى أيدى قوات الإمام المؤيد ، وكان الأمير عبد الرب بن على بن شمس الدين أمير كوكبان هو ركيزة العثمانيين الوحيدة الباقية من أسرة الامام شرف الدين الذى ظل متعاونا مع حيدر باشا ضد أتباع الإمام المؤيد حتى اضطر أخيرا إلى التسليم فى ٢٥ رجب سنة ١٠٢٦ هـ = ١٦٢٧ م [2] فأبقاه الإمام المؤيد فى حصنه فى كوكبان وأمن حياته ،

---

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح جـ ٣ ص ٣٤٤

(٢) تاريخ دولة الترك - ص ٣٩ (المؤلف مجهول)

وأصبح حينئذ هو وأسرته من أكبر أعوان الإمام وحاربوا إلى جانبه ، وبعد ذلك أخذت الأقاليم اليمنية المختلفة تخلع طاعتها للعثمانيين ، وتعلن انضمامها إلى الإمام المؤيد ، ودان أشراف صبيا وجيزان والجوف للإمام بعد مناوشة بينهم وخضعوا له مقابل ابقائهم فى مراكزهم [١] ، ومن ثم أصبح هؤلاء الأشراف وخاصة أمير الجوف من أهم أعوان الإمام المؤيد اذ استطاع أن يستولى على تعز بمعاونة الحسن بن الإمام القاسم ،لما لجأ أمير زمار [٢] (التركى) إلى الحسن ابن الإمام القاسم لاختلافه مع حيدر باشا ،فأبقاه الحسن فى ولايته واستعان به فى قيادة بعض قواته [٣] ، ثم اتجه الحسن بن القاسم إلى تشديد الحصار على صنعاء سنة ١٠٣٦ ، حتى ان حيدر باشا طلب الصلح على أن يغادر صنعاء سالما بجنوده وعتاده إلى جنوب اليمن ، ولكن هذا الصلح لم يتم ، وأصر الحسن على خروج حيدر باشا من صنعاء بدون قيد أو شرط ، وطال الحصار على صنعاء لمدة عامين كاملين ، حتى اضطر حيدر باشا أخيرا للاستسلام لقوات الإمام المؤيد ، وسلم لها المدينة بعد أن اشترط أن يخرج منها سالما إلى زبيد ، وكان ذلك فى أول رجب سنة ١٠٣٨هـ = ١٦٢٩ م [٤] ، وبعد سقوط صنعاء اتجه الحسن والأمير عبد الرب بن شمس الدين لاخضاع المنطقة الجنوبية حتى عدن فبسط يده على تعز ، ثم سارع أمير عدن الى الدخول فى طاعة الإمام المؤيد. [٥]

---

(١) العقيلى - من تاريخ المخلاف السليمانى ، القسم الثانى من الجزء الاول ص ٣٣٥
(٢) زمارة جنوب صنعاء
(٣) الكبسى - اللطائف السنية ص ٤١٠
(٤) عيسى بن لطف الله - روح الروح جـ ٣ ص ٣٨٣
(٥) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٦٥

وهكذا تم للإمام المؤيد فى خلال عامين فقط من مد سيطرته إلى أقاليم اليمن المختلفة بما فى ذلك صنعاء ، وتعز ولم يبق فى يد العثمانيين سوى زبيد والأقاليم التهامية المحيطة بها مما أثار ذلك الرغب فى قلوب العثمانيين ، فأرسل والى مصر إلى والى الحبشة بالتوجه إلى اليمن لنجدة العثمانيين به ، فوصل عابدين باشا إلى ميناء المخا على رأس ألف جندى سنة ١٠٣٧ هـ = ١٦٢٧م [١] . ولكن عابدين باشا فشل فى انقاذ موقف العثمانيين فى اليمن ،فقد ظل فى ميناء المخا حتى تقدم الحسن بن القاسم إليه وحاصره به فكان ذلك سببا فى تقوية الروح المعنوية لقوات الإمام المؤيد ، فما كان من ولاة مصر الا أن أرسلوا قانصوة باشا لاستعادة أملاك العثمانيين هناك ، رغم ما كانت تعانيه الدولة فى ذاك الوقت من ضعف عام وخلخلة نظمها، وقد بذل فانصواة باشا جهودا من أجل استرجاع أملاك العثمانيين ولكن هذه الجهود منيت بالفشل ، وركز قانصوة باشا جهودة فى تهامة فقط ، نظرا للاستعدادات الضخمة التى أعدها الإمام المؤيد تحت قيادة أخويه الحسن والحسين ، حين علم بضخامة قوات قانصوة باشا ، وتعمد الأخير النزول عند أبى عريش فى أقصى شمال الساحل اليمنى لاشاعة الخوف بين اليمنيين ولاسترجاع شمال تهامة من الإمام المؤيد وذلك سنة ١٠٣٩هـ = ١٦٢٩م ، وقد نجح قانصوة باشا بعض الشىء فى مد السيطرة العثمانية فى أقاليم تهامة ، بعد

---

(١) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٦٥

أن تخلص من عابدين باشا ، لكن قانصوة باشا فشل في احراز نجاح بعد ذلك ، فقد دارت جهوده الحربية في داخل دائرة ضيقة محدودة ، يمتد قطرها بين زبيد والمخا فقط ، وذلك بعد أن فشل في التقدم إلى تعز حيث لقيت جنوده هزيمة في آخر رمضان سنة ١٠٣٩هـ = ١٦٣٠م وهرب قائد الجيش مذعورا قبل بدء القتال [١] ، مما اضطر قانصوة باشا لطلب الصلح لمدة سنة من المؤيد ، وتم ذلك سنة ١٠٤٠هـ = ١٦٣١م .

وقد رأى المؤيد وأخوته برأيهم الصائب ، أن في عقد الصلح فرصة لتثبيت أركان حكمهم ، ولتنظيم شئون البلاد للاستعداد لتوجيه الضربة الأخيرة للعثمانيين ، فقد قام الحسن بتفقد البلاد ، واصلاح الحصون والقلاع ، وتوفير مايلزم من السلاح والعتاد لجميع الجيوش في الأقاليم المختلفة [٢] ، ثم قضى الحسن على الاضطرابات حول عدن حتى لا ينتهز العثمانيين الفرصة لاسترجاعها [٣] هذا في الوقت الذى كانت قوات العثمانيين تتمزق من الاضطرابات ومن قلة الأموال .

ثم تجددت الحرب ثانية سنة ١٠٤٣هـ ، ولم يحرز قانصوة باشا أى انتصار

---

(١) تاريخ دولة الترك - ص ٥٦ ، ٥٧ (المؤلف مجهول)

(٢) نفس المرجع ص ٥٨

(٣) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٦٨

يذكر في تلك الحروب التي تركزت حول زبيد والمخا أمام قوات الحسن بن القاسم ، بالاضافة إلى التفاف أهالي المنطقة الجنوبية حول الحسن وانضمامهم إلـــى جيوشه ،[1] مما اضطر قانصوة باشا لطلب الصلح مرة ثانية لمدة سنة ، فوافق المؤيد بالرغم من معارضة أخيه الحسن ، فعقد الصلح في ٢٠ محرم سنـــة ١٠٤٥هـ = ١٦٣٥م[2] ، الا أنه بعد عقد الصلح بشهر تحايل قانصوة باشـــا حتى هرب من زبيد ولجأ إلى معسكـــر الحسن بن القاسم وسلم نفسه له لضعف شأنه وموقفه ، ولازدياد تمرد الجند وتعديهم عليـــه ، وقد أكرم الحسن وفادة قانصوة باشا حتى غادر اليمن بحرا إلى مصر ،[3] فجاهر بعض الجنود بالذهاب إلى معسكـــر الحسن ابن القاسم أو إلى خارج اليمن ، وبايع البعض الأخـــير الأمير مصطفى الكتخدا واليا عليهم لمواصلة الدفاع عن أنفسهم ، غير أن الأخـــير لم يمكث طويلا ، بل طلب الصلح مع الحسن على شرط مغادرة اليمن هـــو وجنوده سالمين ، فتم خروج العثمانيين في العشر الأوائل من شهر جمادى الأولى سنة ١٠٤٥هـ = ١٦٣٥م[4] .

وهكذا تم اجلاء العثمانيين في هذا الوقت ، فأصبح اليمن أول ولاية عربية تنفصل عن السيـــادة العثمانية ، التي أمتدت إلى كافة أجزاء الوطن العربـــي ماعدا المغرب الأقصى ، خلال النصف الأول من القرن السابع عشر الميـــلادي ،

---

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح جـ ٣ ص ٣٢٣
(٢) تاريخ دولة الترك - ص ٦٢ (المؤلف مجهول)
(٣) نفس المرجع ص ٦٤
(٤) عيسى بن لطف الله - روح الروح جـ ٣ ص ٣٩٣

وقد ظل حكم الأئمة الزيديين من أبناء القاسم بن محمد ما يزيد عن المائتي عام حتى عاد العثمانيون ثانية إليه سنة ١٨٧٢م ، وكان خروج العثمانيين من اليمن بهذه الطريقة على أيدى أبناء الإمام القاسم يرجع إلى حسن توبية الإمام لأبنائه وتنشئتهم نشأة صالحة مبنية على تعاليم الدين الحنيف وعلى التعاون ووحدة الصف ، وعلى حسن تدريبهم تدريبا عسكريا صارما ، فقد كان يشركهم معه فى جميع المعارك منذ نعومة أظافرهم ، اذ خرج الحسن إلى ساحة القتال وهو فى سن الخامسة عشرة من عمره عندما خرج إلى بنى جبر فى أيام استقرار الامام فى وادعة سنة ١٠١٣هـ = ١٦٠٤م وكذلك أخيه محمد الذى تعرض لأشد الأزمات أثناء حصار شهارة سنة ١٠٠٩هـ = ١٦٠٠م ولم يرضى بخروجه رغم أن أصحاب والده جاءوا لاستخراجه هو واخوانه ، وذلك حرصا على أرواح أهل شهارة حيث قال "لقد وهبت نفسى لله سبحانه ، ولمن فى شهارة المحروسة بالله مع المسلمين ، والعلماء ، والمستضعفين ، وأن الامام لم يأمرنى بذلك ، وفى بقائى سلامة لمن فى شهارة" [(١)] ، هذه الكلمة يظهر أثر التربية الصحيحة ، وحرص الولد على تنفيذ أوامر والده الذى هو بمثابة قائده العسكرى ، ولو كان ذلك على حسب عواطفه ونفسه ، وتظهر كذلك آثار تلك التربية الصالحة فى الخطابات التى كان يوجهها الإمام لأولاده فى المناطق التى كان يعهد إليهم بادارتها ، فقد أرسل لابنه أحمد حين ولاه أعمال صعدة فى النهضة الرابعة فى شهر رجب من سنة ١٠٢٧هـ = ١٦١٧م بقوله :

---

(١) الجرموزى _ النبذة المشيرة ص ١٤٠

" استخرت الله سبحانه وتعالى ، وجعلت للولد صفى الدين أحمد ولاية صعدة وبلادها . . وما ولاها من البلاد تقيم فيها الجمعات ، وتقبض الحقوق والواجبات ، وتقيم الشريعة المحمدية ، وتقسم فى الناس بالسوية ، وتنصف المظلوم من الظالم ، وتؤدب أهل الحرام ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتوفير الحقوق ، وجعلها حيث تأمره به والامتثال لما قلنا والاستفهام لنا فيما التبس عليه من الأمور . . وعلى ازالة البدع والمنكرات ، وعليه العمل بتقوى الله ، والتواضع ، وتقريب أهل الفضل ، والحث على طلب العلم ، وافتقاد المساجد ، والمصالح والطرقات ، واقامة الشريعة وتنفيذها ، وتعهدها ، وابطال الأحكام الخارجة عن الشريعة " (١)

هذه كلها وصايا ثمينة متضمنة أحكام الشريعة ، حيث أنه لم يترك جانبا الا وأوصاه به ، حتى طلب العلم ، واصلاح المساجد والطرقات بما فيه الصالح العام والخاص ، وهكذا الحال مع أولاده جميعا ، ومن وصايا الامام لابنه :

" يابنى اتقوا الله بكرمكم الله ، وصلوا أرحامكم يطول الله أعماركم ويبارك فى أموالكم ، وأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر . . اياكم ودماء الناس ، فان تبعاتها فى الدارين عظيمة ، واصلحوا المال ، واكرموا الضيف بما تجدون ،

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٧

ويكن لكم عن طلب العلم مانع يستغرق أوقاتكم ، ولكن قسموا أوقاتكم واجعلوا خيرها وأكثرها فى طلب العلم الا ما كان لابد منه فى اصلاح حالكم "(١).

فكان لهذه التربية الحكيمة أثر عظيم فى تعليمهم الحنكة فى معاملة القادة السياسيين ، مثلما فعل محمد بن القاسم مع محمد باشا بعد وفاة والده لاستمرار الصلح ، لأن فى ذلك فرصة لاستقرار حكمه ، خاصة وهو فى بدء حكمه اليمن ، وتوثيقا للصلات بينهما أهدى محمد المؤيد إلى الباشا كتاب الكشاف ، كما تعلموا من والدهم طريقة التخفى فى الخروج من بلد الى آخر ، وفى ارسال الخطابات بأسماء تعطى المعنى دون التعرف عليهم وذلك لحماية أنفسهم ، وهى كطريقة الشفرة المعروفة حديثا فى ارسال الخطابات السرية ، فقد أرسل الامام يطمئن على ولده الحسن عندما أسر فى الدار الحمر أحد رسله متخفيا فى زى (قهوجى) حيث وضع فى اناء القهوة ورقة لمعرفة أحوال الحسن ، فقرأ الحسن الورقة ورد عليها بتوقيع موسى بن على قائلا" ان لكل فرعون موسى ، فأنا موسى الترك وابن على يريد جده عليا رضى الله عنه "(٢).

بهذه الوصايا وهذه التربية التى ربى الامام عليها أولاده استطاعوا أن يقيموا صرح دولتهم القاسمية وأن تنمو قوة الامامة الزيدية التى استطاعت أن تفرض وجودها فى اليمن كله بعد خروج العثمانيين منه سنة ١٠٤٥هـ = ١٦٣٥م ،

---

(١) الشرفى - اللآلىء المضيئة ص ٢٦٦
(٢) الجرموزى- النبذة المشيرة ص ٢٨٢

وقد اتسعت رقعة الدولة في عهدهم ، خاصة في عهد المتوكل على الله اسماعيل ، اذ امتدت حدود الدولة حتى عمان وفى سنة ١٦٤٤ امتد نفوذها حتى شملت لحج وعدن وحضرموت والشحر ، فكان أول إمام يشمل نفوذه اليمن بأسره ، وكان عهده أزهى عهد الإمامة الزيدية في اليمن ، فقد كثرت في عهده الخيرات وازداد عدد العلماء والمتعلمين ،[1] وذلك لأنه تسلم مقاليد الحكم بعد أخيه المؤيد الذى سلمه اياه وقد استقرت دعائم الدولة ، فحكم الإمام المتوكل اسماعيل لمدة ٣٣ عاما لم يحدث خلالها أى اضطرابات ، وكانت تصرفاته يغلب عليها العدل والسخاء والحكمة والدهاء والبراعة فى الادارة ، وحسن اختيار الولاة وقواد الجيوش وحماة الأطراف وسن الأنظمة ، ومع هذا فقد كان أستاذا فى فنون العلم ، كرس أوقاته اليومية وقصرها على أمور ثلاثة : ادارة شئون البلاد ، وتدريس العلم لتلاميذه الذين يفدون إليه من الآفاق حتى أصبح معظم علماء عصره من خريجى مدرسته ، بالاضافة إلى العبادة والذكر ، كما اتصف الحسن بن القاسم أكبر أبناء الإمام بالشجاعة والاقدام وله الفضل فى انتصار جيوش المؤيد فى معاركه مع العثمانيين ، وقيل عنه "انه نظير المطهر بن شرف الدين أو أرفع منه فى الشجاعة والرياسة"[2] .

---

(١) جاد طه ـ السياسة البريطانية فى اليمن ص ٢٩ ،
العرشى ـ بلوغ المرام ص ٦٧

(٢) أحمد حسين شرف الدين ـ تاريخ اليمن الثقافى جـ ٤ ص ٢٥٢

وقد أقامت الدولة علاقات ودية مع الدول المجاورة لها ، مثل بلاد الحبشة ، فقد أرسل الامبراطور فاسيلاداس Fasladas امبراطور الحبشة بعد قطع علاقته مع أوربا ، وبعد أن أخذ يتلمس طريقا للاتصال بالمسلمين ليقيم معهم علاقات سياسية وتجارية ، فأرسل للإمام المؤيد سنة ١٠٥١هـ = ١٦٤١م وفدا محملا بالهدايا الثمينة ليعقد معه معاهدة ودية تسمح للحبشة باستعمال موانىء اليمن بعيدا عن الموانى التى تقع تحت السيطرة العثمانية ، وقد أعاد الامبراطور الكرة مرة ثانية فى عهد الامام المتوكل على الله اسماعيل سنة ١٠٥٧هـ = ١٦٤٧م [١] ، ولكن لم تذكر المصادر هل تمت هذه المعاهدة أم لا ... ؟

هذا وقد ظهرت نهضة علمية فى عهد الدولة القاسمية كان بدء مظاهرها فى عهد الإمام القاسم بن محمد ، وحمل لواءها من بعده أولاده الذين أكثروا التأليف ، اذ كان الإمام القاسم كثير التأليف حتى فى أثناء خوض المعارك مع العثمانيين ، ففى أثناء اختفائه فى برط ألف كتابه (الأساس) فى أصول الدين فى مجلد ضخم ، وقد قال فى آخر مقدمته هذه الأبيات :

هذا الأساس كرامة فتلقه   يا صاحبى بكرامة الأنصاف
وأحرز نفيسا من نفائس نشره   جمعت بغوصى فى خضم صافى [٢]

---

(١) الحبيد - مقالة سفارة الامام المتوكل الى الحبشة (مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية) ص ٣٠

(٢) أحمد حسين شرف الدين - تاريخ اليمن الثقافى جـ ٤ ص ٢٧٠

وقد تعرض لشرح هذا الكتاب جماعة ، واعترض على بعض ما فيه آخرون منهم الكردى المكى بكتاب سماه (النبراس) وأجاب العبدى على اعتراض الكردى بكتاب سماه (الاحتراس) [1] ، فكأنه أوجد بكتابه هذا حركة فكرية ، وكان كتاب الأساس مرجع أهل اليمن من الزيدية فى أصول الدين ، كما ألف كتابا آخر فى النحو سماه (التحفة) ، وله كتاب (الارشاد فى معرفة أعمال العباد عند فقه الاجتهاد) ، وبعد ما استقر الإمام فى شهارة ألف كتاب (الاعتصام) فى الفقه ، جمع فيه بين كتب أئمة آل البيت وكتب المحدثين من الأمهات ، ثم رجح كل مسألة بما يقتضيه اجتهاده ، ولكنه توفى قبل اكمال هذا الكتاب ، فلم يبلغ فيه الا إلى كتاب الصيام ، وقد أكمله بعده حتى كتاب الحج السيد أحمد بن يوسف بن الحسين بن أحمد زباره المتوفى سنة ١٢٥٢ هـ ، وقد سلك فى تتمته مسلك الإمام القاسم بن محمد ، فجاء كتابا نفيسا سماه (أنوار التمام المشرقة بضوء الاعتصام) فى مجلد ضخم [2] ، وقد بلغ من أهمية الاعتصام والأساس أنهما أصبحا من أهم مصادر الفقه والأصول حديثا ، وله كتاب (التحذير من المعاونة على الفتنة) الذى رد فيه على العلماء الذين أصدروا فتوى بجواز مداراة الظلمة ، وله كتاب (الجواب المختار على مسائل عبد الجبار) [3] ، وقد برع الامام القاسم كذلك فى انشاء القصائد الشعرية ، فله قصيدته المشهورة فى انكار الصوفية وأعمالهم القبيحة وسماها الكامل المتدارك فى بيان مذهب المتصوف الهالك ، التى قال فيها :

---

(١) الشوكانى - البدر الطالع جـ ٢ ص ٤٧ ، ٤٨

(٢) نفس المرجع جـ ٢ ص ٤٨

(٣) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ٤٦

معاول الأقوام ثمت أحدثوا   بدعا تخالف آل أحمد عن بد

وبرا المسجد لا يقوم بركعة   الا لشخص قاعد متمهد

يارب والحقني غد لمسرتي   ان كان أغراق الزنادق في غد

ولما ظهرت هذه القصيدة شكا الصوفية إلى سنان باشا ، فأمر الأخير الشريف محمد بن عبد الله بن الامام شرف الدين ، أن يجيب الإمام القاسم عليها، فرد الامام بقصيدة أخرى سماها (حتف أنف الافك) قائلا :

الحق أبلج واضح للمهتدى يهدى الى سنن السبيل الأقصد

والدين قد وضحت معالمه   وضوح الشمس لا يخفى على المسترشد

ومن هذه القصائد والرد عليها نستنتج بأن هناك انتعاش في حركة التأليف في عهد الإمام القاسم ، وبالاضافة إلى تلك القصائد ،هناك الكثير من الاشعار في مناسبات مختلفة منها :

يضيع حق الأله في الناس أجمعا   تضعضع دين الله حتى بصنعا

وأضحى كتاب الله فيهم مهجرا   وبدله الفارون شعر مضرعا

وسنة خير الرسل في الناس أهملت   واضحت صنوف اللهو مشيعا

ومما قاله في احدى مرات اختفائه :

الا يا الهي أني خاضع   واني في الاحسان منك لطامع

وأنك رحمن رحيم وواهب   لخلقك الا فضلك جامع (١)

---

(١) الجرموزي ـ النبذة المشيرة ص ١٠١ ، ١٢

وفي إثناء تخوفه من العثمانيين وهو في برط قال قصيدته المشهورة باسم استفتاح الفرج وبدأ بقوله :

يا حي يا قيوم ياغوث الـــذى   يشكو إليك من الذى قد حـــار
يا من يجبر بفضله مستضعفـــا   مستصرخا متضرعا لك حـــار (١)

كما أن له نظم في المواعـظ والعلوم والزجر والتهديد فمن ذلك قوله :

ياذا المريد لنفسه تثبتـــا   ولدينه عند الاله ثبوتـــا
اسلك طريقة آل احمد واسألـــن   سفن النجا يسألوا ياقومّـــا

ومن قصائده إلى السيد عبد الله بن علي المؤيدى الذى دعا إلى نفســه ورام معارضة الإمام بقوله :

ان كنت تبغى هدم دين محمد   فانا المريد أقيمه بدعائـــم
أو كنت تخبط في غيابه باطـــل   فأنا المزيل ظلامها بعزائـــم (٢)

وله قصائد متعددة في الرثاء ، فقد رثى عمه عامر عندما قتله العثمانيون وكذلك ابنه علي عندما قتل في موقعة " الشقاب " التي مر ذكرها .

وبذلك نرى أن الامام القاسم قد حمل لواء النهضة العلمية في عصره وأكملها أولاده من بعده ، فقد أخذ أبناء الإمام القاسم العلم عن والدهم ، وعن كبـــا ر

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٢١
(٢) الشوكانى ـ البدر الطالع جـ ٢ ص ٥٠

علماء الزيدية مثل الشيخ لطف الله بن محمد الغياث وغيره من العلماء ، ففي أثناء أسر أولاد الإمام محمد وأحمد في كوكبان أحرز محمد (المؤيد) ينابيع العلوم لأنه حبس مع أعيان العلماء فاشتغلوا بالدرس [١] ، فلم يضيعوا الوقت هباء ، وقد نبغ أبناء الإمام القاسم في العلوم البيانية والمنطقية والنحوية وقد اشتغلوا بالحديث والتفسير والفقه ، ولهم مؤلفات كثيرة في هذه المجالات ، فقد ألف الحسين بن القاسم كتاب (غاية السؤل في علم الأصول) ذلك الكتاب المشهور الذي وصفه الشوكاني قائلا :

"" هذا الكتاب أصبح مدرس الطلبة وعليه المعول في صنعاء وجهاتها ، وهو كتاب نفيس يدل على طول باع صانعه فقد ساق فيه الأدلة سوقا حسنا "" [٢]

وقد ألفه الحسين أثناء خوض المعارك ضد العثمانيين مع أخيه المؤيد ، وله كتاب (شرح هداية العقول) ، وكذلك ألف اسماعيل بن القاسم (العقيدة الصحيحة في الدين النصيحة) وشرحها وكتاب (المسائل المرتضاه إلى جميع القضاة) [٣] ووضع حاشية على كتاب (المنهاج) للإمام المهدي في أصول الفقه وجمع أربعين حديثا تتعلق بمذهب الزيدية وشرحها ، وله رسالة في التحسين والتقبيح .

---

(١) الكبسي - اللطائف السنية ص ١٢٦

(٢) الشوكاني - البدر الطالع جـ ٢ ص ٢٣٩

(٣) المحبي - نفحة الريحانة جـ ٣ ص ٢٤٩ ، ٢٥٠

هذه المؤلفات وغيرها أدت إلى ظهور حركة علمية زيدية ، فصلت اليمن علميا وثقافيا عن الدولة العثمانية ، ولكن لا ننكر أن لوجود العثمانيين في اليمن أثر غير مباشر في انتعاش حركة التأليف في ذلك الوقت ، وذلك لاندماج اليمن في إطار الدولة العثمانية ، مما أدى إلى سهولة اتصال اليمنيين بباقي أجزاء الدول التي تسيطر عليها الدولة العثمانية ، كما أن كثرة الحروب التي دارت بين العثمانيين والزيديين أدت من ناحية أخرى إلى قيام النزاع بين علماء وفقهاء السنة والشيعة ، وخاصة الشافعية في تهامة اليمن ، مما أدى بالتالي إلى كثرة المؤلفات في ذلك الوقت ، اذ كان كل من هؤلاء العلماء ينحاز إلى جانب أحد الفريقين المتنازعين ، فيعمل على الدفاع عن فريقه من ناحية ويرد على التهم التي يوجهها إليه الفريق الآخر من ناحية أخرى ، وكان العثمانيون يمنحون العلماء الذين ينحازون إليهم الهبات والعطايا ، أو يولونهم المناصب الكبيرة لاغرائهم على الوقوف إلى جانبهم ، هذه الحركة العلمية والثقافية التي ظهرت في الدولة القاسمية أدت إلى ظهور الوعي لدى اليمنيين ومهدت الطريق أمام الإمامة الزيدية لأن تظهر قوتها على العثمانيين ، فبدأت هذه القوة في عقد صلح معها ثم انتهت باخراجهم من اليمن سنة ١٠٤٥هـ = ١٦٣٥م.

هذه الحضارة تظهر مدلولاتها الفكرية في أسلوب مؤلفي المخطوطات للفترة المعاصرة أي التي ظهر فيها الإمام القاسم وأولاده من بعده مثل مخطوط الجرموزي النبذة المشيرة ومخطوط الشرفي : اللآلئ المضيئة ، فنرى هذه المدلولات الحضارية واضحة ، واذا قارنا بينها وبين المراجع العربية التي رجعنا إليها في هذا البحث ، فاننا لا نكاد نجد فروقا جوهرية من حيث الاسلوب أو منهج البحث

ولو نظرنا إلى نظم الدولة القاسمية التى وضع أسسها الإمام القاسم ، لوجدنا أنها وصلت إلى مستوى جيد بالنسبة لمستوى العصر الذى ظهرت فيه على الرغم من حداثة عهدهم بالحكم ، ومن ثم بدأت تنمو وتتأثر ببعض الآثار التى أخذوها عن العثمانيين ، فبالنسبة للنظم الادارية والحربية وغيرها من نظم الدولة القاسمية ، فاننا نجد أن أكثر المخطوطات التى رجعنا اليها وكانت العمود الفقرى فى هذا البحث لم تهتم بمثل هذه الجوانب الحضارية بصورة واضحة ولم تهتم الا بالناحية السياسية بشكل كبير ، ولكننا استطعنا أن نستخلص هذه النظم على قدر الامكان .

استعمل اليمنيون القوس والرماح والحراب فى حروبهم فى بادئ الأمر ، فكانوا يرمون بها من فوق رؤوس الجبال ، كما كانوا ينحتون من الأحجار الرخام البيض ما يشبه الرصاص ليرموا به اعداءهم ، واستخدموا الحجارة التى يلقوا بها من فوق رؤوس الجبال ، واشتهروا باستخدام السيوف اليمنية الشهيرة ، ومن أدوات حروبهم آلة الريح [(1)] ، والطبول والطاسة ، التى يدقون عليها عند بدء القتال ليزيدوا من حماس المقاتلين ، ومن طرقهم فى الحرب أيضا ، اشعال النيران على رءوس الجبال ، وهى طريقة قبلية قديمة ، وتعتبر وسيلة اعلامية

---

(١) لم أعثر على وصف لهذه الآلة ولكننى أعتقد بأنها آلة بسيطة لمعرفة اتجاه الريح ، ليساعدهم ذلك على رمى رماحهم فى نفس الاتجاه

تعبر عن انتصاراتهم ، ولزرع الرعب والفشل في قلوب الأعداء من جهة أخرى ، وهذه العادة القبلية استخدمت أيام الرسول صلى الله عليه وسلم في أثناء فتح مكة ، اذ رؤى عدم المساس بأهل مكة واشعال النيران فوق الجبال ليدب الرعب والفشل في قلوب قريش وتم له ما أراد ، وقد استخدم نفس الطريقة الإمام القاسم في حروبه ، خاصة بعد خروجه من شهارة أثناء حصارها سنة ١٠٠٩هـ ، فقد اشعل ثلاث منارات على رأس الجبل الأسود لاعلام من في شهارة من أبنائه بسلامة خروجه هو وأصحابه من بين أيدى العثمانيين .(1)

وقد وجد اليمنيون من خلال حروبهم مع العثمانيين أن تلك الآلات الحربية التي في حوزتهم غير كافية لملاقاة جيوش جرارة ، تحمل أحدث الاسلحة في ذلك الوقت ، بالرغم أن المماليك عند دخولهم اليمن ، كانوا يحملون هذه الأسلحة معهم الا أنها كانت قليلة الأثر في اليمن ، وذلك يرجع لقصر مدة حكمهم فيه من جهة ، ثم انهم كانوا أقلية لم تتعد مناطق نفوذهم منطقة زبيد فقط في أغلب الأحيان ، لكن عندما احتك اليمنيين بالعثمانيين حصل اليمنيون على كثير من أسلحتهم النارية ، أثناء الحروب الطويلة التي دارت بين الطرفين ، فكانوا ينقلون هذه الأسلحة إلى حصونهم ، ومعاقلهم وخاصة تلك المدافع الكبيرة وكان حصول اليمنيين على الأسلحة واستعمالهم اياها من الأمور التي شجعتهم

---

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٣٦

على الوقوف في وجه العثمانيين ، بعد أن كانوا يخشون مواجهتهم في بداية الأمر ، ولكن نلاحظ أن اليمنيين لم يظهروا ميلا في استخدام مدافع الميدان الثقيلة ، بل كانوا يستخدمون الجنود العثمانيين المتمردين أو الذين فروا إلى الأئمة بعد استقلالهم ، خاصة في عهد المؤيد ، في استخدام تلك المدافع التي احتفظوا بها في قلاعهم ، كما كانوا يستولون على الخيول والخيام من ساحات القتال ، رغم أن الخيول ليس من السهل استعمالها في المناطق الجبلية لأنها صعبة المرتقى ، فكان اليمنى خفيف الحركة ، سريع الصعود إلى تلك الجبال الوعرة ، وقد أجادوا فن التحصن في تلك الجبال حيث كانوا يختبئون تحت الصخور والحجارة الكبيرة ، وهكذا ادارة الحروب مجالا ضرب فيه الأئمة بسهم وافر من النجاح والكفاءة ، حتى عدوا أنفسهم قوة مواجهة لقوة العثمانيين .

كما استخدموا الزيارات ، وهي آلة حربية ضخمة تستخدم في رمى النقط وغيره من القذائف على العدو ، وبعد أن تعلم اليمنيون استعمال البنادق أخذوا يصنعون البارود والرصاص ، ففي سنة ١٠١١هـ أثناء وجود الإمام في برط ، استخرج الإمام الرصاص من خمر معادن ، فكثرت خزائن الامام بالبارود [(١)]، كما أن محمد باشا سنة ١٠٢٥هـ وضع حراسة مشددة على جبل الكبريت ، لأن أصحاب الإمام كانوا يصنعون البارود من هذا الكبريت مما جعله غالي الثمن ،

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٤٥

ومن طرق اليمنيين فى الحرب ، طرق التسلل والتخفى من العدو ، ففى أثناء خروج الإمام من شهارة إلى برط سنة ١٠٠٩هـ ، كان خروجهم على دفعات متخفين ، حيث خرج الإمام والفقيه على الشهارى ، ثم خرج أتباعه بعده على دفعات ، ومن ثم ابناه الحسن والحسين .(١)

أما طرق تموينهم أثناء الحروب ، فكان أكثر أكلهم من ثمر العنب الذى تجود زراعته فى أرض اليمن ، أو من النذور التى يحضرها القبائل الموالية لهم ، فكانت القبائل تقدم إلى الإمام وأصحابه اللحوم ليتقربوا إليه بهذه الطريقة ، أو كانوا يأكلون الأرز ، حيث كان الامام يقيم مخازن لها ،

أما أسرى الحرب فكان الإمام يوزعهم على القبائل لينتفعوا بهم فى أعمال الزراعة ، فاذا وقع الصلح أو معاهدة بينه وبين العثمانيين كان يجمعهم ليفتدى بهم أسرى اليمنيين ، بعد أن يكسيهم ويزودهم بالطعام والزاد ، كما فعل فى صلح سنة ١٠٢٨هـ .

أما النظم الادارية ، فقد كان الإمام يولى على البلاد التى يفتحها أصحابه من الأشراف والسادة ، فقد ولا بالأهنوم السيد عبد الله بن محمد بن على المحراثى وبلاد شطب وظليمة السيد ابراهيم بن جحاف القاسمى ، وبلاد الظاهر السيد صالح بن عبد الله العريانى ، وبلاد ثلا وما يليها كبنى قطيل وبنى حيس

---

(١) الشرفى - اللآلئ المضيئة ص ١٩٣

وبلاد عفار وكحلان وبلاد مدّع والبُون عين السيد شرف الدين الحسن بن شرف الدين الخمرى ، وولا بلاد الحيمة وما ولاها وجبل تيس عمه السيد عامر بن علىّ ، وعلى بلاد مور وقُراضة ولاعه وما يليها السيد أحمد بن محمد المحرابى ، وولا حجة وما يليها السيد أمير الدين بن عبد الله بن نهشل ، وبلاد الشرف ، وجهات الحقار السيد أحمد بن محمد بن صلاح القاسمى الشرفى ، وولا فى بعض جهات خولان صعدة السيد محمد بن صلاح القطايرى ، وبلاد خولان صنعاء وما يليها الحاج أحمد بن عواض الاسدى ، ولما شب أولاده كان يعين منهم كذلك على تلك الأقاليم فقد عين ولده أحمد على صعدة سنة ١٠٢٨هـ . (١)

وقد أخذ اليمنيون كثيرا من النظم الادارية للعثمانيين ، فقد أبقوا على بعض الوظائف والألقاب والتقاليد الادارية بعد انسحاب الدولة العثمانية من اليمن ، فمنذ وضع الإمام القاسم أسس الدولة القاسمية أخذت دعائم هذه الدولة تظهر بالمظهر اللائق للدولة ، بعد أن كان الأئمة الزيديين عبارة عن زعماء دينيين لأقلية تقطن قمم الجبال الشمالية .

كما نجح الإمام القاسم وأولاده فى موازنة ميزانياتهم وجعل مصروفاتهم تتمشى مع الدخل العام ، فكان الإمام لا يأخذ من القبائل مالا ولا يقبض منهم الا الذى يطابق هواهم ، فلا يرهق الأهالى بدفع الضرائب الباهظة ، وكان أكثر

---

(١) الشرفى ـ اللآلئ المضيئة ص ١٥٦

دخل الامام من النذور التي يقدمها الأهالي للإمام ، كما كان يأخذ الخمس من المعادن المستخرجة من الأرض ، وهو ما يطلق عليه الركاز ، والخراج على الأرض المزروعة بنسبة العشر ، خاصة أن أرض اليمن تجود فيها زراعة البن والعنب والأرز ، وفي عهد أولاد الامام عندما بسطوا سلطانهم على السواحل أضيف إلى دخل الدولة بعض الرسوم على الموانئ ، أما مصروفات الدولة فكانت تتمثل في النفقات الخاصة بالامام ، والهدايا التي يقدمها لبعض الجهات ، أو ما يقوم به من منشئات دينية ، كذلك كان الإمام يلتزم بصرف الأقوات على الضعفاء والمساكين والفقراء من بيت المال ، ففي سنة ١٠٢٨ هـ تعرضت البلاد لقحط شديد ، فكان الإمام القاسم يصرف لكل واحد من رعاياه طعاما مصنوعا وبعض الحب،[١] وكان يخصص لكل ولد من أولاده حصة من بيت المال ، وكذلك عمه السيد عامر ، فان مات أحد منهم فحصته لورثته .[٢]

أما بالنسبة للعملة المستعملة في الدولة القاسمية ، فقد ضرب الامام القاسم السكة باسمه سنة ١٠٠٧ هـ أثناء بقائه بالسودة ، وأطلق عليها الضريبة المنصورية ، نسبة إليه لأنه كان يطلق عليه الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد وهي عبارة عن نصف درهم مكتوب عليه في جانب منها لا اله الا الله محمد رسول الله وفي الجانب الآخر اسمه والتاريخ ، وانتشر استعمالها بين الناس[٣] الا أن - استعمالها - كان قليل ، وأكثر العملات المستعملة حسب ما جاء في المخطوطات

---

(١) الشرفي - اللآلئ المضيئة ص ٢٥٧
(٢) نفس المرجع ص ٢٦٦
(٣) الجرموزي - النبذة المشيرة ص ٨١

هى : درهم ،بقشة ،[1] حرف ، حرف أحمر ، قفلة ، ذهب كبير ـ قرش وأغلب هذه الأسماء أسماء محلية عربية اذ أنها ذكرت فى مخطوطات ابن الديبع الذى عاصر الطاهريين ، وكذلك الحال نجدها فى المخطوطات التى عاصرت الحكم العثمانى فى اليمن ، الا أنه كان يضاف إلى جانب اسم العملة لفظ عثمانى دلالة على أن العملة ضربت فى العصر العثمانى ، أما الموازين والمكاييل المستعملة فهى الكيلة الثلوثى [2] ، والوقية ، والقدح الصنعانى .

وكان الامام فى بدء دعوته مشغولا فى الحروب ، إلى أن عقد صلح سنة ١٠١٦هـ مع جعفر باشا حيث اطمأن الامام ،وكذلك الناس ، فأخذ يشرع فى تعمير الاراضى الزراعية ، فبنى وادى صوطى ، وهو وادٍ معروف فى جانب عذر الغربى بالقرب من ساحل الأهنوم ، حيث استقر فيه مدة وأمر بزراعته وغرس أشجار البن فيه وهى ذات نفع اقتصادى هام للبلاد ، وزرع فيه كذلك العنب التى تجود أرض اليمن بزراعته ،وكذلك الأرز والذرة ، وكذلك الحال فى وادى وعر وأعمال بطنه حجور ، فكثر انتاجه وظهر انتعاش فى الزراعة فى تلك الفترة حتى أصبح دخل الدولة القاسمية منه أكثر من دخل بيت المال من الموارد الأخرى [3]

---

(١) البقشة : تتخذ من النحاس ، وهى باللغة التركية (باقجه) أى صُرَّة أو خرقة ، وهى الخرقة التى تلف بها الدراهم فسميت بذلك ، وهى أساس النقد عند اليمنيين .
الأب انستاس الكرملى ـ النقود العربية وعلم النُميات ص ١٦٨

(٢) الكيلة الثلوثى ـ نسبة الى سوق الثلوث اى السوق الذى يعقد يوم الثلاثاء .

(٣) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٨٥

كما أن الوافدين للدراسة في المدرسة المنصورية كانوا يأكلون من ثمار هذه المزروعات مثل الأرز .

أما بالنسبة للنظم العمرانية ، فان أول ما عمر الامام قرية الهجرة في برط سنة ١٠١٠ هـ بعد خروجه من شهارة ،فقد حفر بئرا ،وبنى مسجدا وسماها بالهجرة ،حيث كانت العادة المتبعة أن المدينة أو القرية التي يهاجر اليها أحد الأئمة للاستقرار بها عند ضعف نفوذه يلقبونها بالهجرة ،وذلك تشبيها لها بدار هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة ، كما أسس جامع شهارة في رابع من شهر محرم عام ١٠١٥هـ وانتهى من انشائه في العشر الأواخر من محرم سنة ١٠١٨هـ، وكان الانفاق على بنائه من النذور التي تقدم للإمام ، وقد ساق حجارته من خارج شهارة ، وكان هذا الجامع متسعا به محراب وبه منهل ومنازل لقراءة القرآن ، وبعد استقرار الامام في شهارة كان يدرس فيه طلبة العلم فأصبح مركزا علميا شهيرا في شهارة ، كما أسس الامام السمسرة[1] في مدينة الهجّر وهي عظيمة البناء ، فان أهل النظر في العمائر يقولون ان هذه السمسرة وأساطين جامع شهارة الكبير وعقود هما من عجائب اليمن ، واليمن مشهورة بأبنيتها الأثرية العظيمة البناء ،وقد أوقف الإمام دخل هذه السمسرة على مسجد شهارة ومسجد الهجّر الذي أسسه بعد ذلك بالقرب من جامع شهارة ، وقد عمر الإمام طريق المدرج إلى شهارة الفيش

---

(١) السمسرة في اليمن - جمعها سماسر - وهي تشبه الخانات ، وهي التي ينزل فيها الغرباء من التجار اثناء تنقلهم بين البلاد ،وذلك لعرض بضائعهم للاقامة فيها مقابل أجر معين .

حيث مهد طريقها للجمال والخيل ، حتى أول الطريق إلى شهارة الفيش ، أى إلى قمة الجبال ، وأقام الحوانيت والبيوت والسوق وأنشأ السمسرة التى فى سوق الثلوث والمسارحة ، فانه أبدع فى بنائها ، وتمت عمارتها على أحسن وجه مع سعة فيها واحكام،[1] وقد أسس المسجد المعروف بمسجد على بن الإمام فى مدينة صعدة وقد دفن ابنه على الذى قتل فى معركة الشقاب فيه

لم تقف الأعمال العمرانية على عصر الإمام القاسم فقط ، فقد شارك أولاده فى هذه النهضة العمرانية فى أثناء حياة والدهم ، ثم حين حكموا هم البلاد من بعده ، فقد عمر الحسن بن القاسم بعض الحصون التى خربها سنان باشا أثناء حروبه ، وكذلك عمر الحسين بن الإمام السمسرة فى شهارة الفيش والأسواق حولها ، وقد اختط الحسن مدينة فى جبل ضوران[2] ،فبنى بها حصونا وأقام الأحواض حولها. وأصلح الأراضى وغرس الفواكه ، فأصبحت مدينة عظيمة بأسواقها وحماماتها ومساجدها وأمر كل أمير من أمرائه أن يبنى بها بيتا ، فاتبعوا أوامره وعمروا ما حولها من القرى،[3] وقد دفن الحسن بمدينة ضوران إلى جانب مسجده سنة ١٠٤٨هـ ، كما عمر أحمد بن الإمام القاسم

---

(١) الشرفى ـ اللآلئ المضيئة ص ٢٧٩

(٢) ضوران ـ اسم جبل فى اليمن فوق حصن من حصون اليمن لبنى الهرش، وهو يقع بقضاء أنس على مسافة ٦٨ كم جنوبى صنعاء ـ هذه هى اليمن ـ عبد الله الثور ص ١٦٤

(٣) المحبى ـ خلاصة الأثر جـ ٢ ص ٣٩ ، المحبى ـ نفحة الريحانة جـ٣ ص٢٤٤

عطرة جامع الروضة المشهور فى صنعاء [١] ، وقد اختط الحسين مدينة الحصين التى عمرها تحت حصن الدامغ بالقرب من ضوران سنة ١٤٠١هـ، وأقام بهـــا عمارة عظيمة وأجرى الماء وغرس الاشجار [٢] .

أما الامام المؤيد فقد عمر المسجد الجامع فى مدينة أقر [٣] وهو جامـــع كان أصله مسجدا صغيرا يسع نحو عشرين رجل فجعله جامعا كبيرا ذات اسطوانات وأجرى السقاية تحته من جهة الشرق ، وأنشا البركة هناك ، وبنى الســـوق فى مدينة أقر أيضا ، وحفر بئرا بها كان عليها مدار الناس كلهم حيث كان ماؤه غزيرا يكفى كل من ورده ، وكان هذا الموضع قليل الماء ، ولم يكن فيه غير بئـــر صغير ماؤه قليل فكان الناس يجدون مشقة فى الشـــرب منه أيام الإمام القاســـم فحفر الإمام المؤيد بئره هذا ، وحفر بئرا آخر بالقرب منه لكن ماءه لم يكن غزيـــرا مثل بئر أقرا ، كما مهد الطريق الممدود بين أقـــرا إلى شهارة فسهلها وجعلها للجمال والخيل ، حتى ان من مر من وادى رجم بجمال أوغيرها صار إليها بسهولة ، ولم يكن طريق الجمال والخيل قبل ذلك من أقـــرا إلى شهارة الآمن جهـــة المسارحة ووادى رجم ، فكان هذا الطريق من أحسن مآثر الامام المؤيد [٤] .

---

(١) الواسعى - تاريخ اليمن ص ٥٣

(٢) أحمد حسين شرف الدين - تاريخ اليمن الثقافى جـ ٤ ص ٢٥٣

(٣) أقر - اسم موضع باليمن ، الهمزانى - صفة جزيرة العرب ص ١٨٠

(٤) الشرفى - اللآلئ المضيئة ص ٢٧٩

أما بالنسبة للجانب العلمي ، فقد كانت المساجد والجوامع هي المدارس التي يذهب إليها طلبة العلم حيث يتلقون فيها العلوم الدينية ، مثل قراءة القرآن والحديث والتفسير والفقه ، وكان الإمام القاسم نفسه يقوم بالتدريس في جامع شهارة ، وكذلك الحال بالنسبة لأبنائه من بعده ، فكانوا يقومون بمهمة التدريس إلى جانب مهام الحكم ، وخاصة اسماعيل (المتوكل على الله) حيث وصلت الدولة في عهده إلى ذروة العظمة والتنظيم ، فلم يكن له هم الا الاشتغال بالعلم والتفكير في أمور الرعايا ، فأمنت السبل في أيامه ورخصت الأسعار ، ولم يتمكن أحد من ظلم آخر في ولايته ، ولم يجسر أحد من عماله على ظلم أحد من رعاياه ، وأمن الناس على أنفسهم وأولادهم ، وحريمهم ، وترددت التجارات لسائر الأقطار ، فانشرح الناس لحكمه ، خاصة وأنهم كانوا قريبي عهد بالاضطرابات والحروب في عهد العثمانيين .

من هذا العرض لنظم الدولة القاسمية التي وضع أسسها الإمام القاسم وحمل لواء المسيرة من بعده أبناؤه ، نصل إلى أن حكومة الإمامة كانت شيئا ايجابيا ، على جانب من التنظيم الذي أساسه طاعة الافراد وصلاح الإمام ، وهذا ما يجعلنا ننفي الفكرة الشائعة بأن الإمامة عبارة عن سلب ونهب ، أو كما صورها بعض الكتاب والمؤرخين على أنها مجرد صراعات ، بيد أننا نرى من خلال هذا العرض لأهم النظم القاسمية انها وصلت أو كادت تصل لمستوى العصر في التنظيم والادارة والبناء والتعمير ، ولهذا فلاعجب أن ظهرت حكومة الامام بأنها أقرب لمظاهر العدل والانتاج والتنظيم أكثر مما كان الحكم العثماني في جنوب غربي الجزيرة وبدت الإمامة وكأنها ملجأ وحصن من مظالم العثمانيين وفساد ادارتهم كما أن الدولة القاسمية كانت تمثل الجديد المتطور بينما كان الحكم العثماني في اليمن يمثل القديم البالي .

أما فيما يختص بالدولة العثمانية، فينبغي لنا قبل تحليل نظمها في اليمن وما يختص بأحوالها ، أن نعرف أهمية اليمن في القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، فاذا عرفنا أنه كانت للعرب السيطرة على أغلب طرق التجارة العالمية القديمة ، ومن أهم هذه الطرق طريق البحر الأحمر الذى تقع مصر عند طرفه الشمالي واليمن عند طرفه الجنوبي ، وقد حقق كل من القطرين من وراء موقعه الجغرافي رخاء اقتصاديا كبيرا ،وازدهارا حضاريا ملحوظا منذ أقدم العصور ، وتردد في كتب الجغرافيا اسم جزيرة العرب السعيدة Arabia Felix ، وهو اسم أطلق على أقصى جزئها الجنوبي الغربي حيث سعدت موانيه بمرور تجارة التوابل بها ،وظلت فترة طويلة محطات أو مخازن لهذه التجارة التي كانت في القرن السادس عشر أهم مجال للنشاط الدولي ، وأهم باعث للكشف الجغرافي ، وكذلك أهم مورد مالي في الشرق والغرب على السواء ، وكانت لليمن بحكم موقعها نصيب وافر من ذلك كله ، اذ كانت اليمن أهم نقطة ارتكاز على الساحل الجنوبي والحارس عليه ،وكان من العسير على السفن التي تسافر الى الهند أو العائدة منها ألا تمر على موانئها ، فهي تتحكم في مدخل البحر الأحمر بحكم هذا الموقع .

بالاضافة لأهمية موقعها الاستراتيجي نجد أن اليمن أكثر خصوبة ، ومناخها أكثر اعتدالا كما أنها غنية بمواردها الطبيعية ، ففي جبل صبر عند تعز يوجد الذهب ، وفي مأرب يوجد الرصاص والكبريت والالمنيوم ، وفي بلاد حجور يتوفر الطلق ، كما يوجد الحديد بكثرة في صعدة ، وقرب بيت الفقيه يوجد تل

يتكون من أعمدة بازلتية استخدمها القوم فى انشاء درجات الصعود إلى التلال وفى مناطق استنبات البن ، كما اشتهرت اليمن بالزراعة ، وخاصة زراعة البن ، ذات النفع الاقتصادى وزراعة العوعر الذى يستخرج منه أنواع الزيوت ، وتنمو غابات على الجانب الغربى للجبال فى اليمن [1] .

هذه الأهمية الاقتصادية جعلت اليمن موضع طمع كثير من الدول الأوربية وخاصة البرتغال ، ففى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى نجحت البرتغال فى الوصول بحرا الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، كما نجحت فى احتكار التجارة الشرقية بعد الوصول إلى الهند بقليل ، وقد أدى تحول تجارة الشرق إلى الطريق البحرى حول رأس الرجاء الصالح ، إلى حرمان العرب من مصدر هام من مصادر ثروتهم ، وأدى هذا بدوره إلى ضعف بنائهم الاقتصادى ، وحاول العرب مقاومة هذا الغزو الأوربى الجديد ، واسترداد سيطرتهم على نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، الا أن محاولاتهم باءت بالفشل ، وتم للبرتغال احتكار هذه التجارة ، وكان موقف اليمن تجاه الغزو البرتغالى موقفا اتسم بالضعف ، نظرا لانشغال حاكمها حينذاك عامر بن عبد الوهاب بتوطيد دعائم حكمه ، من جهة ، ولعدم معرفة اليمنيين بالأسلحة الحديثة التى أتى بها البرتغاليون معهم من جهة أخرى .

---

(١) حسين بن على الويسى - اليمن الكبرى ص ١٨ - ٢٦

وقد حمل لواء الدفاع عن اليمن المماليك ومن بعدهم العثمانيون ، فقد ارتبط فتح العثمانيين لليمن مع فتحهم لمصر سنة ١٥١٧ م ، حيث وجد العثمانيون أنه لابد من الدفاع عن البحر الأحمر ، لأن الخطر البرتغالى كان يشتد ويهدد هذا البحر وغيره من البحار الشرقية بوجه عام ، فقد أدرك العثمانيين بعد دخولهم إلى مصر أهمية اليمن الاستراتيجية بالنسبة إلى نزاعهم مع البرتغاليين ، اذ أن الساحل العربى من باب المندب ، حتى الخليج العربى من الناحية الجغرافية لا نجد فيه موقعا آخر له صفات اليمن ومزاياها ، ومع أن الساحل العمانى حوى بعض الخلجان الصغيرة الا أنه كان مأوى للصوص البحر ومحطا لغارات القبائل البدوية ، وكان الارتكاز عليها بالنسبة للعثمانيين فى أعمالهم فى المحيط الهندى خروجا مبالغا فيه عن مجال الدولة الحيوى ، لأنه لم يكن من المعقول أن تأخذ الدولة العثمانية قاعدة رئيسية لها على الساحل العمانى أو الخليج العربى نظرا لعلاقتها العدائية مع فارس على الدوام ، فأصبح الخليج العربى طريقا شبه مقفول من الشمال إلى الجنوب ، لذلك رأت أن تتخذ من اليمن قاعدة ارتكاز لشن هجومها على البرتغاليين ، ولاحكام غلق البحر الأحمر فى وجه السفن البرتغالية خاصة ، والسفن الأوربية عامة ، وجعله بحيرة اسلامية ، كما أنها وجدت أنه بالامكان قطع الاتصال البرتغالى الحبشى عن طريق هذا البحر أيضا ، اذ أن تحالف البرتغاليين مع الأحباش كان بمثابة نذير خطر فى هذا البحر ، بالاضافة إلى تطهير السواحل العربية الجنوبية من الجيوب البرتغالية المتناثرة بها ، فتحولت السواحل اليمنية بذلك إلى قاعدة بحرية هامة عند

مدخل البحر الأحمر الجنوبي ، كما تحول هذا البحر بدوره الى بحيرة عثمانية.

ولعبت هذه الحقيقة الدور الرئيسي في رسم سياسة العثمانيين البحرية في البحار العربية الجنوبية لفترة امتدت حوالي قرن من الزمان ، وهي السياسة التي انتهت إلى منع البرتغاليين وباقي القوى الأوربية التي وصلت إلى المياه الشرقية مع نهاية القرن السادس عشر من التوغل في البحر الأحمر.

كذلك كانت الأهمية الاستراتيجية هي العامل الرئيسي أيضا في حرص العثمانيين على ابقاء نفوذهم في اليمن ، بل وتدعيم هذا النفوذ كلما أمكنهم ذلك حتى خرجوا من اليمن سنة ١٦٣٥ م ، فقد قال أحد الكتاب المحدثين " كانت اليمن احدى أمنيات السلطان سليمان وغاية ما يصبوا إليه ، نظرا لأهميتها من الناحية العسكرية ، والموقع الاستراتيجي المهيمن على شواطئ البحرين العربي والأحمر ". (١)

فكان هدف العثمانيين الأساسي من اتخاذ اليمن قاعدة الارتكاز ضد البرتغاليين في المحيط الهندى والبحر الأحمر هو حماية الأراضي المقدسة من الخطر البرتغالي ،

---

(١) أحمد حسين شرف الدين - اليمن عبر التاريخ ص ٣٥٨

يوضح هذا الغرض قول السلطان سليم الثانى عندما أرسل سنان باشا إلى اليمن لفتحه قائلا "ان استردادنا لمملكة اليمن وان كان ذلك مما يتعين علينا لأنها ميراث أبينا المرحوم المقدس ، لكن جل قصدنا من ذلك انما هو حفظ ثغر عدن صونا للحرمين الشريفين على الكفار الملاعين" (١)

لذلك فرضت الدولة العثمانية تقليدا جديدا يقضى بمنع دخول المراكب المسيحية فى البحر الأحمر بحجة أنه يطل على الأماكن المقدسة للمسلمين فى الحجاز وهو التقليد الذى ظلت الدولة العثمانية متمسكة به حتى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، فقد كان العثمانيون يرون تشريفا لهم حماية الأماكن المقدسة فى الحجاز وكذلك بسبب انتقال خلافة المسلمين اليهم ، حتى تتوفر لهم الزعامة الروحية والسياسية اللازمتين لمواجهة الغرب المسيحى ، يضاف إلى ذلك عاطفة دينية متأججة ، وحب شديد لأهل الحرمين الشريفين عرف بهما سلاطين آل عثمان ، بالاضافة إلى أن العثمانيين حاولوا ادخال النفوذ العثمانى فى الخليج العربى من قاعدة اليمن لتوجيه الضربات من هناك إلى فارس ، فقد اتضح للعثمانيين أن الأراضى الجبلية وقسوة الطقس فى منطقة الحدود بين الدولتين قد جعلت من الصعب الانتصار أو هزيمة ايران من ناحية الشمال ، فقد غزا السلطان سليمان القانونى فارس سنة ١٥٣٤م ، ١٥٣٥ م ،

---

(١) قطب الدين ـ البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ص ٢١٢

فحاربته الطبيعة حربا مهلكة ، وأضحى العثمانيون كالموتى المدفونين في وسط الثلوج ، وتحطمت خيامهم بسبب العواصف ، وكان السلطان نفسه في خطر شديد وغطيت الأرض بجثث القتلى منهم وفاجأ العثمانيين المطر ليلا فكان الفرس كالذئاب وسط الأغنام وهرب القواد العثمانيون ، وأسرع سليمان بما تبقى من جيشه إلى الفرار بعد أن اذاقته الطبيعة شر هزيمة .(١)

وكانت هذه الهزيمة من أهم أسباب فتح اليمن والتفكير في الوصول إلى فارس عن طريق الخليج العربي ، وكانت أهداف العثمانيين من حرب فارس هي تحقيق الزعامة على العالم الاسلامي ، فقد كان الاستحواذ على الزعامة في العالم الاسلامي شيئا مقررا في سياسة العثمانيين وهذه الزعامة آلت اليهم في مصر بعد فتحها وفي الحجاز تبعا لذلك ، غيرأنهم فشلوا في الوصول إليها في فارس ، وكان فتح اليمن أمرا ضروريا لتحقيق هذه الزعامة وتكملة لها ، وخاصة لما كان يسود الجزيرة العربية من زعامات مذهبية كان ينبغي أن تنصهر جميعا ليمكن خضوعها للزعامة الجديدة خضوعا طبيعيا ، وكان اليمن حجر الأساس للسياسة العثمانية في ذلك الجزء من الجزيرة العربية .

كان نشوب الحروب بين مسلمي عادل وغيرها من مسلمي الشاطىء الغربي للبحر الأحمر ومعهم العثمانيون في بعض الموانيء من جانب وبين الأحباش

---

(١) البحراوي - فتح العثمانيين عدن ص ١٤٦

يشجعهم البرتغاليون ويمدون لهم يد العون من جانب آخر ، من أهم الأسباب كذلك لفتح العثمانيين اليمن ، وكان حلول العثمانيين محل المماليك فى مصر توريثا لهم الخلافة والزعامة ، كما أورثهم أيضا مهمة حماية العالم الاسلامى من ذلك الخطر الداهم ومحاولة انقاذ تجارة الشرق ، بعد أن أخذ معينها ينضب ، وأخذ الشرق الغنى يقف على أبواب فقر مدقع .

كما أن الموقف فى الهند كان يستدعى عملا حاسما عاجلا من العثمانيين لأن الولايات الاسلامية كانت محاطة بأخطار جسيمة تتهددها ، فالبرتغاليون يحاولون تثبيت أقدامهم على السواحل ، ويملأون البلاد بالمؤامرات والدسائس ، والولايات الهندوكية تنتهز الفرصة المواتية للانقضاض وشن الحروب ، والخطر المغولى بين مده وجزره يفرض عليها كثيرا من الارتباك ، وانهالت على العثمانيين صيحات مسلمى الهند ، ورأى العثمانيون أن اجابة هذه الرغبة تحقق غرضا مزدوجا ، فالى جانب تحقيق الزعامة على العالم الاسلامى ، فقد بدت فى الأفق الفرصة ليجدوا حلفاء طبيعيين فى هذه الأماكن للاستعانة بهم فى القضاء على النفوذ البرتغالى ، وانقاذ تجارة الشرق الغنية .

ولا شك أن ما بعث به المستغيثون إلى السلطان ورجال حكومته ، كان مقياسا على ثراء وغنى هذه البلاد ، مما لفت نظر العثمانيين وزادهم رغبة فى القيام بذلك المجهود ، ومن ثم أضحى فتح العثمانيين لليمن أمرا مقررا وخطوة تأسيسية لذلك المجهود كله .

ولم يمض النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى الا وكان العثمانيون قد طردوا البرتغاليين من البحر الأحمر واستولوا على الموانىء الهامة على شاطئية الافريقى والآسيوى ، وجعلوا من البحر الأحمر بحيرة عثمانية أغلقوها فى وجه السفن المسيحية ،

واذا كان العثمانيون قد تمكنوا من وقف التوسع البرتغالى وتأمين البلدان العربية وخاصة فى حوض البحر الأحمر من عدوان البرتغاليين ،فانهم عجزوا فى النهاية عن تحقيق غايتهم الرئيسية وهى تحطيم السيطرة البرتغالية فى المحيط الهندى ، واعادة التجارة إلى طرقها السابقة .

ولذلك بدأ ارتخاء قبضة الدولة على اليمن شيئا فشيئا ،ولم يكن هذا الارتخاء مفاجئا بل أخذ يظهر تدريجيا حسب تطور الأحداث ،فقد أدى تطور الأحداث فى أوربا إلى ضعف موقف البرتغاليين فى الشرق بوجه عام ، فقد دخلت البرتغال فى حكم اسبانيا لمدة ستين عاما أى من سنة ١٥٨٠م - ١٦٤٠م وكانت البرتغال قد أجبرت على أن تشترك بأسطولها مع الأسطول الاسبانى الذى عرف باسم الأرمادا الذى لا يقهر [(١)] ، فى الهجوم على انجلترا ، فقد تحطم الأرمادا أمام الشواطىء الانجليزية ، وفقدت أسبانيا والبرتغال معا سيطرتهما على البحار ، واتضح ضعف البرتغال بجلاء عندما عجزت فى سنة

---

(١) حاطوم - عصر النهضة الاوربية ص ٢٧٠ ، البحراوى - فتح العثمانيين عدن ص ١٢٦

١٥٩٥م عن صد هجوم انجلترا على سواحلها ،[1] وذلك عندما هاجم الانجليز ميناء فارو البرتغالي ، كذلك بدأت البرتغال تفقد احتكارها لتجارة الشرق في فترة دخولها في حكم أسبانيا .

وبذلك انتهت حدة الصراع البرتغالي العثماني في البحر الأحمر ، وبدأ اهتمام الدولة العثمانية باليمن يقل عما كان عليه في الماضي ، أيام اهتمام سلاطين الدولة بمحاربة البرتغاليين ، واغلاق مداخل البحار في وجوههم ، ثم أصبح جل اهتمامهم موجها إلى الكفاح ضد الدول الأوربية في الميدان الأوربي ، بالاضافة إلى الاضطرابات الداخلية في الدولة ذاتها ، ولذلك أخذت سيطرتهم على اليمن تضعف تدريجيا .

لكن هذا لم يمنع القوى البحرية الأوربية الكبرى من ارتياد هذه البحار ، اذ بعد أن ضعف البرتغاليون ، أتت هذه القوى في اتجاه الهند ، لكنهم لم يعنوا كثيرا بأمر الصراع الصليبي ضد المسلمين ، ولم تفكر كما فكر البرتغاليون في الاعتداء على الأراضي الحجازية المقدسة ، هذا إلى أن القوى البحرية الاوربية كانت تعنى بالدرجة الأولى بأمر التجارة ، خاصة أن النشاط البحري الهولندي والانجليزي والفرنسي كان قائما على أساس شركات كبرى تجارية تسعى وراء الربح ، لا وراء التعصب الديني الذي تميز به رجال شبه جزيرة أيبريا .[2]

---

(١) ل.ج . سيني ـ العالم الغربي ص ٢٢٦، ٢٢٧

(٢) نوار ـ الشعوب الاسلامية ص ١٠٩

فقد نجحت هولندا فى سنة ١٥٩٥م فى إرسال أول حملة بحرية لها حول رأس الرجاء الصالح ، وذلك بقيادة أحد مواطنيها ويدعى هوتمان الذى عمل بعض الوقت على ظهر السفن البرتغالية ، ورغم أنه كان من المتوقع أن تنجح باقى قوميات أوربا فيما بعد فى منافسة البرتغال فى تجارة الشرق ، فقد كانت سياسة فيليب الثانى الأوربية هى التى دفعت الهولنديين الى التعجيل باتخاذ هذه الخطوة الجريئة التى أنهت إلى الأبد احتكار البرتغال لتجارة الشرق ، فقد كان فيليب الثانى قد أغلق أسواق لشبونة فى وجه تجار الأراضى الواطئة سنة ١٥٩٤م ، وبدأ هؤلاء يتلمسون طريقهم الخاص إلى المصادر الأصلية للتجارة الشرقية ، ونجحوا فى الوصول اليها فى العام التالى مباشرة (١) .

ونجحت كذلك انجلترا بعد قليل فى الوصول إلى الهند بحرا عن طريق رأس الرجاء الصالح ، كما نجحوا فى خلال رحلتهم الأولى هناك سنة ١٦٠٣ م فى تأسيس العلاقات التجارية واقامة المحطات والمراكز التجارية فى سومطرة وجاوه وغيرهما من جزر الهند الشرقية (٢) .

وقد بدأ النفوذ البرتغالى منذ ذلك الحين يأخذ طريقه إلى الانهيار للمنافسة الخطيرة التى واجهها على يد الانجليز والهولنديين ، وكان نجاح الانجليز والهولنديين فى هذه المناطق سريعا وحاسما ، فلم ينتصف القرن

---

(١) جاد طه ـ السياسة البريطانية ص ٢٦

(٢) البحراوى ـ فتح العثمانيين عدن ص ١٠٤

السابع عشر الميلادى تقريبا الا وكانت البرتغال قد فقدت معظم أجزاء امبراطوريتها الساحلية الواسعة التى كانت تمتد على السواحل الافريقية والآسيوية من رأس الرجاء الصالح إلى الصين واليابان .

ويرجع نجاح هؤلاء القادمين الجدد إلى الشرق فى الغالب إلى ترحيب أمراء وأهالى الشرق بهم ، وذلك نكاية فى البرتغاليين أو للاستعانة بهم فى التخلص منهم ، وقد وجد الانجليز طريقهم إلى المخا سنة ١٦١٨م فكانت المحاولات الأوربية للتردد على ميناء مخا ، فقد حاول الكابتن الكسندر شاربى Sharpey الانجليزى فى سنة ١٦٠٩ م ، وتأرجح موقف العثمانيين فى بداية الأمر ازاء تردد هؤلاء الانجليز على الساحل اليمنى ، فقد وافقوا تارة على اشتغال الانجليز بالتجارة فى المخا ، ومنعوهم تارة أخرى ، وذلك حتى عام ١٦١٨م (1) حين حصل الانجليز على ما يسمح لهم بحرية التجارة فى هذا الميناء دون أن يتعرض لهم أحد بأذى ، واستقبل حاكم المخا العثمانى الكسندر شاربى بتسامح كبير سنة ١٦٠٩م ولكن عندما جاء السير هنرى مدلتون Henry Middelton من قبل شركة الهند الشرقية فى العام التالى استقبله حاكم الميناء حينئذ بفتور شديد ، ثم أرسله إلى صنعاء وبعد أن سجنه بعض الوقت فى مخا ، ثم أطلق سراح مدلتون بعد قليل بعد أن تعهد ألا يتردد مرة أخرى على ميناء مخا أو أى موانئ عربية أخرى .

---

(١) هارولد . ف. يعقوب - ملوك شبه جزيرة العرب ص ١٧ ،
د.عبد الحميد البطريق - من تاريخ اليمن الحديث ص ٣٦

ورغم ذلك ، فقد تقدم الكابتن ساريز Saris إلى ميناء مخا بعد ذلك بقليل ، فلم يقابل بمثل هذا العنف الذى قوبل به مدلتون ، ولكنه لمس أن الروح العامة هناك لا تشجع على استمرار اشتغاله بالتجارة (١) .

والواقع أن موقف العثمانيين المتأرجح تجاه الأوربيين يرجع إلى السياسة التى وضعتها الدولة العثمانية فى هذه البحار التى تقضى بعدم توغل السفن الأوربية فى البحر الأحمر الذى يشرف على الحجاز والحرمين الشريفين ، ورغم ذلك فقد سمح العثمانيون فى تردد وحذر بأن تقوم السفن الأوربية التجارية بالتردد على ميناء مخا اليمنى ، والاشتغال بالتجارة فيه ، لكنهم منعوا هذه السفن من التوغل إلى داخل البحر الأحمر بل جعلوا السفن العربية تنقل البضائع من ميناء مخا الى باقى موانىء البحر الأحمر حتى موانىء مصر .

وهكذا كان ضعف البرتغاليين وانتهاء النفوذ البرتغالى هو أهم العوامل التى جعلت الدولة العثمانية تصرف النظر بعض الشىء عن التمسك بوجودها فى اليمن ، وخاصة عندما اطمأنت إلى انتهاء التحالف الصليبى الحبشى البرتغالى حيث كان البرتغال يبذلون محاولات مستميتة لتدعيم نفوذهم فى الحبشة ، وذلك بربط كنيستها الأرثوذكسية بالكنيسة البرتغالية الكاثوليكية ، وكان ذلك من

---

(١) Play Fair/ A Histoty of Arabia.p.1.5. 110

أهم الأسباب التي عجلت بمجيء العثمانيين إلى اليمن ، للقضاء على هذا التحالف الصليبي الذي يهدد البلاد الاسلامية ، وكان البرتغاليون قد اتخذوا الخطوات العملية لتنفيذ هدفهم الصليبي سنة ١٥٤٦ م عندما أرسل ملك البرتغال إلى النجاشي خطابا يصرح فيه أنه سوف يرسل بطريركا من قبله لرياسة الكنيسة الحبشية ، وليهدي الأهالي إلى الطريق المستقيم ، ويساعد النجاشي في تدبير شئونه ، لكن رد النجاشي كان ردا غامضا عاما ، اذ لم يقطع برأي محدد في هذا الأمر حتى لا يحرم نفسه من مساعدات البرتغاليين له ، وذلك بسبب حاجته إلى المساعدات حتى ذلك الحين .

ولكن الملك البرتغالي أرسل مندوبا عن البطريرك لاتخاذ الخطوة اللازمة ، فوصل هذا المندوب إلى الحبشة سنة ١٥٥٧م ورأى أن العثمانيين قد بسطوا نفوذهم على مصوع [1] واشتد النزاع والصدام العلني بين أباطرة الحبشة وبين المندوب البرتغالي ، واشتد هذا الصدام في عهد ميناس سنة ١٥٥٩م لأن هذا الامبراطور اتبع سياسة دينية عنيفة ، فمنع الأحباش من دخول الكنائس اللاتينية .

وانتهت هذه الصادمات والحروب إلى اضعاف النفوذ البرتغالي في الحبشة فلم يعد البرتغاليون الحلفاء الأوفياء لأباطرة الحبشة ، ولم يعد

---

(١) البحراوي - فتح العثمانيين عدن ص ٩٦
، الحبيد ، مقال سفارة الامام المتوكل بن القاسم من مجلة كلية الشريعة ص ١٩

هؤلاء الأباطرة يثقون بهم أو يطلبون مساعدتهم ،بل عملوا بعد ذلك على التخلص منهم وطردهم خارج الحبشة ، لأن الأحباش رفضوا تغيير عقيدتهم ، وتطورت الخلافات التى دارت حول هذا الموضوع إلى حرب عنيفة بين الأحباش وبين البرتغاليين ، أدت فى النهاية إلى فتور العلاقات الحبشية البرتغالية ، بل والى طرد البرتغاليين من الحبشة فى نهاية القرن ١٦ م تقريبا .

وبذلك خف الضغط الصليبى سواء من الأحباش أو من البرتغاليين ، مما جعل أهمية اليمن تقل بسبب هذا الانهيار فى القوى الحبشية والبرتغالية .

أما وقد أصبح اليمن فى مأمن ولا خطر عليه ، فان أمر استمرار الحكم العثمانى فيه أو عدم بقائه قد أصبح رهن مكاسب الدولة العثمانية منه ، وحيث أن اليمن كان قد أبدى مقاومة دموية كلفت الدولة العثمانية الكثير من الجهد والمال والدماء ، فلماذا يستمر هذا التورط، وحيث أن بقاء القوات العثمانية أصبح متعذرا ومكلفا وبدون هدف واضح فلا ضير من أن يترك اليمن لأهله .

بعد افتقار تجارة الشرق الغنية ،ونضوب معينها ، وبعد أن اكتشف البرتغاليون رأس الرجاء الصالح ، اتجه العثمانيون إلى استغلال ميناء مخا للتجارة بدلا من ميناء عدن لأن هذا الميناء تحول خلال النزاع البحرى بين العثمانيين والبرتغاليين إلى قلعة حربية عند مدخل البحر الأحمر مما ساعد على اضعاف أهميته التجارية .

وكان اكتشاف زراعة البن في المنطقة الخلفية لميناء المخا وتحول محصوله الى محصول اقتصادى ، قد جعل العثمانين يحولون أنظارهم إلى هذه الزراعة الهامة ذات النفع الاقتصادى ، والتي تجود بها أرض اليمن ، حيث تتوفر فيها المياه الجوفية ، وخصوبة تربتها البركانية ، ونشاط شعبها ، واتقانه زراعة البن على المدرجات الجبلية ، هذا المحصول الاقتصادى بالاضافة الى قرب ميناء المخا من السواحل الأفريقية المواجهة له ، جعلت العثمانيين يستفيدون من وراء تلك التجارة ، ولكن الحروب التي وقعت في اليمن في القرن السابع عشر أثناء مناهضة العثمانيين للإمام القاسم ودعوته ، جعلت هذه الثمرة الاقتصادية تيبس بسبب اهمال الأهالى للزراعة ، وبسبب الحروب المستمرة ، وخاصة في جبل صبره ، حيث تعرضت هذه الأشجار للقطع والحرق والآفات الزراعية " ولا سيما حين طلع أهل الحجرية سنة ١٠٠٦هـ على المزارع فطفقوا البن قطعا لأشجاره وتحريقا لجذوعه وعروقه وآثاره "[1] .

وكان نضوب هذا المورد بالاضافة إلى ضعف النفوذ البرتغالى والتحالف الحبشي قد أدى الى أن اليمن قد فقدت أهميتها الاقتصادية كذلك ، وقلل من أهميتها في نظر العثمانيين ، بالاضافة الى الخلل الذى طرأ على الدولة حينذاك وانعكس على اليمن ، وما تكبدته الدولة من خسائر كبيرة بسبب كثرة الحروب المستمرة منذ وصولها إلى أرض اليمن ، فقد أصبحت الدولة العثمانية

---

(١) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٥٢

في آخر القرن السادس عشر بالاختلال العسكري والضعف في كافة مرافقها وكانت الدولة في حالة عجز تام عن القيام بأي عمل حاسم حتى في اليمن ، فإن اعداد الجيوش الذاهبة إلى اليمن كان يوكل من أمرها الى والي مصر ، غير أن ضعف الدولة العثمانية بوجه عام كان ينعكس على ولاياتها ، لذلك لم تستطع مصر امداد اليمن بالجيوش التي كان يلح في طلبها ولاة اليمن ، فقد بدأ هذا الخلل من عهد السلطان سليمان القانوني يظهر في نظم الدولة العثمانية وأوضاعها ، الا أن قوة شخصية السلطان سليمان ، وقوة نظم الدولة وتماسكها حتى ذلك الحين قد أخفى آثار هذه الاضطرابات الى أمد بعيد ، لكن عندما تولى الدولة خلفاء ضعاف بدأ هذا الخلل يظهر في أسمى معانيه على جميع أجزاء الدولة وخاصة في الأطراف البعيدة النائية ، وخاصة اليمن التي تكثر بها الفرق المذهبية.

وقد تعرضت في الفصل الخامس لهذا الخلل الذي دب في أوضاع الدولة العثمانية وأسبابه وكيفية انعكاسه على أوضاع اليمن ، مما جعل الدولة تغير أهدافها من فتح اليمن ، التي أخذت تقل أهميتها تدريجيا حتى انعدمت تلك الأهمية . أو كادت ، ومن ثم كان اخلاء اليمن ، بالاضافة الى انشغال الدولة العثمانية حينذاك في مشاكلها الأخرى الأكثر الحاحا ، ثم ان بعد اليمن عن مقر السلطنة وصعوبة فرض السيطرة العثمانية بسبب ذلك قد عجل من ارتخاء قبضة الدولة عليها مما جعل هذه السيطرة تنكمش تدريجيا .

ويضاف إلى ذلك كله سوء سياسة الولاة وعدم اهتمامهم برعاية شئون

الأهالى ، بالاضافة الى تقسيم اليمن الى ولايتين مما أضعف قوة العثمانيين الذاتية وذلك لتنازع الواليين حول الأموال والقوات وتعيين الحدود بين ولايتيهما ، (1) وأدى تذمر اليمنيين من سوء الأحوال فى بلادهم إلى الوقوف فى وجه العثمانيين وكان لقوة شخصية الإمام ومهارته السياسية والعسكرية أثر فى الاحتفاظ بوحدة الجبهة الزيدية تحت زعامته ، ثم تحت زعامة أولاده من بعده ، حتى تم اخلاء اليمن فى عهدهم .

وكان من أهم مظاهر ضعف الحكم العثمانى ، وبداية نهايته فى اليمن عقد الصلح لأكثر من مرة مع الامامة الزيدية ، وكان أول صلح فى عهد الدولة القاسمية فى عهد الإمام القاسم سنة ١٠١٦هـ مع جعفر باشا ، الذى أتى اليمن وقد تنازعته الفتن والاضطرابات بسبب سياسة سنان باشا القاسية ، ووجد جعفر باشا أن من مصلحة الدولة عقد صلح مع الامام لتهدئة الأحوال به ، وقد أملى الإمام القاسم شروطه فى هذا الصلح على جعفر باشا بما يظهر مدى التوازن بين القوتين ، وكان هذا الصلح فى الحقيقة تتويجا لانتصارات الإمام القاسم فى نهاية الكرة الثانية ، حتى ان الجرموزى صاحب سيرته وصفه بأنه كصلح الحديبية ،

ولعل الجرموزى قال بقولته هذه نتيجة مقارنته بين الصلحين ونتائجهما فقد استعاد المسلمون من صلح الحديبية اعتراف قريش بقوتهم ومركزهم واعترفت الدولة العثمانية بقوة الإمام القاسم ومركزه ، والا لما عقدت معه الصلح ، فان

---

(١) الموزعى - الاحسان ودخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ١٣ ، النهروالى - البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ص ١٥٩

عقد الصلح معناه في الحقيقة الاعتراف بقوة الطرف الثاني ، وخاصة أن الإمام القاسم هو الذي أملى على جعفر باشا شروط الصلح .

وكما تمكن المسلمون أثناء الهدنة من نشر الاسلام بين القبائل العربية ، فقد استطاع الامام أثناء هذا الصلح ، أن ينشر دعوته بين القبائل ، التي كانت تتردد في الوقوف إلى جانبه ، خوفا من بطش العثمانيين ، بالاضافة إلى أن بعض القبائل الواقفة إلى جانبه كانت طامعة في الغنائم وليس لنصرة دعوته ، اذ كانت هناك الكثير من البدع والخرافات المنتشرة بين أهل اليمن ، ولم يستطع الإمام القضاء عليها ، أو اقامة الحدود ، لانشغاله بالحروب المستمرة وتنقله من اقليم إلى آخر ، فكان هذا الصلح تدعيما لنفوذه في البلاد حيث استطاع أن يقيم الحدود الشرعية ، ويقضي على البدع ، ويضع البذرة الأولى للدولة القاسمية .

كما كسب المسلمون عطف القبائل العربية بعد أن منعتهم قريش من الحج (١) فقد استطاعت القبائل أثناء الصلح أن تتصل بالامام دون خوف من العثمانيين وناصروا دعوته ، وانضموا اليه بالآلاف لأنهم آمنوا واطمأنوا بهذا الصلح . (٢)

---

(١) أمين دويدار - صور من حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ص ٤٦٧

(٢) الشرفي - اللآلئ المضيئة ص ٢١٠

وهكذا كان لهذا الصلح أثر فى تطور تاريخ اليمن فيما بعد ، فقد أعقبه عدة مصالحات ، كانت ظروفها تقريبا متشابهة ، معبرة عن مدى ضعف نظام الحكم العثمانى وخلخلة نظمه ، ففى صلح سنة ١٠٢٨ هـ الذى عقده الإمام القاسم أيضا مع محمد باشا ، بعد أن رفض الأخير أول الأمر هذا الصلح ، لأنه اغتر بمعلوماته النظرية عن أوضاع اليمن ، وأصر على شن الحرب على الامام ، الا أن واقع اليمن خيب آمال محمد باشا ، فعاد إلى الموافقة على الصلح مع الامام بعد حروب استمرت ثلاث سنوات متواصلة ، لم يستطع أن يحرز فيها نصرا يذكر ، بل على العكس تمكن الإمام خلالها من أن يوسع ممتلكاته فى المنطقة الشمالية على حساب العثمانيين .

وكذلك صلح سنة ١٠٤٠هـ الذى عقد بين الامام المؤيد وقانصوة باشا الذى أتى لانقاذ السيطرة العثمانية بعد ما أصابها من تدهور على أيدى أولاد الإمام القاسم الحسن والحسين ، وبعد أن استطاعوا فى خلال عامين من وفاة والدهم مدّ سيطرتهم إلى أقاليم اليمن المختلفة بما فيها صنعاء وتعز ، ولم يبق فى أيدى العثمانيين سوى زبيد ، وقد أتى قانصوة باشا لارجاع هيبة العثمانيين فى اليمن كله ، لكن أعماله باءت بالفشل وتقاعس قانصوة باشا عن القيام بأى عمل ايجابى ، مما اضطره إلى طلب الصلح من الإمام المؤيد فى شهر المحرم سنة ١٠٤٠ م.(١)

---

(١) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٦٧

ثم عقد صلح آخر في عهد الامام المؤيد سنة ١٠٤٥م بينه وبين قانصوة باشا أيضا الذى حاول أن يقوم بانتفاضة أخرى لاعادة السيطرة العثمانية ، وتركزت جهوده هذه المرة في زبيد والمخا حيث أرسل حملة إلى جيزان للاستيلاء عليها بغتة ، مما اضطر شيوخ تلك المناطق إلى اللجوء للإمام المؤيد والاستعانة به ضد العثمانيين ، وقد انسحبت جميع الحاميات العثمانية إلى تهامة لتركيز الدفاع عنها عندما علمت بتحرك جيوش الامام المؤيد إلى زبيد ، وأظهر العثمانيون حينذاك نشاطا حربيا ملحوظا ، حتى لا يضيق حولها النطاق ، لكن جهود الحسن ابن القاسم وقواته ، بالاضافة إلى التفاف أهالي المنطقة الجنوبية حوله ، أدت إلى الحاق الهزائم بالعثمانيين واضطر قانصوة باشا الى طلب الصلح في محرم سنة ١٠٤٥هـ . و

وهنا كانت نهاية العثمانيين في اليمن حيث طلب قانصوة باشا بعد هذا الصلح بشهر واحد مغادرة اليمن بدون شرط أو قيد ، وتم جلاء العثمانيين سنة ١٠٤٥هـ = ١٦٣٥ م .

هذه المصالحات بالاضافة الى سوء السياسة العثمانية في اليمن جعل أمر استمرارهم فيه أمر محال ، فان اليمن لم تنعم باستقرار في عهد واحد من الدول التى تتابعت عليها ، ومنيت البلاد بنظام مزدوج عجيب لم يصيب به جزء آخر من الجزيرة العربية ، فقد وجد في اليمن نظام الولاية ونظام الامامة، وكان للوالى كما رأينا مناطق نفوذه ، وللدولة مناطق نفوذ أخرى ، وكانت

القوتان في عراك مستمر وكر وفر ، وقد عرف هذا العصر بعصر ثنائية السلطة في غرب الجزيرة العربية أي في اليمن والحجاز حيث كان نظام الشرافة أو حكم الأشراف في الحجاز إلى جانب الوالي العثماني ، وهذه الثنائية في كل منهما كانت هي العامل الفعال في تشكيل تاريخ اليمن ،وتاريخ الحجاز في العصور الحديثة ،وقد تباينت سياسة العثمانيين في هذين الجزأين بشكل واضح ، فبينما ساير العثمانيون ظروف الحجاز وأقروها ، حيث كانت علاقتهم باشراف الحجاز علاقة طيبة ذات نتائج مفيدة ، وقد غمر السلاطين العثمانيون الحجاز بالكثير من عطفهم ، وحسن سياستهم ، وكان كل منهم لا يتردد في اقرار الشريف على امارته ، وارسال الخلع والهدايا إليه ، ومن الواضح أن قرب الحجاز للدولة العثمانية بالنسبة لليمن ،ثم توفر العاطفة الدينية ، كان لذلك تأثير بعيد المدى في السياسة التي نعم بها الحجاز .

أما بالنسبة لليمن فقد كان له وضعه الخاص داخل الاطار العثماني العام نظرا لطبيعة البشرية والطبيعية ، اذ أننا نجد أن البيئة اليمنية تختلف في تنوع سكانها فهناك الشافعي والزيدى والاسماعيلى ، وهناك السهلى والجبلى ، وقد رأينا التطاحن الذى حدث بين الزيدية والقوى السياسية المتمثلة في الدولة العثمانية .

وكذلك أدى وجود الجبال والمرتفعات عموما إلى التقليل من فاعلية الجيوش العثمانية لتحصن أهل اليمن بها ودرايتهم بمسالكها ،وجعل الفقر

الاقتصادى لهذه المناطق أهل اليمن أكثر حساسية من غيرهم ، لذلك نجد أن اليمن كانت أحق بسياسة التهدئة من جانب العثمانيين ، ويزيد الحاجة إلى ذلك ، أن اليمن كانت تواجه منطقة الخطر البرتغالى ، وأن اليمن نقطة ارتكاز لمشروعاتهم فيما وراء البحر الأحمر ، غير أن ما حدث هو العكس ، فقد اقترن الفتح العثمانى لهذه المنطقة بسفك الدماء والهدم والتخريب ، وزاد الحالة سوءا بُعد هذه المنطقة عن عيون الدولة ، مما شجع الولاة العثمانيين على ارتكاب المظالم دون أن تدرى الدولة بذلك ، كما حدث فى عهد سنان باشا ، حيث كان الأهالى يرفعون مظالمهم الى السلطان ، ولا يجيبهم عليها لعدم وصولها إليه بسبب تواطؤ سنان باشا مع أحد الوزراء فى الأستانة ، وعندما مات هذا الوزير وجدت شكاوى أهل اليمن مخبأة عنده ، لذلك كان استقرار الحكم العثمانى فى اليمن أمرا صعبا ومكلفا .

ونتيجة لذلك كله تغيرت نظرة اليمنيين إلى العثمانيين رغم سمو الهدف الذى أتت الدولة العثمانية من أجله الى اليمن ، وهو حماية الأراضى المقدسة من الخطر البرتغالى الصليبى ، لكن سوء السياسة العثمانية فى اليمن ، وسوء تصرفات بعض الولاة والعمال والجنود العثمانيين كانت تثير ضيق اليمنيين وتذمرهم منهم ، فقد أتى هؤلاء ببعض التصرفات التى كانت تسىء إلى سمعتهم الأخلاقية والدينية رغم ما كانوا يشيعونه من أنهم حماة الاسلام ، وكانت هذه التصرفات اما أعمال سلب ونهب فردية ، أو ابتزاز لأموال الأهالى لتغطية تكاليف الحياة التى كانت لا تتفق مع مرتبات العثمانيين المنخفضة حينذاك ، والتى كانت لا تتناسب مع ميلهم إلى الترف والبذخ ،

بالاضافة إلى الأخطاء الأخلاقية ، التى تقع دائما من جانب جنود جيش أجنبى عن البلاد ، مثل اقبالهم على الزنا وشرب الخمر والولع باللهو والطرب ، وغير ذلك مما كان يشير أهالى البلاد ، وكل هذه التصرفات جعلت الإمامة القاسمية تنظر إلى العثمانيين بأنهم رجال خارجين على أصول الاسلام ، ويتضح ذلك من النعوت التى شاعت فى هذه الفترة ، فكانوا كثيرا ما يطلقون عليهم الظالمين ، ويطلقون على أنفسهم جنود الحق أو المجاهدين .(1)

وتظهر هذه النظرة بجلاء فيما أبرزه الكتاب والمؤرخون اليمنيون المعاصرون وقتذاك على اختلاف مواقفهم ، فقد أبرزوا الكثير من أخطاء العثمانيين الاجتماعية التى كانت تؤذى مشاعر اليمنيين ، ومن صور هذه التصرفات ما ذكره أحد المعاصرين قائلا : "" وأما النسوان ففى كل مدانهم لهن حوانيت معروفة مأهولة للفساد ، متخذة لهذا المعنى ، وكل فاسدة تزين نفسها وبابها وتعرض لمن مر عليها ، وعليهن وال ، وعلى كل واحد اقبال يومية وشهرية ""(٢) وذلك بعد أن تحدث عن معاشرة الجنود للصبيان ومجاهرتهم بذلك .

وقد استطرد الجرموزى فى وصف العادات السيئة فقال "" وأما الخمور فظاهرة تدار عليهم فى الأسواق كما يدار بالماء ، ... أما للهو والطرب فهو عادتهم المعروفة وأخلاقهم المألوفة ، وأما المعاملة فى الربا فظاهرة غالبة

---

(١) الشرفى ، اللآلئ المضيئة ص ٢٣١

(٢) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٨٨

عليهم ولا يذكر فيه تحريم ولا تحليل ، وانما يسمونه فايده ، والغدر بمن آمنوه يسمونه دولابا "[1] .

وكذلك ما كانوا يفعلونه من قتل والتمثيل بالقتلى وسلخ جلد الشخص وهو حى ، ثم يأخذونه فيملؤونه تبنا ويلبسونه قميصا وعمامة وينصبونه ، أو يداربه ، وكذلك كما فعلوا بالسيد عامر عم الإمام القاسم ،

كل هذه التصرفات التى كان يقوم بها بعض الجنود والعمال فى اليمن ، جعلت نظرة اليمنيين تتغير تجاههم بنظرة سيئة لا تتفق وسمو الهدف الذى جاءوا من أجله ، فشحنت النفوس كرها لهم وبغضا ، وأتى حين كان الجهاد ضد العثمانيين أقدس واجبات الزيديين وأقرب إلى الجنة فى رأى الزيدية ، وذلك أيضا كان من أهم الأسباب التى جعلت اليمنيين يلتفون حول الإمام القاسم ويناصرون دعوته .

رغم خضوع اليمن للسيطرة العثمانية ، فان هذه الصراعات المستمرة جعلت من الصعب أن نوضح بالتفصيل حقيقة الوضع الادارى لليمن فى هذه الفترة ، لانصراف أغلب المراجع المعاصرة عن توضيح هذا الموضوع ،

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٨٩

غير أن الرسالة التركية التى اعتمد عليها ساطع الحصرى قد قدمت لنا بعض المعلومات الموجزة عن طبيعة الوضع الادارى فى اليمن فى أوائل القرن السابع عشر [1] ، اذ أنها أوضحت أن اليمن لم يقسم إلى اقطاعيات عسكرية مثل أغلب الولايات التابعة للدولة العثمانية فى ذلك الوقت ، بل كانت عبارة عن ايالة أو ولاية ، تضم تسعة ألوية أو سناجق ، هى : صنعاء ، مخا ، زبيد ، تعز ، صهيلة ، كوكبان ، الطويلة ، مأرب ، عدن . [2]

وأوضحت هذه الرسالة من ناحية أخرى أن ضرائب الولاية اليمنية وتكاليفها المختلفة كانت تجبى باسم خزينة الدولة مباشرة ، أو عن طريق الالتزام ، وكان يخصص لأمرائها ورؤسائها رواتب مقننة ، تدفع لهم من الخزانة ، وتعرف باسم السليانة . [3]

---

(١) الرسالة التركية ، عنوانها قوانين " آل عثمان در مضامين دفتر ديوان" يعنى " قوانين آل عثمان فى ما يتضمنه دفتر الديوان ، ألف هذه الرسالة عين على أفندى سنة ١٠١٨ هـ = ١٦٠٩ م الذى كان أمينا للدفتر الخاقانى .

(٢) ساطع الحصرى ـ البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٢٣٠

(٣) السليانة ـ المقرر السنوى .

واتضح لنا من خلال البحث أن الجهاز الإدارى الحاكم فى اليمن هو فى نفس الوقت الجيش المكلف بالمحافظة على السيطرة العثمانية ، وكان والى اليمن هو القائد الأعلى للجيوش العثمانية به ، كما أن السناجق (١) والكشاف وغيرهم من حكام المدن أو القرى اليمنية هم قادة الفرق العسكرية هناك ، وكان النظام الإدارى فى اليمن يقوم على شكل هرمى ، يقف الوالى عند قمته ، ثم يأتى بعده الكتخدا والدفتردار ، (٢) ثم مجموعة حكام الأقاليم والمدن الهامة أى السناجق والكشاف ، ثم يأتى بعدهم أمراء الآلايات والصوباشية ، (٣) وهم قادة الفرق العسكرية الصغيرة ، وحكام المدن أو الأقاليم الأقل أهمية ، وقادة الحاميات الحصون ، ورؤساء للقوات المتناثرة فى أنحاء اليمن ، والتى كانت مهامها حفظ الأمن .

كما استعان العثمانيون بأهالى البلاد فى مختلف الوظائف والرتب فى الادارة والجيش ، بصرف النظر عن الاختلافات المذهبية ، فتولى اليمنيون حكم بعض الأقاليم ، وقادوا الفرق العسكرية ، وتولوا الوظائف الادارية والمالية المختلفة ، بل وتولى بعضهم الوظائف الكتابية فى

---

(١) السناجق - رؤساء الألوية .

(٢) الكتخدا - الوزير ، والدفتردار - رئيس موظفى الواردات والخزنة من الولاية .

(٣) الصوباشية - من يقوم بأعمال الشرطة .

الديوان العثمانى ، وذلك كما حدث مع أمراء آل شرف الدين ،الذين منحهم العثمانيون الألقاب المختلفة وعينوهم حكاما للمناطق الشمالية أو قادة للفرق العسكرية ، وذلك لخلق طبقة يمنية قوية تلتف حولهم لزيادة سيطرتهم على البلاد ، وكان ضعف الولاة أو فسادهم يؤدى الى انتشار الظلم أو الفوضى فى البلاد لضعف الاشراف العملى على حكام الأقاليم ، وعلى تصرفات الجنود والضباط العثمانيين .،

وقد رأينا خلال فصول الرسالة أن فساد بعض الأمراء كان يؤدى الى انتشار الفوضى فى الأقاليم ، وأن الولاة الأقوياء مثل جعفر باشا ومحمد باشا كانوا يقفون ضد تفشى الظلم والفساد واستئصال أسباب شكوى الأهالى .،

وقد تحرى السلاطين ورجالات الدولة العثمانية الدقة فى اختيار ولاة اليمن ، خاصة قبل أن ينتشر الفساد بين نظم الدولة وأجهزتها ، اذ كان يتم اختيار هؤلاء الولاة من بين مماليك السلطان الخاصة ، فيكون السلطان مطمئنا الى سياستهم وتصرفاتهم ، أو ممن تولوا نيابة غزة أو مصر مثل محمد باشا ، وذلك ليكونوا على دراية بأحوال اليمن ، وعلى علم بأخباره ، غير أن تفشى الفساد فى أجهزة الدولة أتاح الفرصة أمام بعض الولاة الضعفاء أو الفاسدين لتولى أمور اليمن ، فقد اعتمد بعض الولاة فى اليمن للوصول إلى مناصبهم على الهدايا والرشوة لرجال

استانبول ، أو على قرابته إلى بعض الولاة ، كما رأينا من أمير صعدة العثماني الذى اعتمد على قرابته من احد رجالات الدولة فى استانبول فعمل على عزل والى اليمن جعفر باشا رغم صلاحيته ، وذلك بعد أن عزله جعفر باشا عن امارته ، وحاربه لتمرده ولميوله الاستقلالية .

ومن ناحية ثانية كان العثمانيون يشتهرون بدقة التسجيل وباهتمامهم بالسجلات والدفاتر الحكومية ، وذلك منذ قيام دولتهم ،[1] واتضح هذا بصورة كبيرة فى اليمن ، وكان الولاة والعمال يهتمون بتسجيل التقسيمات الادارية المختلفة ، كذلك عنوا بتسجيل أسماء مولى الخزينة العامة من ملاك وفلاحين أو تجار أو غيرهم ، كما حرصوا على تسجيل اتفاقيات الصلح التى يتم ابرامها بينهم وبين أمراء اليمن ، حيث كان يتم التسجيل الصلح فى اجتماع كبير يحضره العلماء والأعيان وكبار الضباط وغيرهم ، ثم يدون محضر بذلك الاجتماع يوقع عليه الشهود لتوثيقه .[2]

واعتنى سنان باشا سنة ١٠١٢هـ برسم دفتر فى أوقاف صنعاء ومساجدها[3] ، وكان على كل وال يجرى عزله أن يعد دفاتره للوالي الجديد حتى يحاسبه

---

(١) على همت ـ أبو الفتح السلطان محمد الثانى وحياته العدلية (ترجمه من التركية محمد احسان) ص ٩٦ .
(٢) الموزعى ـ الاحسان ود خول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٦٣
(٣) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٥٠

على المصروفات والواردات ، ويقدم له ما لديه من أموال وسلاح قبل رحيله ، وكثير ما قتل الوالى المعزول دفترداره قبل رحيله ، حتى لا يظهر للوالى الجديد ما ارتكبه من ظلم وغش ، كما فعل سنان باشا بالأميرحسين دفترداره قبل رحيله .(١)

ومن ضمن التنظيمات الادارية التى اتبعها العثمانيون تجاه القبائل القوية التى تحتفظ دائما بتنظيماتها القبلية والتى تقطن المناطق الجبلية الوعرة ، أو المناطق البعيدة عن الزراعة المأهولة بالسكان ، والتى تكون أميل إلى الخروج على السلطة المركزية ، لأنها تدير أمورها بنفسه وفق تقاليدها الخاصة ، وكانت مصدر قلق كبير على العثمانيين ، وكثيرا ما كانوا يقومون بالغارات للحصول على حاجاتهم الضرورية نظرا لفقر أقاليمهم ، وقد خشى العثمانيون هذه القبائل لشدة بأسها ، ولانها قبائل محاربة قوية ، تؤثر فى الحركات المناهضة للعثمانيين ، لذلك اتبعت معها الدولة الأساليب السياسية أحيانا لتقريبها إليهم ، كما قدم بعض الولاة لهم الهدايا والأموال لجذبهم إليهم ، أو منحهم ألقابا ،

---

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح جـ ٢ ص ٨٦

وقد استخدم العثمانيون نظام الرهائن من القبائل والأقاليم لتحقيق الأمن والهدوء في البلاد ، ورغم أن سياسة جمع الرهائن كانت ظاهرة تقليدية في البلاد الا أنها كانت سببا في كره اليمنيين للعثمانيين ، لأنهم أساءوا استعمالها ، فأكثروا من عدد الرهائن التي كانوا يجمعونها، كما أساءوا في معاملة هؤلاء الرهائن رغم أنهم دائما كانوا من بين ذوى المكان والرفعة وسط قبائلهم ، وذلك كما فعل سنان باشا الكخيا أثناء حروب الإمام في قبائل وادعة ، اذ أخذ من بينهم الرهائن من الرجال والنساء ، وأخذ المحاربين منهم ، وأرسلهم إلى المناطق الجنوبية من اليمن للانضمام إلى صفوف العثمانيين في حروبهم ضد قبائل يافع وغيرها .(1)

أما النظم الحربية التى اتبعها العثمانيون في اليمن ، فقد نتج من اعتماد العثمانيين على القوة العسكرية في فرض سيطرتهم في اليمن أن التزموا باتباع سياسة معينة ،وهى ضرورة ارسال النجدات والامدادات إلى ولاتهم لتدعيم هذه السيطرة ، وذلك رغم عجز الدولة أحيانا عن تجهيز الامدادات القوية ، ورغم عزوف الجنود والولاة عن الذهاب إلى اليمن لكثرة الحروب به ولصعوبة الاقامة فيه .

وحين انشغلت الدولة العثمانية في الميادين الأكثر أهمية كانت توكل

---

(1) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٢٦

أمر ارسال النجدات إلى اليمن لوالى مصر العثمانى ، ولكن عندما دب الخلل فى نظم الدولة انعكس على جميع ولاياتها بما فيها مصر ، مما كان سببا فى تجميع الجيوش التى يطلبها ولاة اليمن من الفلاحين وعامة الناس ، ويدل على ذلك قول محمد باشا عندما استشار أصحابه فى صلح سنة ١٠٢٨ هـ قوله "" والعسكر الموجود ليس فيهم من عسكر الأروام (العثمانيين) الذى عرف بالاقدام ومارسوا الحروب غير شرذمة يسيرة "" (١)

وكان تعداد جيوش العثمانيين فى اليمن فى المتوسط حوالى عشرين ألف جندى منهم خمسة عشر ألف جنديا من العثمانيين ، والباقى من العرب من أهالى البلاد الذين كانوا يدخلون فى خدمة العثمانيين ، حيث كان هؤلاء يبقون فى أقاليمهم للمحافظة على الهدوء أو يحاربون بجانب العثمانيين فيها ، وكان العثمانيون يحرصون على استخدام هؤلاء للاستفادة من خبراتهم بأحوال بلادهم ، أو لخدمة أفراد الجيش أثناء الحرب أو السلم ، ويسمى الذى يقوم بالخدمة فى الجيوش باسم (الشفاليت) وهم طائفة من العرب ملفقين من كل قبيلة يأكلون العلوفة ، أى المرتبات العينية السلطانية ، ويخدمون العسكر سفرا وحضرا ويسمى الواحد منهم شفلوت . (٢)

---

(١) يحيى الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٤٦

(٢) النهروالى - البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ص ٨٧

وقد اهتم الولاة بانشاء الحصون ، وبتعمير القلاع وشحنها بالسلاح والعتاد .

وقد سبقت الاشارة إلى أن القادة العسكريين هم أنفسهم القادة الاداريين ، أما الأدوات الحربية التي استخدمها العثمانيون في اليمن ، فكانت أحدث الأسلحة المعروفة في ذلك الوقت ، ومنها المدفعية الثقيلة ، والأسلحة الخفيفة مثل البنادق ، والمسدسات وغيرها ، وقد استخدم العثمانيون سلاحا يسمى كلخا [(١)] وهو يوضع على سنة قوس لرمي الحجارة الدقيقة ، وله رأسان مربعة الشكل يرمون خلالها هذه الحجارة فتشق رأس عدوهم ، واستخدموا الضربزنات ، وهي نوع من المدافع يحشي بالبارود ، وتشعل فيها النار فترمي قذيفتها ، والزيارات ، وهي آلة ضخمة تستخدم في رمي النفط ، واستخدموا الرصاص والمكاحل ، وهي ما يشبه القنابل في العصر الحديث " . [(٢)]

أما النظم المالية ، فقد اتبع المسئولون العثمانيون في اليمن شتى الوسائل الملتوية للحصول على المال ، ولكن بعض الولاة مثل حسن باشا ، الوزير ، قد ألغوا بعض العادات السيئة التي كانت تهدف إلى الحصول على

---

(١) الجرموزي ـ النبذة المشيرة ص ٨١

(٢) الموزعي ـ الاحسان ودخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٤٢

الأموال بشتى الطرق ، ومنها عرف باسم الرسامة ، وهى الاتاوة التى كان يفرضها حراس السجون على المساجين والرهائن ، وكان حسن باشا قد اكتشف هذه العادة عن طريق الصدفة عند سماعه لصراخ أحد المساجين أثناء تعذيبه ، لاجباره على دفع هذه الاتاوة .

ومن ناحية أخرى اتبع العثمانيون نظام الالتزام أو الضمان كما عرف فى اليمن ، لجمع الأموال المقررة على الأراضى ، وهو عبارة عن خراج ، وكان هذا النظام موضع سخط الأهالى وتذمرهم فى كثير من الأحيان ، لما كان به من ثغرات تسمح للقائمين بتنفيذه باستغلال الأهالى فى جمع ثروات خاصة بهم ، لأن العثمانيين لم يقسموا أرض اليمن إلى اقطاعيات عسكرية بل تركت الأراضى لأصحابها ، على أن يدفعوا الخراج المقررة عليها لخزانة الدولة .

والخراج قسمان : خراج مقاسمة وخراج وظيفه ، فخراج المقاسمة هو الضريبة التى تستوفى من الخارج من الأرض بواقع العشر إلى النصف حسب طاقة الأرض ، وخراج الوظيفة هو الضريبة المقررة على الأرض نفسها ، والمستوفاة سنويا ، وقيمة هذا النوع هى العشر حسب الشريعة الاسلامية ، بالنسبة لضرائب الأرض .(١)

---

(١) على همت ـ ابو الفتح السلطان محمد الثانى وحياته العدلية ص ١٢٤

وقد لجأ العثمانيون إلى نظام الالتزام منذ عهد السلطان محمد الثاني سنة ١٤٥١ - ١٤٨١م ، وذلك لضمان تحصيل الضرائب كاملة ، وكان حكام الأقاليم هم الذين يلتزمون أحيانا بجمع الخراج ، فكان هؤلاء يبيعون بالتالي لغيرهم وهكذا ، وكان جميع هؤلاء يحرصون على جمع الثروات الكبيرة من وراء بيع التزاماتهم ، أو من وراء القيام به ، مما كان يزيد في النهاية من الأعباء على عاتق الفلاح ويزيد من متاعبه .

ولهذا فقد كان من المحاسن التي أتى بها حسن باشا ثم جعفر باشا هي بعض الأعمال الاصلاحية في هذا الشأن لأنه استجاب لشكوى أهالي وادي زبيد ، والغى الضرائب التي تجبى على النخيل غير المثمر أو على النخيل الذي تم قطعه لاستعماله في أغراض البناء أو غير ذلك ، وكذلك تجميد الضرائب على النخيل والبقر ، فكان الجباة يحصلون الأموال المقررة في سجلات الدولة من أصحاب النخيل أو من ذريتهم كما هي بغض النظر عما اذا كان هذا النخيل مازال قائما أو لا ، وكذلك الحال بالنسبة للماشية " فأذهب عنهم جعفر باشا رحمه الله ، هذه المظلمة المطلوبة على المفقود ، ولم يبق عليهم الطلب الا فيما هو موجود ".[1]

أما العطلة في اليمن ، فقد اهتزت في بعض الفترات تبعا للأحوال

---

(١) الموزعي ـ الاحسان ودخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٤١

السياسية وتطور الأحداث ، وذلك لأن العملة في أي بلد من البلاد هي المؤشر الصادق للأوضاع الاقتصادية في هذا البلد ، اذ أن ارتفاع وثبات قيمة العملة يدلان على ازدهار اقتصاد البلاد واستقراره ، وعلى عكس ذلك فان انخفاض قيمة العملة واهتزازها باستمرار يدلان على مدى انهيار الأوضاع الاقتصادية ، أو عدم ثباتها ، وقد تلاعب بعض الولاة العثمانيين في قيمة العملة ، اذ كان هؤلاء يعمدون إلى انقاص قيمة الذهب والفضة عند سك العملات المختلفة ، ثم الاستيلاء على هذه الفروق ، وذلك طمعا في تكوين الثروات الخاصة ، وكان التلاعب في قيمة العملة وغشها يؤدى إلى الاضرار بأحوال الأهالى الاقتصادية، وذلك كما حدث في عهد سنان باشا الكخيا ، حيث ضرب السكة التي عرفت باسم المنافير السنانية .[1]

ولكن تغير السكة من حين لآخر كان يؤدى إلى الاضرار بالناس ، فقد ذكر يحيى بن الحسين عن سنان باشا الكخيا قائلا : "" ومما جرى من سنان في اليمن تغير السكة حتى أضر بالناس ضررا عظيما ، فان السكة لا ينبغي تغيرها عن حالة واحدة ، وكذلك الزيادات في المكاييل والموازين يحصل بسببه الخلل "" .[2]

---

(١) الموزعي - الاحسان ودخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٤٧

(٢) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ٤٩

وكان رد الفعل الطبيعي عند الأهالي الإعراض عن تعاملهم بها ، وذلك كما فعلوا مع السكة التي ضربها محمد باشا أثناء ولايته لليمن ، وأصر الأهالي على التعامل بالسكة القديمة "" حتى أن أهل البوادي كانوا يشترطون في قيم سلعهم سكة قديمة "" [1] أما العملة التي كانت مستعملة في هذه الفترة فهي العملة القديمة المعروفة قبل الحكم العثماني مثل الدرهم ، البقشة ، حرف ، حرف أحمر ، القفلة ، الكبير ، القرش الفضة أبو مشط ، وكان يضاف إلى أسماء هذه العملات لفظ عثماني أحيانا تعبيرا على أنها ضربت في العصر العثماني ، وهناك بعض النقود التي ضربها الولاة العثمانيون أنفسهم ، خلال حكمهم وسميت بأسمائهم مثل المناقير السنانية وهي من النحاس كبيرة الحجم ، وكان كل منقار منها يساوي أربع قفال ، والبقشة الفضة أربعة مناقير سنانية .

أما بالنسبة للنظم العمرانية ، فاننا عرفنا خلال فصول الرسالة بأنه طبقا لنظرية الحكم في العصر العثماني ، أن الاصلاحات أو الخدمات العامة في اليمن لم يعطها الولاة الأهمية الأولى ، بل كان هؤلاء يقومون

---

(١) الموزعي - الاحسان ودخل اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ١٠٨

بها أحيانا للتقرب إلى الأهالى ، ولتسهيل مهمة حكمهم ، أولزيادة موارد الأهالى لزيادة موارد خزانة الدولة، أو من أجل رغبة بعض الحكام فى تخليد ذكراهم باقامة المنشآت الكبيرة كالمساجد والمدارس أو القلاع والحصون ،أو بمد طرق وتعبيدها إلى الاماكن البعيدة أو الوعرة، وذلك لأن مهمة هذه الحكومة هى تحقيق الأمن والعدل فى داخل البلاد من ناحية، والمحافظة على الحدود أو توسيع رقعتها من ناحية ثانية،

وطبقا لهذه النظرية نجد أن المؤرخين المنحازين للعثمانيين يهللون عند ذكر الأعمال الخيرية لأحد الولاة ، أو عند ذكر اهتمام هذا الوالى أو ذاك برفع احدى المظالم الادارية أو المالية ، وكانت حصيلة أعمال العثمانيين الانشائية فى اليمن كثيرة فى الواقع ، تزخر المخطوطات اليمنية التى رجعت إليها بذكر هذه المنشآت العمرانية ، وخاصة الولاة الأقوياء الذين ساد الهدوء فى ولايتهم مثل حسن باشا ، فمن مآثره بناءه قبة البكرية فى صنعاء ، وعرفت بهذا الاسم نسبة إلى بكير أغا متولى بنائها ، وكانت مبتكرة ولم يسبق إلى مثلها أحد ، وفى سنة ١٠٢٩ هـ أكمل محمد باشا عمارة مسجد طلحه ومنارته المشهورة ووسعه فصار جامعا فيه منبر وفرشه بأجمل الفرش [١] واهتم سنان باشا سنة ١٠١٣ هـ بتعمير المساجد وبناء الأضرحة والتكايا والمدارس والربط . [٢]

---

(١) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح جـ ٢ ص ١٠١

(٢) الموزعى ـ الاحسان ودخل اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٤٦

وكان يرتبط بالاهتمام ببناء المساجد أو تجديد القائم منها ، القيام ببعض الأعمال الخيرية ، ذات الصفة الدينية ، مثل قيام الولاة بزيارة الأضرحة والاشتراك في الاحتفالات الدينية أو الاهتمام بالمحمل اليمني ، ومن ذلك اهتمام محمد باشا بتجهيز المحمل ، غير أن أعمال الولاة الانشائية لم تقف عند حد تعمير المساجد أو الأعمال الخيرية بل اهتموا أيضا باصلاح الطرق والمدرجات وبناء الجسور للمارة على مياه تمر ببعض طرقها ، فقد أصلح سنان باشا مدرج نقيل شهارة من وادى رجم إلى الباب الغربى من شهارة ، ورصه بالحجارة المحكمة .(١)

ولم يقتصر القيام بالأعمال الخيرية والانشائية على الولاة فقط ، بل كان عمال المدن والأقاليم يقومون بدورهم بتنفيذ مثل هذه الأعمال في داخل مناطقهم ، وذلك مثل ما فعل محمد بن سنان سنة ١٠٢٢هـ في ولاية جعفر باشا ، من بناء الساقية في مدينة تعز ، وهى ذات مياه عذبة وجعلها سبيل لاسقاء الناس ، وجعل بها حوضا يجتمع فيه الماء لشراب البهائم والمواشى .(٢)

كما اهتم الولاة العثمانيون بانشاء السماسر لفائدتها الماليةوالاجتماعية، فقد عمر سنان باشا السمسرة المشهورة بمدينة تعز حيث " جعلها سبيلا

---

(١) الموزعى - الاحسان ودخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٤٦

(٢) الموزعى - الاحسان ودخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٤٨

للمسافرين ،ومأوى للنازلين ، وجعل فيها كناسا ، وسقا ،وسراجا دائما ، وجعل من خارجها الدكاكين ووقفها على مصالحها ، وجعل أجرة خدامها من كرأ الدكاكين "[1]

ونحن نلاحظ أن مدينة تعز كان بها اهتمام عظيم عند العثمانيين لأهميتها بالنسبة للمناطق الجنوبية ،حيث أقاموا بها الكثير من المباني والقصور الضخمة واهتموا بتعمير المدارس والمساجد الموجودة بها ،وعملوا على تسوية طرقها على شكل مدرجات وأدخلوا المياه بعد حفر القنوات الموصلة إليها من جبل صبر القريب منها ، وغير ذلك من الأعمال التي أدت إلى ازدهارها نظرا لأهميتها الاقتصادية في زراعة البن .

هذه لمحة من أبرز النظم العمرانية والادارية والمالية ، التي سلكها العثمانيون في اليمن ، ورغم مرونة نظم الحكم العثماني وخاصة في فترة نمو الدولة ، وقدرة الدولة على أن تستوعب النظم التي وجدتها في البلاد المفتوحة، الا أنه كانت في هذه النظم بعض الثغرات التي حاول منها بعض الولاة العثمانيين في خلال فترة ضعف الدولة ،أن يجدوا منها طريقا للظلم والفساد في اليمن ، وبذلك نجد أن بعض الولاة العثمانيين قد مهدوا الطريق من حيث لا يدرون لقيام دولة الإمامة في اليمن ، اذ صاحب ضعف الدولة

---

(١) الموزعي ـ الاحسان ودخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٤٦

العثمانية وعجزها عن البقاء في اليمن ، نمو قوة يمنية جديدة هي الإمامة الزيدية التي استطاعت أن تفرض وجودها في اليمن خلال المعارك الطويلة التي خاضتها ضد العثمانيين ، حتى استطاعت أن تحل محل العثمانيين عند خروجهم من اليمن .

وأخيرا فانه يمكن القول بأنه كما كان لدى العثمانيين ما شغلهم عن اليمن أو ما أضعفهم عن البقاء به ، أو الرجوع إليه في ذلك الوقت ، فقد كان لدى اليمنيين ما دفعهم إلى محاربة العثمانيين حتى اضطروهم إلى الخروج من بلادهم ، وبذلك جاءت إمامة الإمام القاسم كدور جد خطير في تاريخ اليمن ، وفي تاريخ شبه الجزيرة العربية ، بل وفي تاريخ الدولة العثمانية .

الملاحق

الملحق الأول

السلاطين العثمانيون الذين عاصروا عهد الإمام القاسم بن محمد *

١٠٠٦ - ١٠٢٩ هـ
١٥٩٨م - ١٦٢٠ م

١ - السلطان محمد الثالث	(١٠٠٣ - ١٠١٢ هـ)	(١٥٩٥ - ١٦٠٣ م)
٢ - السلطان أحمد الأول	(١٠١٢ - ١٠٢٦ هـ)	(١٦٠٣ - ١٦١٧ م)
٣ - السلطان مصطفى الاول	(١٠٢٦ - ١٠٢٨ هـ)	(١٦١٧ - ١٦١٨ م)
٤ - السلطان عثمان الثاني	(١٠٢٨ - ١٠٣١ هـ)	(١٦١٨ - ١٦٢١ م)

-•-

* اعتمدنا فى كتابة الملحق الأول على مخطوطة : محمد بن محمد أبى السرور - المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية ص ٧٥ ، ٥٩ ، ٥٢ و ٧٢

الملحق الثاني

الولاة العثمانيون في اليمن في عصر الإمام القاسم بن محمد *

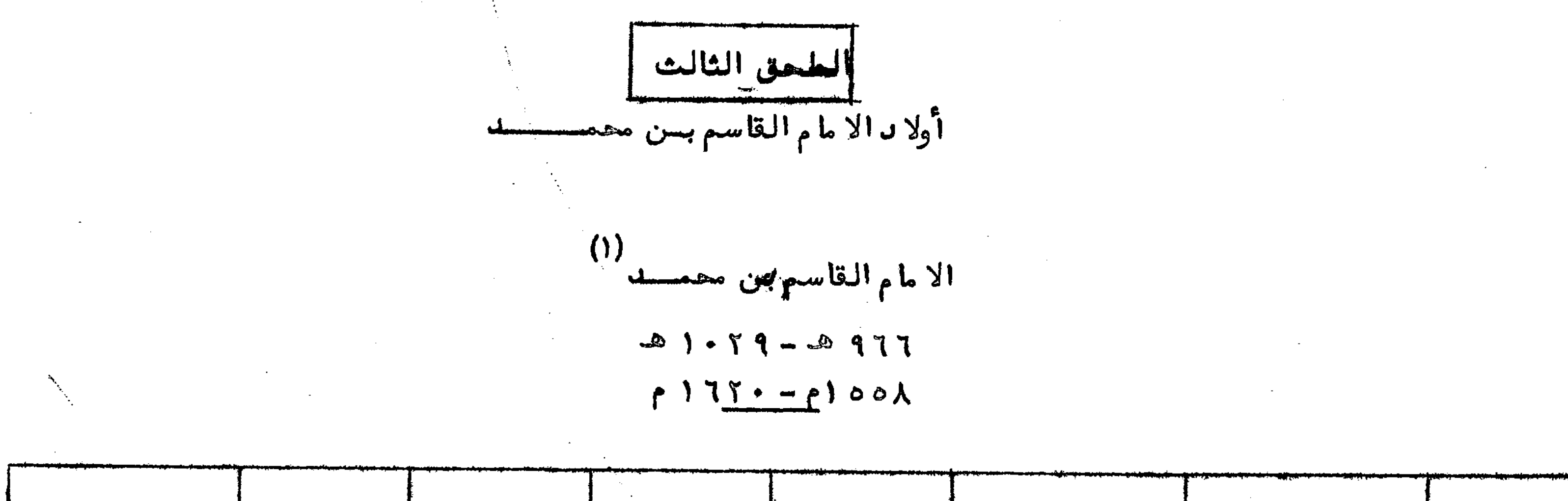
الوالي			
١ - حسن باشا	٩٨٨	-	١٠١٣ هـ
	١٥٨٠	-	١٦٠٤ م
٢ - سنان باشا	١٠١٣	-	١٠١٦ هـ
	١٦٠٤	-	١٦٠٧ م
٣ - جعفر باشا	١٠١٦	-	١٠٢٥ هـ
	١٦٠٧	-	١٦١٦ م
٤ - محمد باشا	١٠٢٥	-	١٠٣١ هـ
	١٦١٦	-	١٦٢١ م

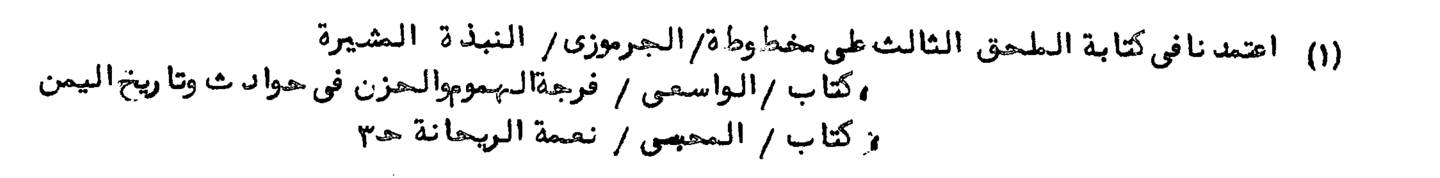
---

* محمد بن محمد أبي السرور - المنح الرحمانية في الدولة العثمانية (مخطوط) ص ٧٥، ٥٩، ٥٢، 72

الملحق الثالث

أولاد الامام القاسم بن محمد





(١) اعتمدنا في كتابة الملحق الثالث على مخطوطة/ الجرموزي/ النبذة المشيرة
، كتاب / الواسعي / فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن
، كتاب / المحبي / نفحة الريحانة جـ٣

ملحق خاص بالمراجع

رأيت أن أقدم تحليلا موجزا لمصادر ومراجع هذه الرسالة ، لأنه يصعب في الحقيقة الحديث عن مصادر هذا البحث حديثا مختصرا ، كما أنه من الصعب الأسهاب في تحقيق جميع المراجع ، فالمخطوطات التي اعتمدت عليها في رسالتي كانت تمثل العمود الفقري لها ، ان لولاها ما أمكن كتابة هذه الرسالة ، أو التفكير في كتابتها ، لأن هذا البحث جديد في الكتابات الحديثة .

وهذا البحث أثراه مجموعة من المخطوطات النادرة ،عكفت على دراستها وتحليلها ، منها مخطوطة اللآلئ المضيئة للشرفي ، وكذلك النبذة المشيرة للجرموزي .

وتقوم أهمية هذه المخطوطات على أساس أن كتابها قد عاصروا تلك الأحداث التي تناولها البحث ، أو أنهم عاشوا في فترات تلي تلك الأحداث مباشرة ، ولذلك ذخرت تلك المخطوطات بالتفصيلات المطولة التي ساعدتني على كتابة هذه الرسالة ، وعلى فهم أبعادها والظروف التي أحاطت بها .

لكن قبل الحديث عن كل مخطوطة على حدة ، لابد أن نعرف أن هناك سمات عامة شملت مجموعة المخطوطات التي استخدمتها ،وهي أن هذه المخطوطات اتصفت بوجه عام بضعف الأسلوب والركاكة ،والميل إلى

السجع في أغلبها ، كذلك امتلأت بالكثير من الألفاظ العامية ، وذلك لانحطاط اللغة في ذلك العصر .

ومن ناحية أخرى ، تشابهت هذه المخطوطات في رداءة الخط الذى كتبت به حتى اضطررت إلى استخدام آلات التكبير وجهاز للقراءة Reader وصبرت على قراءة هذه المخطوطات لكى أستفيد منها وأفيد ، كما أن ناسخي هذه المخطوطات يغفلون وضع الكثير من النقط على الحروف ، مع عدم استخدام الهمزات ، مما كان يجعلني أفسر الكلمة عدة تفسيرات حتى أصل إلى المعنى المطلوب ، فكان ذلك يأخذ من الجهد والوقت الكثير .

وقد التزمت هذه المخطوطات بطريقة الحوليات ، وهي الطريقة التقليدية في تدوين التاريخ في العالم الاسلامى حتى ذلك الوقت ، مما كان يؤدى إلى تفتيت الأحداث التاريخية بين عدد من السنيين ، بالاضافة إلى أن أغلب هذه المخطوطات كتبت بأقلام منحازة ، اذ كان لكل مؤلف من مؤلفيها موقف خاص من الأحداث التى عاصرها ، فقد انحاز البعض إلى جانب العثمانيين ، وانحاز البعض الآخر إلى جانب الزيديين ، مما أدى إلى صعوبة الاستفادة من هذه المخطوطات ، كما أدى إلى ضرورة الحذر الشديد والتريث عند الرجوع إليها ، حتى أتخلص من نزعات الرضى أو السخط في الأخذ منها .

كما أن هذه المخطوطات جميعها اهتمت بالجانب السياسي ، دون الاهتمام بالنواحي الاقتصادية أو الاجتماعية السائدة في الدولة العثمانية أو الدولة القاسمية الآ ما جاء عابرا في قصص تروى فيها دون القصد من أنها ناحية اجتماعية أو اقتصادية ، بالإضافة إلى أن تلك المخطوطات قد امتلأت بالمدح أو الذم للقوى المعاصرة وقتذاك ، اذ كان ذلك من طابع هذا العصر الذى نحن بصدد الحديث عنه ، فنجد أن من انحاز إلى جانب العثمانيين يطنبون في مدح السلاطين والولاة ، ويطلقون عليهم الألقاب العظيمة ، ويبالغون في وصف أعمالهم وفي تمجيدهم إلى حد يبعث الطل مثل مخطوطة الموزعي ، الاحسان في دخول اليمن تحت عدالة آل عثمان ، وفي نفس الوقت يكثرون من مهاجمة القوى الأخرى بنعوت مبالغ فيها حتى تدفع المرء إلى الشك في الأخذ بتلك الاتهامات .

كذلك فعل من كتب بأقلام زيدية فقد نعتوا العثمانيين بصفات الكفر والالحاد والخروج على الدين ، وأخذوا يسفهون أعمالهم ويحقرونهم ويطلقون عليهم الظلمة .

كما أننا نجد أن أكثر من كتب هذه المخطوطات من رجال الدين والفقهاء ، والقضاة والوعاظ وغيرهم ، فقد كان رجال الدين بوجه عام يمثلون الطبقة المثقفة في ذلك العصر ، وكانوا هم الذين يكتبون التاريخ ويؤلفون في نواحي المعرفة الأخرى ،

كذلك التزم مؤلفو هذه المخطوطات بالمنهج السائد في تلك القرون ،فقد كانوا مؤلفو هذه المخطوطات يعمدون إلى توثيق المعلومات التي يسوقونها في مخطوطاتهم ، والتي لم يعاصروها ،فيذكرون في مقدمتها المراجع التي نقلوا عنها ، مع الاشارة بنظرة فاحصة إلى أهمية كل منها ، أما الأحداث التي عاصروها فانهم يعمدون إلى ذكر الأشخاص الذين رووا هذه الأحداث ،فيشيرون إلى هؤلاء الأشخاص بقولهم : حدثني فلان ،إلى غير ذلك من تلك العبارات الدالة على المصادر ، أما الأحداث التي شاهدوها بأنفسهم فكانوا يعمدون إلى الاسهاب في وصفها ، مع ذكر الشخصيات الكبيرة التي احتكوا بها .

كما حرص هؤلاء المؤلفون في مقدماتهم على ذكر المنهج الذي التزموه في كتاباتهم ، فيوضحون الغرض الذي دفعهم إلى الكتابة ،سواء كان غرضا شخصيا مثل تكليف أحد الولاة لهم بكتابة تاريخ اليمن أو جزء منه ، أو حتى للتقرب إلى هذا الوالي أو ذاك ، أو مثل الدفاع أو الهجوم على احدى القوى المعاصرة حينذاك ، أو لتقديم العظة والاعتبار للمسلمين الذي كان من أهم الأغراض لكتابة التاريخ عند مؤرخي المسلمين وقتئذ .

ثم يواصل هؤلاء توضيح منهجهم فيذكرون في مقدماتهم أيضا الطريقة التي قسموا بها مخطوطاتهم إلى أبواب وفصول ،ويوضحون أسباب هذا التقسيم وأسباب إبرازهم لبعض الأحداث دون البعض الآخر ،وأسباب تمسكهم

بطريقة الحوليات .

غير أن هذه النقائض والملاحظات جميعها لم تقلل من أهمية هذه المخطوطات بالنسبة لموضوع الرسالة ، فقد تميزت بوفرة مادتها ، وباتصال هذه المادة بموضوع البحث مباشرة ، وبتنوع وجهات نظرها .

فرغم عيوب كتابة التاريخ على طريقة الحوليات على سبيل المثال ، فان هذه الطريقة نفسها تعطي الفرصة لذكر الكثير من التفصيلات التي لا غنى عنها لتوضيح الصورة العامة لأحداث تلك الفترة ، مما كان يساعد باستمرار على توضيح وجهات النظر المختلفة مما كان يعمق في النهاية فهمنا لتطور الأحداث .

لذلك يمكن أن نحلل كل مخطوطة على حدة لأن كلا منها كانت تتميز بمميزات خاصة مهما صغر حجمها أو قلت مادتها ، وسأبدأ بالأهم فالمهم : وأولى هذه المخطوطات هي مخطوطة " النبذة المشيرة إلى جمل من عيون السيرة في أخبار المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي " لمؤلفها الجرموزي : مطهر بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن المنتصر أبو الشريف الحسني الجرموزي ولد سنة ١٠٠٣هـ = ١٥٩٥ م وتوفي سنة ١٠٧٧هـ = ١٦٦٧م وله تاريخ جمع فيه أحوال الأئمة الثلاثة الإمام القاسم وولديه المؤيد والمتوكل على الله اسماعيل ذكر فيها كثير من وقائعهم ، وأحوالهم ومكاتباتهم ، والمؤلف

الثاني له : الجوهرة المضيئة في تاريخ الخلافة المؤيدية ، وقد حضر تولي الإمام المؤيد ، وله أيضا " سيرة الإمام المتوكل على الله اسماعيل ".

تولي الجرموزي على بلاد عتمة في عهد الإمام القاسم بن محمد ، وكان أحد قواد جيشه ، واحتوى مخطوط النبذة المشيرة على رسائل للإمام القاسم للأفراد والجماعات ، وعهود الامام وتعيينات الأشخاص في بعض الأقاليم ، وهي تظهر رأيه في أنه لا يتولى هذه المناصب الا أهل البيت ، وفيها قصائد بمناسبة النصر والرثاء ، كما احتوت على أهم مؤلفات الإمام القاسم ومناسباتها وأعمال الإمام العمرانية ، كما قسم دعوة الإمام القاسم إلى أربع نهضات ، حتى انتهى الى النهضة الرابعة بوفاته سنة ١٠٢٩ هـ .

واعتمد الجرموزي في هذه المخطوطة على ماجاء في مخطوطة الألىء المضيئة للشرفي والتي سنتكلم عنها بعد ذلك ، واعتمد كذلك على مخطوطة روح الروح لعيسى بن لطف الله ، وبعض الاحداث التي رآها هو بنفسه أو أنه نقلها عن لسان ولد الإمام القاسم محمد (المؤيد) .

واتصفت مخطوطة النبذة المشيرة بعنف لهجتها ، وشدة معارضتها للعثمانيين ، كما اعتنت هذه المخطوطة بالكثير من التفصيلات التي تدل على قرب مؤلفها من الأحداث ، ولا غرابة في ذلك اذ أن مؤلفها من كبار أتباع الإمام القاسم وأولاده ، وقد شاركوه في دعم دعوته ، وبالاضافة إلى ذلك

فانه قد حرص على ذكر أسماء من أخذ عنهم الأحداث التى لم يشاهدها وجميع هؤلاء كانوا من قادة جيش الإمام القاسم أو من كبار علماء الزيدية ، أو من رؤساء القبائل الذين انضموا إلى الإمام ، أى ممن كانوا يشاركون الاحداث عن كثب .

كانت هذه المخطوطة هى الركيزة الأولى التى اعتمدت عليها فى رسم الاطار العام لرسالتى ، واعطتنى فكرة واضحة عن أعمال الإمام القاسم ونصائحه ،وتمسكه بتعاليم الاسلام ، وقد بذلت مجهودا كبيرا لقراءة هذه المخطوطة ، لأنها كانت الأولى بالنسبة لى فى قراءة المخطوطات مما استغرق منى وقتا طويلا وذلك يرجع لرداءة الخط من جهة وانها كانت على "ميكروفيلم"، مما اضطرنى إلى استعمال آلة القراءة لساعات طويلة ، وكذلك طولها من حيث الكم حيث بلغ عدد صفحاتها حوالى ثلاثمائة صفحة تقريبا ، ولكن رغم ذلك تغلبت على صعوبتها بالصبر والمثابرة واستطعت أن أخرج منها بنتائج قيمة عرضتها فى نتائج وتحليل هذه الرسالة ، وتعتبر رسالتى هذه دون مبالغة وكأنها نشر لهذه المخطوطة .

المخطوطة الثانية : اللآلئ المضيئة فى أخبار الأئمة الزيدية ومقتصدى العتره الزكية ومن عارضهم من سائر البرية ، لمؤلفها أحمد بن محمد بن صلاح ابن محمد بن أحمد بن محمد بن القاسم بن يحيى بن الأمير داود ،المعروف بالشرفى ولد سنة ٩٧٥ هـ وتوفى سنة ١٠٥٥ هـ ، بدأ كتابة هذا المخطوط سنة

١٠٢٨هـ ، وله مصنفات منها : شرح الأساس ، وشرح الأزهار ،في أربع مجلدات وله أشعار ،وهو تلميذ للإمام القاسم بن محمد .

تكلم في هذه المخطوطة عن ستة من الأئمة الزيدية من بينهم الإمام شرف الدين وابنه المطهر ،والإمام القاسم بن محمد ، والإمام المؤيد بالله والحسن بن القاسم، والحروب التي خاضوها ضد العثمانيين ، كما ذكر عن دولة الشراكسة ، وحكام آل عثمان ،وكيفية فتح إقليم اليمن .

واعتمد في تأليف هذه المخطوطة كما ذكر في مقدمته لها ،على قصيدة السيد صارم الدين ابن ابراهيم بن محمد التي عارض بها قصيدة البسامة وهي شرح حافل في ثلاثة مجلدات ، كما اعتمد على مشاهداته الخاصة لأنه شاهد أكثر الأحداث بنفسه .

وفي ذلك يقول في مقدمة المخطوطة : أما بعد ،فقد ذكرنا في الجزئين الأولين من الكلام ما عرض ذكره لنا من حوادث الزمان ، وتقلب الدهر، لما انتهى شرح ما ذكره السيد ابراهيم بن محمد في البسامة، وذلك ما نتج من الحوادث إلى زمانه وزمان مصنف الشرح وهو الفقيه محمد بن علي الرجيف الصعدي، والحق بعد ذلك في الحوادث المتأخرة السيد العلامة داود بن الهادي بن أحمد بن المهدي بن الحسن بن علي بن أمير المؤمنين المؤيد أبياتا ضمنها بعض الحوادث المتأخرة وشرحها ، ...

وكانت لهذه المخطوطة أهميتها أيضا بالنسبة للرسالة ، لأنها كانت تفسير ما غمض عليّ في مخطوطة النبذة المشيرة ، كما أن كاتبها كان يكتب الأحداث ويعلق عليها ويعللها ولم يكتف بسردها فقط ، بل كانت له طريقة تحليلية في شرح الأحداث مما ساعدني كثيرا في معرفة وجهة نظر من عاش الأحداث وعاصرها ، ولكن رداءة الكتابة وعدم وضوحها بالاضافة إلى عدم الاهتمام بالنقاط والهمزات أخذ مني الجهد الكبير .

كما أنني لاحظت عند قراءتي للمراجع التي استعنت بها في بحثي ، أن أحدا لم يأخذ عنه ، ولا أدري هل هذا يرجع لندرة وجود المخطوطة أو لصعوبة الاستعانة بها للأسباب التي ذكرتها من قبل أو أنهم اكتفوا بمن أخذ عنه مثل الجرموزي ، ويحيى بن الحسين في مخطوطته أنباء أبناء الزمن في تاريخ اليمن .

المخطوطة الثالثة : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح ، لعيسى بن لطف الله بن المطهر بن الامام شرف الدين اليماني الكوكباني ، توفي في عهد المؤيد بالله محمد بن القاسم سنة ١٠٤٨هـ ، كتب هذه المخطوطة في ثلاثة أجزاء واختص بها الوزير محمد باشا وذكر فيه ماكان من أحداث القرن العاشر الهجري ، ١٦ م من الفتوح كما ألف مخطوطة أخرى لمحمد باشا تسمى " النفحة اليمنية في الدولة المحمدية " ، والجزء الثاني من هذه المخطوطة بدأه من سنة ٩٠١هـ إلى سنة ١٠٢٩هـ ، والجزء

الثالث أكمله ابنه عن لسانه وهو يبدأ من سنة ١٠٢٩هـ إلى سنة ١٠٦٧ هـ.

واتبع عيسى بن لطف فى كتابة مخطوطته الطريقة التقليدية فى تسجيل الحوادث التاريخية ، وهى طريقة الحوليات ، وقد ذكرت أن عيسى بن لطف الله كتب هذه المخطوطة بتكليف من الوالى محمد باشا الذى عاصر اشتداد دعوة الإمام وحروبه ، لذلك كانت كتابته فى كثير من المواضع متعاطفة مع العثمانيين من ناحية ، ولكنه حافظ على تعصبه للزيديين لانتمائه إليهم ، فهو حفيد المطهر ابن الإمام شرف الدين ، ومن أجل ذلك عادى الإمام القاسم عند بداية دعوته ، وذلك تبعا لعداوة أسرة الإمام شرف الدين لهذه الدعوة حينذاك ، لتضارب المصالح ، كما أوضحت ذلك خلال فصول الرسالة.

وانعكس هذا الموقف على ما جاء بمخطوطة عيسى بن لطف الله ، فقد تحيز لتاريخ أسرته كثيرا ، وساعده على ذلك أن هذه الأسرة لم تكن هى العدو الحقيقى للعثمانيين فى زمن عيسى بن لطف الله ، بل كان أغلب أفرادها قد دخلوا فى طاعة العثمانيين ، وأصبحوا من أدواتهم فى اليمن ، وفى نفس الوقت لم يعاد العثمانيين كثيرا فى كتاباته ، بل عادى الإمام القاسم ودعوته عند بداية قيامها ، ثم اعتدل فى موقفه منها وخاصة بعد أن توالت انتصارات الإمام على حساب العثمانيين وسيطرته على أكثر الأقاليم ، وذلك قيل انه كتب قصيدة مشهورة فى أواخر أيامه أرسلها إلى الإمام القاسم ينفى عن نفسه ما أشيع عنه من ناحية انحيازه للعثمانيين ، يقول فيها :

ما شافني سجع الحمامـــة سحرا ولا بـــرق اليمامـــة

ويظهر هذا الموقف المعتدل بجلاء في الجزء الثالث من مخطوطتـــه ، ولهذا نجد المحبي في كتابه خلاصة الأثر ـ الجزء الثالث ،ص ٢٣٦ فـــي ترجمة حياته يقول "" وله التاريخ المشهور الذي سماه روح الروح ، صنفـــه في الظاهـــر للأروام (العثمانيين) .

المخطوطة الرابعة : أنباء أبناء الزمن في تاريخ اليمن ،ليحيى بـــن الحسين بن الإمام القاسم بن محمد المتوفي سنة ١١٠٠هـ ، وقد حققت هذه المخطوطة حديثا في كتاب مختصر تحت عنوان " غاية الأماني في أخبار القصـر اليماني "وقد اتبع المؤلف في هذه المخطوطة الطريقة التقليدية المعروفة بالحوليات ،حيث بدأ هذه المخطوطـــة من الهجرة النبوية إلى أحـــداث سنة ١٠٥٦هـ ، كان يحيى بن الحسين أكثر اعتدالا من عيسى بن لطف اللـــه ولم يكن متحيزا إلى جانب دون آخـــر ، فيتميز أسلوبه بالاعتدال والاتـــزان وقلة اندفاعه وانفعالـه بين الأطراف المتنازعة ، وقد يرجع اعتدال يحيى بن الحسين وموضوعيته رغم تعصبه للزيدية لانتمائه إليهم ، اذ كان حفيد للإمام القاسم بن محمد ،الا أنه لم يعاصر التهاب الأحداث في اليمن ،أو اشتداد العداء بين الزيديين والعثمانيين لأنه عاش بعد خروج الأخيرين من اليمن .

وتعتبر هذه المخطوطة من أهم المراجع التي تناولت تاريخ اليمن في تلك

الفترة ، وذلك لكثرة تفاصيلها ،ولقرب مؤلفها من الأحداث ، ولانها كتبت بقلم مؤلف موضوعي النظرة غير متحيز وهذه من أهم المميزات التي يجب أن تتوفر في المؤرخ .

المخطوطة الخامسة : تاريخ دولة الترك ، مؤلفها مجهول ، ولكن يظهر من أسلوبه في كتابة المخطوطة أنه يمني زيدي متحيز للزيدية ، وقد احتوت المخطوطة على كثير من حروب الإمام القاسم ،وقد دافع فيها عن وجهة نظر الأئمة الزيديين ،وتحيز للدفاع عن قضيتهم ،وهاجم العثمانيين واتهمهم بالخروج على الدين ، والصق بهم الكثير من التهم الشائنة، وكان تحيزه واضحا في كل المخطوطة .

وقد بدأ مخطوطته منسنة ٩٨٦ هـ إلى سنة ١٠٥١ هـ أي من إمامة الحسن بن علي بن داود إلىعهد الحسن بن القاسم بن محمد .

المخطوطة السادسة : الاحسان في دخول اليمنتحت ظل عدالة آل عثمان ، للقاضي شمس الدين عبد الصمد بن اسماعيل بن عبد الصمد الشهير بالموزعي - لميعرف تاريخ وفاته - كان نائب الشريعة في مدينة تعز ، وقام بالتدريس بها على مذهب الإمام محمد بن ادريس أي المذهب الشافعي

كتب هذه المخطوطة فيعهد السلطان عثمان الثاني سنة١٦١٨ م =

١٦٢٢م ، وقد كتب مخطوطته للتقرب من حاكم تعز الأمير محمد بن سنان باشا الكخيا ، وقد اتضح انحيازه بشكل كبير للعثمانيين سواء في الأسلوب أو طريقة معالجته للموضوعات أو الطريقة التي عرض بها الأحداث التي حاول ابرازها ، وقد يرجع ذلك إلى اتباعه للمذهب السني الذي يعتنقه العثمانيون .

غير أنني أرى أنه بجانب اتباعه للمذهب السني فهناك أسباب شخصية ومادية دفعته للوقوف في جانب العثمانيين ، اذ أنه كما ذكرت يشغل منصب قاضي شريعة تعز من قبل العثمانيين ، كما أنه كتب هذه المخطوطة للتقرب من محمد بن سنان حاكم تعز .

ولكن كتابا تطم تقف عند حد الترجمة لهذا الحاكم ، بل اهتم بدراسة تاريخ اليمن منذ عهد السلطان عثمان الاولى إلى عهد الأمير محمد بن سنان أي في عهد المؤلف ، لذلك نرى انحياز المؤلف واسهابه في مدح العثمانيين إلى أقصى الحدود ، كما أن هذه المخطوطة تكشف لنا عن الأعمال العمرانية التي قام بها الولاة العثمانيون ، مما أعطانا نموذجا واضحا لطبيعة الحكم العثماني في اليمن ولسياسة الولاة هناك من الناحية السياسية والاجتماعية والعمرانية ، لكن هذه المخطوطة لم تذكر المقاومة اليمنية ضد حكم العثمانيين بطبيعة الحال ، ورغم ذلك يمكن أن نعتبر هذه المخطوطة كتابا تاريخيا متكاملا ذات ملامح واضحة ، رغم ما يشوبها من التحيز ومن التطويل في بعض المواضع .

المخطوطة السابعة : اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية ، لبدر الدين بن محمد بن اسماعيل بن محمد الكبسى الحسنى سنة ١٢٢١ هـ - ١٣٠٨هـ = ١٨٠٦م - ١٨٩١م ، يتميز أسلوب الكبسى بالاتزان والاعتدال سواء من جهة العثمانيين أو من جهة الزيديين ، بدأ كتابة هذه المخطوطة من أول ذكر عمال الرسول صلى الله عليه وسلم على اليمن الى سنة ١٢٩٣هـ ، وقد أفادتنى هذه المخطوطة كثيرا لأنها عرضت تاريخ اليمن بصورة موجزة ، مما ساعدتنى على فهم بعض الاحداث التى غمضت على أو تاهت فى المخطوطات الأخرى المطولة .

وهكذا فقد أفادتنى هذه المخطوطة فى توضيح الصورة العامة لأحداث دعوة الإمام القاسم بن محمد واكمال بعض تفاصيلها الهامة ، وان كانت تعتبر أقل أهمية عن المخطوطة الأولى والثانية التى كانتا الركيزة الأولى فى الرسالة .

المخطوطة الثامنة : المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية ، لمحمد ابن محمد أبى السرور زين العابدين بن محمد البكرى الصديقى المعروف بابن أبى السرور سنة ١٠٠٥ - ١٠٨٧ هـ = ١٥٩٦م = ١٦٧٦م .

ألف هذه المخطوطة بعد تأليفه للتاريخ المسمى " عيون الأخبار ونزهة الأبصار " فقد طلب منه اكمال هذا التاريخ ، وان يفرد فيه ذكر الدولة

العثمانية مع زيادات يذكرها فكتب هذا المخطوط ، وخص به للسلاطين العثمانيين من بعد دخول مصر فى ظل الحوزة العثمانية حتى عهد السلطان مصطفى الأول سنة ١٦٢٢ - ١٦٢٣ م واهتم بذكر ولاة مصر وبعض أعمالهم ،

ورغم أن هذه المخطوطة كتبها مؤلف مصرى ، واختصت بتاريخ مصر الا أننى استفدت منها كثيرا ، وذلك لارتباط مصر باليمن فى تلك الفترة من جهة كما أنها انفردت عن غيرها من المخطوطات بمعلومات خاصة عن تجهيز الحملات من مصر إلى اليمن مثل محمد باشا مثلا الذى كان متوليا لمصر ثم نقل إلى ولاية اليمن . فهذه التفاصيل لم تذكرها المخطوطات اليمنية .

المخطوطة التاسعة : قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون ، لأبى الضيا عبد الرحمن بن الديبع الشيبانى الزبيدى الشافعى ، ولد فى المحرم سنة ٨٦٦ هـ بزبيد ونشأ بها وحفظ القرآن واشتغل بالفقه والحساب والجبر وله مؤلفات منها " بغية المستفيد بأخبار زبيد " و " الفضل المزيد " توفى سنة ٩٤٤ هـ .

فى هذه المخطوطة عرض عام لتاريخ اليمن من صدر الاسلام حتى الدولة الطاهرية آخر الدول السنية فى اليمن سنة ٩٢٣ هـ = ١٥١٧ م ، ورغم أن تاريخ هذه المخطوطة بعيد عن موضوع بحثى الا أننى استفدت منها فى بعض النقاط مثل كيفية دخول المذهب الزيدى إلي اليمن ، ووصول العثمانيين لأول

مرة إلى شواطىء اليمن أيام السلطان عامر بن عبد الوهاب .

المخطوطة العاشرة : تاريخ دخول الأتراك إلى بلاد اليمن ومن ملك اليمن من طوايف المختلفة فى زمن الاسلام ، مؤلفها مجهول ، تحدث فيها المؤلف عن الولاة العثمانيين فى اليمن من أول دخول حسن الكردى سنة ٩٢٢ هـ إلى زبيد، إلى الوالى فضل الله باشا سنة ١٠٣١هـ ، وبها بعض الحكايات والاشعار والنوادر كما تحدثت المخطوطة عن اختطاط مدينة زبيد منذ سنة ٢٠٤ إلى سنة ١٠٣٢ باختصار، وكتبت هذه المخطوطة سنة ١٠٣٢هـ وهى مختصرة جدا الا اننى قد استفدت منها فقد كنت فى حاجة إلى هذه القلة القليلة من المادة التاريخية التى جاءت فى هذه المخطوطات .

وأخيرا ، فلاشك أن مجموعة المخطوطات التى تمثل العمود الفقرى لهذه الرسالة كما ذكرت سابقا ، هى المصادر الأصيلة التى تتصف بأنها دراسات جادة متعمقة والتى لولاها لما استطعت كتابة هذه الرسالة والوصول الى هذه النتائج .

أما المراجع العربية المطبوعة حديثا ،فلها أهميتها أيضا فى هذه الرسالة لأنها تضم كتابا تركيا مترجما وهو كتاب علىهت ، وترجع أهميته إلى أن تأليفه عاصر نفس الفترة التى كتبت فيها المخطوطات التى رجعت

إليها ، وقد أعطاني فكرة عن الدولة العثمانية في استانبول ، ونظمها ، مما لم يأت في المؤلفات التي ألفت عن الدولة العثمانية حديثا ، كما انني كنت أود الرجوع لمراجع تركية أصيلة ، أو كتب تركية مترجمة أكثر من ذلك ، لكنني لم أتمكن لعدم توفرها في مكتبات المملكة العربية السعودية ولصعوبة استعارتها من مكتبات استانبول .

كما تضم مجموعة المراجع الكتب التي تخصصت في التراجم عن الشخصيات الهامة في اليمن مثل كتاب " خلاصة الاثر للمحبي ونفحة الريحانة لنفس المؤلف " والبدر الطالع للشوكاني ، فقد كنت في حاجة لهذه الكتب لأعطي صورة متكاملة عن الشخصيات التي أتحدث عنها في الرسالة أو حتى للترجمة عن مؤلفي المخطوطات لما لهذه التراجم من أهمية تنعكس على كتاباتهم ، بالاضافة إلى ذلك فان هذه المراجع تضم أيضا الكتب التي كتبت بأقلام يمنية سواء من القدماء أو المحدثين ، مثل كتب الواسعي والويسي ، وعبد الله الثور ، وأحمد شرف الدين ، والعرشي .

وقد أفادتني هذه الكتب من الناحية الجغرافية للبلاد ومواقع كلا منها ، والقبائل التي تسكن اليمن .

وهناك الكتب التي تحدثت عن الدولة العثمانية نفسها ونظمها مثل كتاب الدولة العلية ، وقد رجعت إلى مرجع انجليزي "تاريخ اليمن السعيد "

A History of Arabia Felix or Yemen- Ropert Playfair لمؤلفه
لأتعرف على وجهة النظر الأجنبية من موقف العثمانيين فى اليمن ، ومحاولة صد أى تدخل أجنبى فى البحر الأحمر باعتباره بحيرة اسلامية.

وهذه المراجع تأتى فى المرتبة الثانية بعد المخطوطات لأن مؤلفيهما قد نقلوا عن غيرهم ، أو انها قد أخذت مادتها من المراجع الأصلية التى رجعنا إليها نحن أيضا ، وهذه المراجع أغلبها تعالج موضوعا معينا ، أو نقطة محددة ، لذلك لم أعتمد عليها الا فى نقاط متفرقة كما يتضح فى فصول الرسالة .

وأخيرا ، فرغم تقصيرى فى التعريف عن جميع مراجع الرسالة كلا على حدة أو بشىء من الاستعاضة لضيق المجال هنا ، لأن هذا يحتاج إلى بحث خاص يضيق المجال عن تناوله بهذه الصورة .

الا أننى يمكن أن أقول بأن مصادر ومراجع هذه الرسالة تتصف بالأصالة ، وبأنها دراسات جادة متعمقة ، وهذا لا ينفى أن بعضها كان قليل الأهمية ، أو يعتبر من المراجع الثانوية ، غير أنها تضافرت فى معالجة موضوع الرسالة ، وساعدتنى فى كتابة فصولها ونقاطها ، وجعلتنى اتوصل فيها إلى نتائج هامة تمثل إضافة ، ألا وهى نظم الدولة

القاسمية التى لم يعرها أحد من قبل بالأهمية .

فلعلى أكون وفقت فيما أردت أن أظهر من الحقائق ، وفيما أبديت من آراء وتعليقات ، فانى لم أبتغ غير الحقيقة ، ولم أستهدف الا المنفعة العامة .

-•-

ثبت المراجع

أ- المخطوطات

١ - أبن أبى السرور : محمد بن محمد أبى السرور زين العابدين ابن محمد البكرى الصديقى المعروف بابن أبى السرور - ١٠٠٥ - ١٠٨٧هـ = ١٥٩٦ م - ١٦٧٦ م :

* المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية ،أفرده من كتاب عيون الأخبار ونزهة الأبصار وزاد عليه ، رقم المخطوط ١١٠٥ بجامعة الدول العربية ، معهد المخطوطات العربية ٨٤٠ تاريخ

٢ - ابن الديبع : عبد الرحمن بن على بن محمد الشيبانى الزبيدى الشافعى وجيه الدين المعروف بابن الديبع ٨٦٦-٩٤٤هـ = ١٤٦١- ١٥٣٧م :

* قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون ، (ميكروفيلم) بمكتبة قسم التاريخ رقم (٢) مصورة عن ميكروفيلم بالمكتبة الوطنية بباريس رقم ٦٠٥٨ .

٣ - الجرموزى : المطهر بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن المنتصر أبو على الشريف الحسنى الجرموزى
١٠٠٣-١٠٧٧هـ = ١٥٩٥-١٦٦٧م :

* النبذة المشيرة الى جمل من عيون السيرة فى أخبار المنصور بالله رب العالمين القاسم بن محمد ، فرغ من كتابتها سنة ١٠٦٤هـ = ١٦٥٤م (ميكروفيلم) مصور من مكتبة المتحف البريطانى رقم ٣٣٢٩ .

٤ - الشرفى : شمس الدين أحمد بن محمد بن صلاح الشرفى
٩٧٥ - ١٠٥٥هـ = ١٥٦٧م - ١٦٤٧م :

* اللآلىء المضيئة فى أخبار الأئمة الزيدية ، (ميكروفيلم) مركز البحث العلمى بجامعة الملك عبد العزيز ، مصور عن مخطوطة موجودة فى مكتبة بروزيانا فى ميلان رقم ١٠١ .

٥ - الكبسى : محمد بن اسماعيل بن يحيى بدر الدين الكبسى الحسنى ، سنة ١٢٢١-١٣٠٨هـ = ١٨٠٦ - ١٨٩١م :

* اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية ، مكتبة القاضى محمد بن على الأكوع الخاصة بتعز رقم ٢٣٦ .

٦ - الموزعـــــــــى : القاضي شمس الدين عبد الصمد بـــن اسماعيل بن عبد الصمد الشهيربالموزعي نائب الشريعة في مدينة تعز :

* الاحسان في دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمـان (ميكروفيلم) محفوظ بدار الكتب تحت رقم ٢٣٧٩ ، وهي منقولة عن نسخة (الميكروفيلم) المحفوظة بمعهـــــد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية ، وهـــي مأخوذة عن نسخة مكتبة علي أميري باستانبول .

٧ - عيسى بن لطف الله بن المطهر بن الامام شرف الدين يحيى ، توفـــي سنة ١٠٤٨هـ = ١٦٣٨م :

* روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفـــتن والفتوح ، الجزء الثاني والثالث ، (ميكروفيلم) مـــن معهد المخطوطات العربية رقم جـ ٤٠٦ تاريخ

٨ - المؤلف مجهـــول :

* تاريخ دولة الترك ، تاريخ المخطوطة سنة ١١٠١هـ = ١٦٩٠م (ميكروفيلم) محفوظة بالمكتبة المتوكليـــة اليمنية بالجامع الكبير بصنعاء رقم ٣٧بتاريخ

٩ - المؤلف مجهول :

* تاريخ دخول الأتراك الى بلاد اليمن ومن ملك اليمن من الطوائف المختلفة فى زمن الاسلام .
أنهى المؤلف أحداثها الى سنة ١٠٣١ هـ فى ولاية فضلى باشا (ميكروفيلم) بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية رقم ٤٥١ تاريخ

١٠- يحيى بن الحسين بن الامام القاسم بن محمد ، توفى سنة ١١٠٠هـ = ١٦٨٩م :

* أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ، مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٣٤٧ تاريخ .

ooo

ب - الكتب العربيـــة

١١- ابن خلـــدون :

* مقدمة ابن خلدون - القاهرة - دار الشعب .

١٢- الأب انستاسى مارى الكرملى البغدادى :

* النقود العربية وعلم النميات [1] ، القاهرة ،المطبعة العصرية سنة ١٩٣٩م .

١٣- أحمد حسين شرف الدين :

* تاريخ الفكر الاسلامى فى اليمن ، مطبعة الكيلانـــى ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .

١٤- أحمد حسين شرف الدين :

* اليمن عبر التاريخ ، القاهرة ،مطبعة السنة المحمدية الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ ،- ١٩٦٨م .

١٥- أحمد حسين شرف الدين :

* تاريخ اليمن الثقافى ، الجزء الرابع ،القاهرة ،مطبعـــة السنة المحمدية سنة ١٩٦٧م

---

(١) علم النميات : هو علم تعرف به انواع النقود والرصائع التى ضربت فى أزمان مختلفة وبلاد شتى الاب انستاس ص ١٢١

١٦- أحمد السعيد سليمان :

* تاريخ الدولة الاسلامية ومعجم الأسر الحاكمة .
جزءان ، القاهرة ، دار المعارف سنة ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م

١٧- أمين دويدار :

* صور من حياة الرسول ، القاهرة ، دار المعارف ،
الطبعة الثالثة .

١٨- اسماعيل سرهنك :

* حقائق الاخبار عن دول البحار ، القاهرة ، بولاق ،
الطبعة الأولى سنة ١٣١٢هـ .

١٩- الهمزاني : أبي محمد الحسن بن أحمد الهمزاني المتوفى
سنة ٣٣٤هـ .

* صفة جزيرة العرب ، ليدن ، ١٤٨٤ هـ

٢٠- الواسعي : عبد الواسع بن يحيى الواسعي :

* تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث
وتاريخ اليمن ، القاهرة ، المطبعة السلفية ومكتبتها
سنة ١٣٤٦هـ = ١٩٢٨م .

٢١- جـــاد طـه، د :

* سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ، القاهرة ، دارالفكر العربى سنة ١٩٦٩م - ١٩٧٠م .

٢٢- حسين بن علىالويـــسى :

* اليمنالكبرى ، القاهرة ، النهضة العربية سنة١٩٦٢

٢٣- السيد مصطفى سالم ،د :

* تكوين اليمن الحديث - القاهرة ، مكتبة سعيـــد رأفت ، الطبعة الثانية سنة ١٩٧١ .

٢٤- السيد مصطفى سالم د :

* الفتح العثمانى الأول لليمن - القاهرة ،المطبعـــة العالمية سنة ١٩٦٩م .

٢٥- ساطع الحصـــرى :

* البلاد العربية والدولة العثمانية ، بيروت ،دار العلم للملايين ،الطبعة الثالثة سنة ١٩٩٥م

٢٦- الشوكانـــــــى : الشيخ محمد بنعلى الشوكانى المتوفى سنة ١٢٥٠هـ

* البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، جزءان ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، الطبعة الاولى ١٣٤٨هـ.

٢٧- العرشـــــي : حسين بن أحمد العرشي :

* بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن من ملك وامام (مخطوطة) نشرها وحققها الأب انستاسي مارى الكرملي- القاهرة، مطبعة البرتـــيرى سنة ١٩٣٩م

٢٨- العقيلـــــي : محمد بن أحمد عيسى العقيلي :

* تاريخ المخلاف السليماني ، أو الجنوب العربي فـــي التاريخ ، جزء أول في مجلدين ، الرياض ، مطابـــع الرياض سنة ١٣٧٨ هـ = ١٩٥٨م .

٢٩- علي همـــــت :

* العاهل العثماني أبو الفتح السلطان محمد الثانـــي فاتح القسطنطينية وحياته العدلية ، ترجمه من التركيـــة الى العربية ، محمد احسان بن عبد العزيز الخانجي ، القاهرة سنة ١٩٥٣م .

٣٠- عبد الحميد البطريق ، د :

* من تاريخ اليمن الحديث ، القاهرة ، معهد البحـــوث والدراسات العربية ، التابع لجامعة الدول العربيـــة سنة ١٩٦٩م.

٣١- عبد العزيز سليمان نوار ، د :
* الشعوب الاسلامية ، بيروت ، دار النهضة العربية سنة ١٩٦٣م .

٣٢- عبد العزيز محمد الشناوى ، د :
* أوربا فى مطلع العصور الحديثة ، الجزء الأول ، القاهرة دار المعارف سنة ١٩٦٩م .

٣٣- عبد الله بن حامد الحبيد ، د :
* سفارة الامام المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم الى البلاط الملكى فى عاصمة الحبشة .
مقال فى مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، العدد الثالث ، مكة المكرمة سنة ١٣٩٧هـ ، ١٣٩٨هـ .

٣٤- فاروق عثمان أباظة ، د :
* الحكم العثمانى فى اليمن ١٨٧٢ - ١٩١٨م ، القاهرة ، وزارة الثقافة ، المكتبة العربية سنة ١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م

٣٥- فاروق عثمان أباظه د :
* السياسة البريطانية فى البحر الأحمر ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٦م .

٣٦- قطب الدين النهروالـــى :

* البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، الرياض، دار اليمامة الطبعة الأولى سنة ١٣٧٨هـ = ١٩٦٧م .

٣٧- كارل بروكلمـــان :

* تاريخ الشعوب الاسلامية ، نقله الى العربية نبيه أمين فارس ، ومنير البعلبكى ، بيروت ، دار العلم للملايين الطبعة السادسة سنة ١٩٧٤م .

٣٨- لويس معلـوف :

* المنجـــد ، بيروت - الطبعة العاشرة سنة ١٩٤٧

٣٩- ل . ج . شيـنى :

* تاريخ العالم الغربى ، ترجمة محب الدين حفنى ناصف القاهرة ، دار النهضة العربية .

٤٠- المحـــــبى : محمد بن الأمين بن فضل الله بن محب اللـــه ابن محمد المحبى الحموى الدمشقى الحنفـــى ت سنة ١١١١هـ = ١٦٩٩م .

* خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر، ٤ مجلدات بيروت ، دار صادر .

٤١- المحبى :
* نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ، الجزء الثالث ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨م .

٤٢- محمد أبو زهرة :
* الامام زيد ، حياته ، عصره ، آراؤه وفقهه ، - القاهرة دار الفكر العربى سنة ١٣٧٨هـ = ١٩٥٩م .

٤٣- محمد عبد اللطيف البحراوى ، د :
* فتح العثمانيين عدن وانتقال التوازن الدولى من البر الى البحر ، القاهرة ، دار التراث ، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م .

٤٤- محمد عبد اللطيف البحراوى ، د :
* حركة الاصلاح العثمانى فى عصر السلطان محمود الثانى ، القاهرة ، دار التراث ، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م .

٤٥- محمد فريد بك المحامى :
* تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ، دار الجيل سنة ١٣٩٨هـ = ١٩٧٧م .

٤٦- مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجى خليفة :
كشف الظنون عن اسامى الكتب والفنون ج٢ - وكالة المعارف ومطبعتها ١٣٦٢هـ - ١٩٤٣م .

٤٧- محمد كمال الدسوقي ،د :

* الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، القاهرة ، دار الثقافة سنة ١٩٧٦م

٤٨- محمد يحيى الحداد :

* تاريخ اليمن السياسي ،دار الهنا للطباعة ، الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م ٠

٤٩- محمد مختار باشا :

* التوفيقات الالهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية ، القاهرة ،المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣١١هـ = ١٨٩٤م ٠

٥٠- نور الدين حاطوم:

* تاريخ عصر النهضة الأوربية ـ لبنان ،دار الفكر الحديث سنة ١٣٨٧هـ = ١٩٦٨م ٠

٥١- هارولد . ف . يعقوب . ك.س. أي ـ ترجمة أحمد الضواحي

* ملوك شبه جزيرة العرب ،وترجم الكتاب تحت اسم عدن وجنوب اليمن ،الجزء الأول ، دمشق ، دار النهضة العربية ، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م٠

٥٢- هارى .و . هازارد :

* أطلس التاريخ الاسلامى، ترجمة ابراهيم زكى خورشيد القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية .

٥٣- يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن على :

* غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور و محمد مصطفى زياره ، الجزء الثانى القاهرة ، دار الكتاب العربى سنة ١٣٨٨هـ -١٩٦٨م وهو مختصر لمخطوطة أنباء أبناء الزمن .

٥٥

جـ - الكتب الأجنبيـــة

٥٤ - Robert L. Playfair :

Ahistory of Arbia Felix,
or yemen
Amesteram philo prers
st.Leonatds 1970.

--

فهرس الموضوعات

المقدمـــــة : ١ - ٨

التمهيـــــد : ٩ - ٣٨

أ - نبذة عن الامامة الزيديــــة

ب - انهاء امامة أولاد المطهر بن شرف الدين وأسر الامام الحسن .

جـ - فترة الاستقـــــرار .

الفصـــل الاول : الامـــام القاســـم ٣٩ - ٧٩

أ - نسب الامام القاسم ونشأته وظهور دعوتـــه سنة ١٠٠٦هـ .

ب - حروب الامام في الكرة الأولى مع حسن باشـــا

جـ - استقرار الامام في السودة سنة ١٠٠٨هـ ، وبقية حروب الكرة الأولى .

د - اشتداد الحصار على شهارة سنة ١٠٠٩هـ وخروج الامام الى بـــرط.

الفصـــل الثاني : ولاية سنان باشا سنة ١٠١٣هـ - (النهضة الثانية) ٨٠ - ١٠٦

أ - عرض الصلح على الامام القاسم في ولايـــة سنان باشا سنة ١٠١٣هـ .

ب - التطورات في النهضة الثانية وفكرة رحيـــل الامام للبصرة .

جـ - انضمام الأمير عبد الرحيم بن عبد الرحمـــن للامام وبقية التطورات .

د - عودة شهارة للامام القاسم سنة١٠١٥ هـ ثم عقد الصلح مع سنان باشا قبيل رحيلـــه

الفصل الثالث : صلح سنة ١٠١٦ هـ ونتائجه ١٠٧ -- ١٢٩

أ ـ سياسة جعفر باشا .

ب ـ صلح سنة ١٠١٦ هـ ، استقرار الامام في شهارة .

جـ ـ تفرغ جعفر باشا للأمير عبد الرحيم بن عبد الرحمن .

د ـ أسر عبد الرحيم ونفيه سنة ١٠١٨ هـ .

الفصل الرابع : الحالة بعد عزل جعفر باشا (١٠٢١ هـ - ١٠٢٩ هـ) (النهضة الثالثة والرابعة) ١٣٠ - ١٦٤

أ ـ عودة جعفر باشا للولاية بعد عزله وموت ابراهيم باشا وما أعقبها من تطورات (١٠٢١ - ١٠٢٥ هـ (أسر الحسن بن الامام - موقعة غارب أثلة - موقعة الشقاب)

ب ـ الوالي محمد باشا وسياسته ١٠٢٥ هـ

جـ ـ الصلح مع الامام ١٠٢٨ هـ

د ـ وفاة الامام القاسم ١٠٢٩ هـ

الفصل الخامس : الخلل في الاستانة ١٦٥ - ١٨٧

أ ـ نظرة عامة في أهم النظم العثمانية

ب ـ الخلل في الاستانة وأثره على اليمن

جـ ـ التوازن بين الامامة والولاية

الخاتمة
النتائج والتحليل ١٨٨ - ٢٦٤

الملاحق ٢٦٥ - ٢٦٨
- الملحق الاول :
السلاطين العثمانيون الذين عاصروا الامام ٢٦٦
- الملحق الثانى :
الولاة العثمانيون فى اليمن فى عصر الامام ٢٦٧
- الملحق الثالث : ٢٦٨

ملحق خاص بالمراجع ٢٦٩ - ٢٨٨

ثبت المراجع ٢٨٩ - ٣٠٣

طبع : سيدة زكي